

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

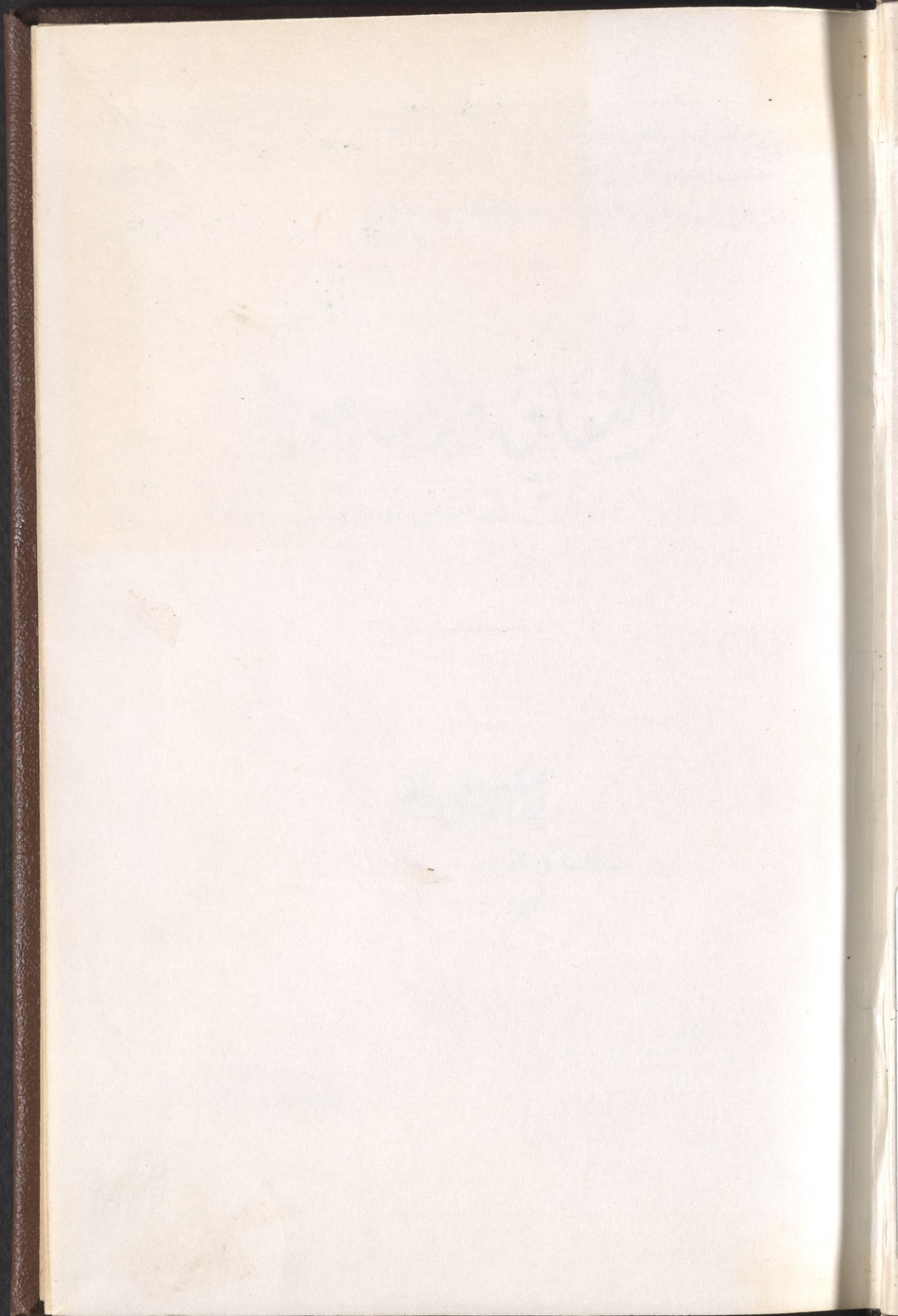


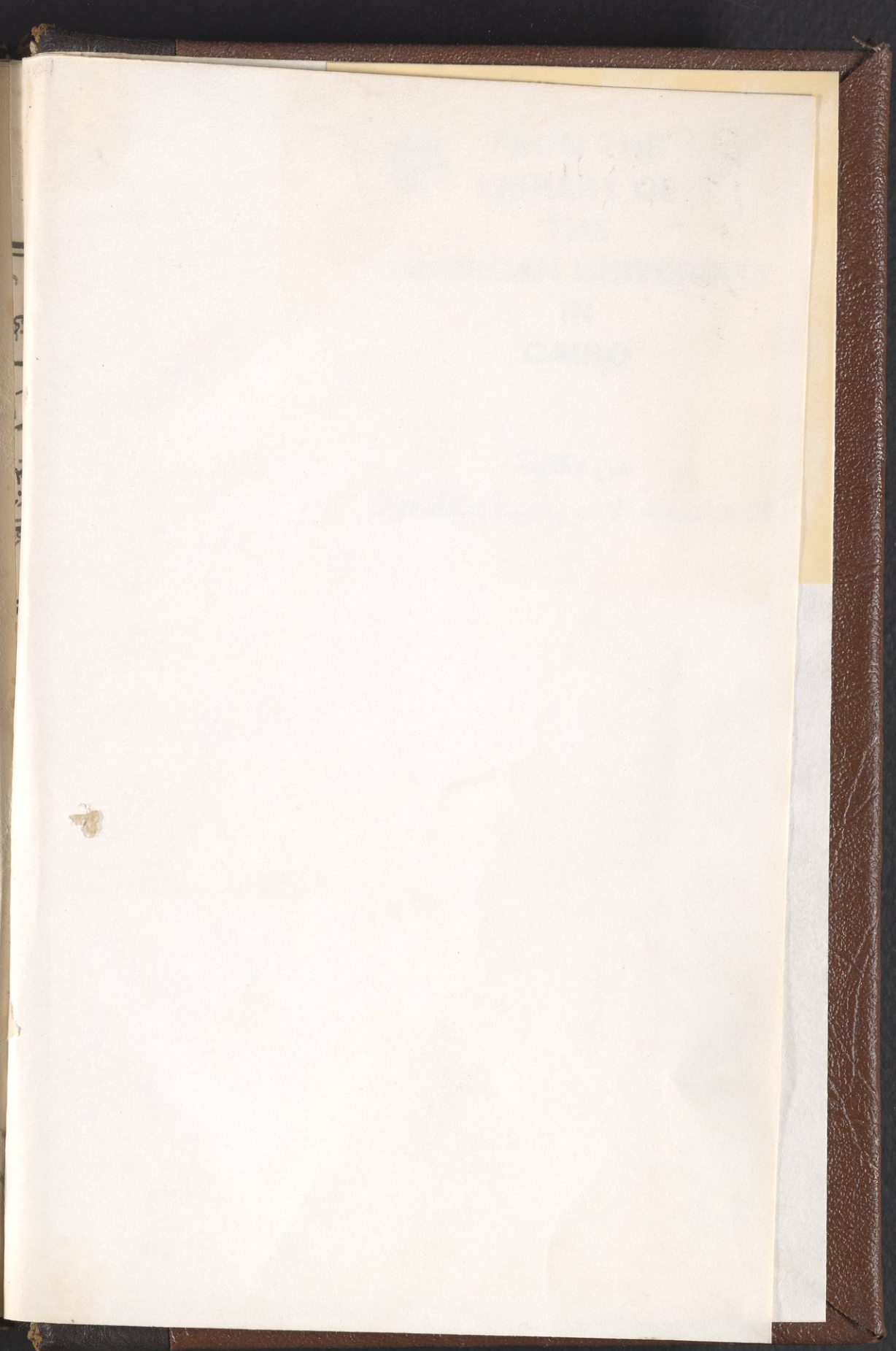
3 8534 01223 4914



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





BP

188.14

H 8

S 2*

1948

يَوْمَ يَقُولُ لِمَنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا نِظَرًا
قَلِيلًا مِّنْ نُّورِكُمْ قِيلَ اهْبِطُوا زُرَّكُمْ فَاتَّبَعُوا نُورًا فَضْرَبَ
بَيْنَهُمْ بَرْزَخًا بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ فِيهِ الْعَذَابُ
قُرْآنٌ كَرِيمٌ

النِّفَاقُ وَالْمُنَافِقُونَ

فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إِبْرَاهِيمَ عَلِيَّ سَهْلَمِ

لِإِسْنَانِيَةِ فِي الْقَوَانِينِ مِنَ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ
مَأْمُورٌ مَرْكَزُ قُوسٍ

OCLC
956970348

B14416840
16007785

تفسير القرآن العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

في تفسير القرآن العظيم
بسم الله الرحمن الرحيم

تصدیق

تفضل المغفور له الشيخ مصطفى أبو سيف الحامى بمراجعة الكتاب
وبالكلمة الآتية أسكنه الله فسيح جناته وجمعنا به فى رحمته وفضله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بين النفاق والمنافقين ، وإن بانغوا مهما بالغوا
فى الاختفاء ، لأنه العالم بأحوال كل العالمين ، ظواهرهم وبواطنهم
عنده سواء . وأشهد ألا إله إلا الله شهادة المخلصين الصادقين ،
لا شهادة ذوى القلوب المريضة من المنافقين الأذنياء ؛ فمن
هؤلاء يبرأ من التشابه بهم عقلاء المؤمنين ، وكيف يرضى التشابه
بهم عاقل وهم المغضوب عليهم من رب الآلاء . وأشهد أن سيدنا
ومولانا محمداً عبده ورسوله خاتم المرسلين ، الذى من الخوف
منه نافق من نافق من الأشقياء ؛ فاختار أخف الضررين تسترهم
فى جملة المؤمنين العارفين ؛ ولم يقتلهم لئلا يتحدث الناس بأن محمداً
يقتل أصحابه الأوفياء ؛ وهذا ضرر أكبر لأنه يصرف الناس
عن الدين ، وما لهذا رحمة الله للعالمين جاء ، اللهم صل وسلم وبارك

(ب)

على سيدنا محمد الأمين المأمون وعلى آله وأصحابه وكل من سار
سيرهم من الاتقياء . (أما بعد) :

فقد اطلعت على هذا الكتاب الكريم ﴿ النفاق والمنافقون ﴾
في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فأعجبني جد الإعجاب ﴾
لأنه بقلم الأديب الكبير الأستاذ إبراهيم علي سالم أحد الأفاضل
النجباء ، كيف لا وهو أبان لنا موضوعاً يدينه رب العالمين في
مواضع كثيرة من كتابه الامام ، ومن يبين موضوعاً كهذا إلا
العلم بالظواهر والبواطن سبحانه وتعالى — فليست مع به القارىء
الصافي الايمان وليفرح به وليدع لصاحبه بطول الأجل والتوفيق
لكل خير ، خصوصاً أمثال هذا البحث الجميل الذي يبين لنا
مقصد ذلك الكاتب الذليل بالكتاب . وقرأ قوله زاده الله
حرصاً على التشبه بسيد الوجود آخر الانبياء صلى الله عليه وسلم
وأصحابه رضى الله عنهم : (فما أردت بالكتاب إلا أن أصاحب
عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأتمثل الحوادث تتجسد أمامي
فأحاول أن أشم شيئاً من نفحات ذلك العصر ، وأن أدخل أنفي
وقلبي وروحي في ذلك التراث الوثير من الاخبار لعل بصيصاً

(ج)

من نور النبوة يحبي من النفس مواتها ويرفعها من أرجاسها ويفسل
ما قد يكون عالقاً بها من النفاق والرياء (تفهم ما أشير إليه .
وشكراً لل المؤلف لا يجد لما بذله من الجهد المضني في هذا الموضوع
والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

مستطفي أبو يوسف الحمصي ٩ شوال سنة ١٣٦٧
(طبق الأصل) خطيب الحرم الزيني ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٨

شاء حسن ظن أخينا في الله الأستاذ السيد عرفه المدرس بالمدارس
الثانوية أن يقدم لنا الكتاب بهذه الكلمة فلم نر بدأ من نشرها
شاكرين له حسن ظنه وإن كنا موقنين أنه فاق ما نستأمله :

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسوله السيد السند الكريم

لقد كان أول أمر أنزله الله على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم
من السماء قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان
من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان
ما لم يعلم) وأنا أنسج على هذا المنوال فأطلب من كل مشقف أن
يقرأ هذا الكتاب مستحضراً ذهنه ، مناقشاً فكره في موضوعه
الطريف ، وتحسن تناوله الظريف . ولست أقصد بطرافته الابتداع
لما لم يكن موجوداً له ، ولا التصدي لتحليل لم يسبق اليه ، ولكنني
ذهبت الى ناحية الجمع والتجميع ، وعرض صورة حية من صور
الانسانية المترعة بمظاهرها الخيرية والشريرة ، واذا كان المؤلف
قد اختار الأخيرة فذلك لأنه سار في طرق الاولى مطبوعاً غير

مستطيع فأراه الله حدوده وبين لروحه نور اليقين وظلمة المعاصي ؛
 غرأى لزأما عليه حتى يكون شاكرًا لربه أن يقف على تلك الحدود
 لينزع عنها من يوشك أن يتورط فيها شأن القائد المخذك الوائق
 بنفسه تراه يتنحى ناحية الخوف ليندود عن جماعته أسباب المهالك
 ويجنبهم سوء المنقلب . وانه لا خسران يعادل خسران رحمة الله
 يوم العرض عليه في موقف لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يقبل
 من نفس شفاعته ، ولا يؤخذ منها عدل . فعليك أيها الحصيف قراءة
 هذا الكتاب وترديد قراءته لتعلم مقدار هذا البحث القيم في
 التعريف بخناق انساني ذميم ألبيسته له الحياة الاجتماعية ، وقوته
 الاطماع الشخصية حتى أكل القلوب وطمس معالم الانسانية ، وأقام
 الدنيا وأقعدها في جميع أطوار التاريخ ، ثم بلغ أشده وتجلى في
 عنفوان زمن الرسول صلى الله عليه وسلم . ولا غرو فان
 الكمال التام لا يظهر إلا اذا قرن بالنقص التام . وكل ذلك مستجده
 مفصلا في كتاب ابراهيم (النفاق والمنافقون في عهد رسول الله
 صلى الله عليه وسلم) أيها القارئ فتملى نفسك روعه . وحينئذ
 تعرف شرف الموضوع وتقر لكاتبه بمحمد المجهود وتود لو أنه

أتبعه بمثله في العصور الأخرى ليتبع الخلق عن مثل هذه السعاسف
 وليعيشوا إخوانا متناصرين حاسبين ليوم معادهم كل حساب .
 غالى الأمام يا ابراهيم ولا تلهينك شئون الوظيفة فتحرم العلم من
 قلبك وفكرك وبحبك أكثر الله من أمثالك ، وأنا لك ما تصبو
 اليه من اتصال بجبل الله المتين ، وشرقك بشفاة سيد المرسلين ،
 وأطال عمرك مع مدد بروح من عنده ليسلكك في سلك العاملين
 المأجورين .

السيد عرفة

(طبق الأصل)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الحى القيوم العلى العظيم ، والصلاة والسلام على
الرسول الكريم ، الشاهد المبشر النذير ، السراج المنير ، سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد فقد قال ابن المقفع فى الادب الصغير إن : سليقة
العقل مكنونة فى مغزها من القاب ، لا قوة لها ولا حياة بها
ولا منفعة عندها حتى يعتملها الادب الذى هو نماؤها وحياتها
ولقاحها . وجل الادب بالمنطق ، وكل المنطق بالتعلم ، ليس حرف
من حروف معجمه ، ولا اسم من أنواع أسمائه إلا وهو
مروى متعلم مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب وذلك
دليل على أن الناس لم يبتدعوا أصولها ولم يأتهم علمها إلا من
قبل العاليم الحكيم .

فاذا خرج الناس عن أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا

قولا بديعاً ، فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن
وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد يا قوتاً
وزبرجداً ومرجاناً فنظمه قلائد وسموطاً وأكاليل ووضع كل
فص موضعه ، وجمع الى كل لون شبهه ، مما يزيده بذلك حسناً
فسمى بذلك صائغاً رقيقاً وكصاغة الذهب والفضة صنعوا فيها
ما يعجب الناس من الحلى والآنية ، وكان الحبل وجدت ثمرات
أخرجها الله طيبة وسالكت سبيلاً جعلها الله ذللاً ، فصار
ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً اليها مذكوراً به أمرها
وصنعها .

فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه
فلا يعجب به إعجاب المخترع المبتدع ، فانه إنما اجتباها كما وصفنا
ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضعه على وجهه
فلا يرين عليه في ذلك ضئولة فانه من أعين على حفظ قول
المصيبين ، وهدي للاقتداء بالصالحين ووفق للاخذ عن الحكماء
ولا عليه ألا يزداد فقد بلغ الغاية وليس بناقصه في رأيه ولا

بغائضه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه .

وانما أرجو من اراد هذا الحديث عن ابن المقفع ألا يتوقع
سقارىء أن يجد في هذا الكتاب بحوثاً فنية مؤسسة على ما اصطلح
عليه أهل الفن في التأليف الحديث من التقسيمات والدرس
والبحث والتحليل . وقد يكون أكثر الجهد في جمع أخبار
المنافقين المبعثرة في مطولات كتب السيرة النبوية والتاريخ
وال تفسير والحديث ، وجمع كل خبر الى مناسبه وصاحبه . وقد
اقتضى هذا الجمع جهداً مضمياً وزمناً طويلاً بلغ بضعا من السنين
نظراً لضيق وقت الفراغ . وحتى لقد حرصت كثيراً أن أورد
الخبر بلفظه ، كما ورد في كتب السير ، ولو كان اللفظ
غريباً .

وانى لأعلم أن الكتاب على وضعه الحالى ينقصه كثير من
التحقيق ، فعالم الحديث يرى فيه أحاديث قد تكون موضعاً
للتحقيق من جهة نوع الحديث وصحته ، ورجال السند . وعالم
التاريخ يرى في بعض أخباره ما يحتاج للتحقيق ، وخاصة فيما قد

أختره من الروايات المتناقضة . وعالم الفقه يرى في بعض أبحاثه
أنها مقتضبة غير شافية . فإلى هؤلاء أحنى رأسي ملتئماً بالمعذرة .
فما أردت بالكتاب إلا أن أصاحب عهد الرسول صلى الله عليه
وسلم وأتمثل الحوادث تتجسد أمامي ، فأحاول أن أشم شيئاً من
نفحات ذلك العصر ، وأن أدخل أنفي وقلبي وروحي في ذلك
التراث الوثير من الاخبار ، لعل بصيصاً من نور النبوة يضيئ من
النفوس موانئها ويرفعها من أرجاسها ، ويغسل ما قد يكون عالقا
بها من النفاق والرياء . ولقد يهذى العاشق بمحبوبته فيتنسم من
حيها ومنزلها وصورتها وما أكلها ومشربها وملهاها ما تلتهب به
نفسه فيتمتع بما قد يستعر في قلبه من لظى الحب . ولقد ينفق
الناس أموالاً طائلة في المسارح والملاهي والسينمات وقراءة
الروايات ليخلقوا حولهم جواً من الشعور بما يجدونه فيها من
الخيالات والاقاصيص . أفلا تكون لي من ذلك مندوحة فأحاول
أن أتمثل عصر النبوة وأنسم شيئاً من جوهه ، وأن أستصحب معي
من شاء من القراء .

ولقد كنت منذ حداثة سني أقرأ القرآن فيروعي وأنا طفل
صغير أن أسمع لفظ المنافقين فأستشعر صراعا غنياً لا أدري
مداه بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمنافقين ، وكان الزمن
كلما مضى بي الى الفتوة يدفعني أن أستزيد علماً بهذا الصراع ، وأن
أستطلع ما أستطيع استطلاعاً من أمره حتى كانت أمسية جميلة
بمسجد الحرم الزينبي بعد صلاة المغرب إذ هممت بالخروج
فسمعت شيخ المسجد الوقور - محمود البيلالوي رحمه الله -
يحدث الناس بحديث المنافق بشر الذي رفض الاحتكام الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب الاحتكام الى كعب بن
الاشرف اليهودي ، فأفاض الشيخ وقص القصة رائعة رنانة ،
ثم نشر الايات التي نزلت في هذا الشأن ، وشرح أوصاف المنافقين
وأحوالهم ، كما وردت في أول القرآن من سورة البقرة . فما أن
انتهى الشيخ من حديثه حتى هفت نفسي الى الاستزادة من
هذا التاريخ العجيب الذي نرى الان أمثاله فاشياً بين
الاحياء .

وما كنت لأفكر أول الأمر أن يكون هذا بحثاً ولا كتاباً ، وإنما كنت أدون مما أفرؤه مذكرات أحفظ بها لنفسي وخاصة في أخبار المنافقين ، إذ كنت أفرد لها مجموعة مستقلة ، حتى اطلع عليها عزيز على نفسي فدعاني أن أجمعها فأخرجها كتاباً ، وما كان تأليف الكتب من شأني بعد أن انتحيت في عمل يأكل الزمن التهاماً ويقضي على صاحبه أن يستغرق فيه . ولكن صاحبي أبي إلا التشجيع بالمعاودة والإلاحاح ، فأقمت على الأمر أعالجه ويستعصى على وأتركه تحت ضغط مشاكل الحياة وآلامها ، ثم يترامى لي كالحلم الجميل فانزع إليه حتى يسر الله بفضله علي النحو الذي أتقدم به إلى القراء .

ولم يصل إلى علمي أن جمعت أخبار المنافقين من قبل في كتاب واحد ، فليكن شفيعي إلى الناقد البصير جهدي . ولعل ذلك يفتح للقلوب الكبيرة أبواباً لتسكلة البحث ، ولعلّ إذ

وصلنى الزمن وأتاح الله لى الفرصة أن أستكمل ما قد ينكشف
من النقص . ويكفينى الآن أن أنفض غبار الزمن عن أفانين
النفاق فى ذلك العهد ، وكلى رجاء وأمل أن ينفض غيرى غبار
الزمن عن أفانين النفاق التى جاءت بعد ذلك العهد ، فأحدثت
كثيراً من الفتن وخلقت كثيراً من المشاكل والفرق .
وبالله التوفيق .

ابراهيم على سالم

سمنود ٢٤ رجب سنة ١٣٦٧

٢ يونيه سنة ١٩٤٨

محتويات الكتاب

مقدمة عامة

١-١٨

تعريف النفاق - الكذب عنصر أساسي من عناصر
الحياة - علاقة الكذب بالعدم وبالأشخاص - أسباب
الكذب - الحكم على الكذب - الكذب والغريزة -
خواص النفاق - العالم بدون نفاق - النفاق في الأمور
الخطيرة - النفاق في الحروب - الجاسوسية - النفاق في
السياسة والحكم - تداخل النفاق في كثير من الجرائم الخلقية -
النفاق والكذب ألفاظ مكروهة مردودة - ما كيا في والنفاق -
بعض تعاليم ما كيا في - قيمة تعاليم ما كيا في - النفاق سابق
لما كيا في - النفاق في صدر الإسلام - درء النفاق والمدينة
الفاضلة .

مقدمة تاريخية

١٨ - ٣١

تاريخ العرب وتاريخ المدينة - لم يكن العرب دولة واحدة والسبب في ذلك - دولة اليمن - دولة المناذرة والغساسنة ولأندلس وتبعيتها لغيرها - النظام القبلي في بلاد العرب - النظام القبلي لا يعرف الملكية .

تاريخ المدينة قبل الإسلام - قبائل المدينة - الخلاف بين الأوس والخزرج - حروب الأوس والخزرج وظهور ربيعة عبد الله بن أبي سلول - يوم بعاث - الميل إلى الوثام ونبتذ الحرب والعزم على تنويع عبد الله بن أبي ملكا على المدينة .

باب الأول

نشوء النفاق وحوادث المنافقين

بدء النفاق

٢٢-٤٦

تضاؤل النعرة القبلية بالمدينة - جامعة الأوس والخزرج
تحت اسم الأنصار - الظواهر الجديدة بالمدينة وتضامن الأنصار -
المعاهدة - شئون الذين لم يؤمنوا - أبو عامر الفاسق - عبد الله
ابن أبي زعيم المنافقين - اشتغال ابن أبي البغاء - ابن أبي قبل
تظاهرة بالاسلام - ابن أبي أثناء دخول النبي صلى الله عليه وسلم
المدينة ، ثم عند مروره بأطمه - ابن أبي وابنه عبد الله -
اجتذاب ابن أبي للأعراب - محاولته إشعال الفتنة بين
الأنصار

أثر موقعة بدر وإسلام ابن أبي

٤٧ - ٥٠

قوة المشركين في موقعة بدر - نتيجة الموقعة بالنسبة لليهود
والمنافقين - الارجاف الكاذب قبل عودة الجيش - تظاهر
ابن أبي بالاسلام .

في موقعة بني قينقاع

٥١ - ٥٧

خروج بني قينقاع على العهد وسبب ذلك - تبرؤ عبادة
ابن الصامت منهم وموالاة ابن أبي لهم - تحدى اليهود - شفاعته
ابن أبي لليهود

ابن أبي بعد اجلاء بني قينقاع

٥٧ - ٥٩

أعمال متفرقة ..

في موقعة أحد

٦٠ - ٧٩

ابتلاء المؤمنين واختبارهم - ظهور المنافقين الجماعى في أحد -

عدد المشركين في أحد - استشارة النبي صلى الله عليه وسلم
لأصحابه - ابن أبي في الاستشارة - الرأى بالحرب داخل المدينة
وخارجها ، ثم تغلب الرأى الثانى - خروج ابن أبى ومعه اليهود
ورفض التحاقهم بالجيش - غرض ابن أبى - محاولات ابن أبى -
سبب استحضار اليهود - ضعف المنافقين - غرض ابن أبى في
إدخال الفشل على العسكر - استمرار بعض المنافقين في الجيش -
الارجاف والشماتة بعد الواقعة - شماتة المنافقين - سيامة النبي
صلى الله عليه وسلم في عدم قتل المنافقين - ابن أبى وابنه
عبد الله بعد أن أصيب - ابن أبى يحاول استعادة مركزه يوم
الجمعة .

في غزوة بنى النضير

٨٠ - ٨٨

دور المنافقين - سبب الغزوة - ما فعله ابن أبى - اغترار
اليهود بإرشاد المنافقين - اخلاف المنافقين وعودهم - سبب وعود
ابن أبى - حزن المنافقين على بنى النضير .

في غزوة الخندق

٨٩ — ٩٥

تخاذل المنافقين . سبب الغزوة . المنافقون بضد بعض
المعجزات . نقض يهود بني قريظة العهد . سخرية المنافقين .
اشتداد الخوف والبلاء . عدم ظهور ابن أبي في هذه الحوادث .
في غزوة بني المصطلق

٩٦ — ١٢٢

دوران هamaan للمنافقين . سبب خروج المنافقين في الغزوة .
الدور الأول محاولة توسيع الخلاف بين المهاجرين والأنصار
لسبب تافه . زيد بن أرقم يروي أقوال ابن أبي . اعتذار ابن
أبي وحلفه . فشو الحديث . عبد الله بن عبد الله بن أبي يعرض
قتل أبيه . الأمر بالرحيل في ساعة منكرا . السير الحثيث
نزول سورة المنافقين . معاتبة قوم ابن أبي له وتعنيفه . عبد الله
ابن عبد الله بن أبي يعترض آياه .

الدور الثاني حديث الافك . سبب الحديث . ابن أبي يتولى
الحديث عقب الدور الأول . قصة الافك على لسان السيدة .

عائشة رضى الله عنها . الفترة بين حديث الافك وآيات البراءة .
الاستشارة . الاستعذار . غرض ابن أبي من الحديث وذكر
من انزاق اليه .

بعد غزوة بنى المصطلق الى تبوك

١٢٢-١٢٨

في صلح الحديبية . المشركون من قريش يدعون ابن أبي
للطواف . الشكوى من قلة الماء وما تم في ذلك . المجد بن قيس
في الحديبية .

في غزوة خيبر . عدم تأثيرهم بفتوح المسلمين .

في غزوة تبوك

١٢٩-١٧٣

مميزات الغزوة وسورة براءة . الأمر بالغزوة . التناقل الأول
البكاءون . تصيد الأعذار . التخلف وبعض أعذاره . عزل
المنافقين . تأليف فرقة لتثييط الهمم . عدم الحزى من الدعاية .
ابن أبي ويأسه من الدعاية . المتخلفون . خلو المدينة من الرجال
الأشداء عدول أبي خيشمة عن التخلف . الجاسوسية في الجيش .

الشبهة في طلب الماء . المنافقون يتحدثون عن ضياع ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف تأولوه في العودة من تبوك . حادث العقبة . ارجاف المنافقين ثم اعتذارهم . قصة التوبة وأهميتها .

مسجد الضرار

١٧٤ — ١٨٠

فكرة انشاء المسجد . أسماء بناته . المسجد عث للتأمر واحداث الفتن . هدم المسجد .

وفاة ابن أبي

١٨١ — ١٨٦

احتضاره وطلبه فيص رسول الله صلى الله عليه وسلم . الصلاة عليه . تفسير للغرض من اعطائه القميص والشروع في الصلاة عليه .

الباب الثاني

تعريف النفاق وعناصره وأهميته

١٨٧ - ٢٢٦

النفاق لغة . معنى النفاق وتحديد الفخر الرازي لذلك بتقسيم
أحوال القلب واللسان . أقسام الناس حسب العقيدة . أهمية
شأن المنافقين وتفصيله في القرآن . الفرق بين الكافر والمنافق .
اختلاط المنافقين بالمسلمين . تمييز المنافقين . حديث خصال
المنافقين واختلاف الآراء في ذلك . نتيجة الآراء . المراد
بالحديث . خطر الكذب والخيانة والاخلال بالوعد على العقيدة
قصة ثعلبة بن حاطب . الارتباط بين الظاهر والباطن وأهمية
أحوال القلب . أنواع القلوب . مرض القلب وعلامة ذلك بالنفاق
انتشار الكذب . معرفة كثير من المنافقين . المنافقون لم يكونوا
على درجة واحدة في النفاق .

الباب الثالث

معاملة المنافقين

٢٢٧ - ٢٥٦

أهمية البحث . الجاسوسية في الحرب والسلام ومقاومتها
في العصر الحاضر . علاج النفاق . أقسام الناس حسب ظاهر العقيدة
القاعدة الأساسية في معاملة المنافقين . النهي عن الحكم بالظن .
السبب في عدم قتل المنافقين وآراء الأئمة في ذلك . معنى الزندقة .
تشعب الفرق والزندقة . أشكال النفاق بعد عهد الرسول صلى الله
عليه وسلم . ملخص آراء الأئمة . عدم التغافل عن شأن المنافقين
وجهادهم .

النهي عن موالاة المنافقين اشتراك اليهود في النفاق . منافقون .

يتآمرون بالمسجد ، ويأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإخراجهم .

أسباب النهي

١ -

الباب الرابع أحوال المنافقين وصفاتهم

٢٥٧-٢٩٧

النفاق جامع لجميع الآفات والخصال الذميمة . عامل الحيرة .
يشترك في جميع أحوال المنافقين وصفاتهم . مثلاً عن الحيرة من
القرآن . تجسد المثلين في جميع أحوال المنافقين ثم في الدار الآخرة .

(١) حالة التربص

(٢) حالة الخوف

(٣) المنافقون في الصلاة

(٤) المنافقون في الصدقات والانفاق في سبيل الله

النفقة في الحروب . نقد باذل الصدقة . نقد توزيع
الصدقات

(٥) حالة المنافقين في الصدقات بين علي بن أبي طالب

رضي الله عنه وأحد المنافقين

قصة بشر المنافق مع اليهودي

قصة بشر بن أبيرق

(٦) المنافقون في القتال التخلف والاستئذان

الباب الخامس

أعمال المنافقين وأسلحتهم

٢٩٨-٣١٦

- (١) - اليمين الكاذبة
- (٢) - الخداع - التبييت - استغفار المنافقين
- (٣) - إثارة الخلاف بين المسلمين
- (٤) - التنفير من المؤمنين - زعم التناقض - السخرية
- (٥) - الدعاية السيئة
- (٦) - شتمة المنافقين

- ض -

الباب السادس

عرض عام

٣٤٢-٣١٧

ملحق

عن الآيات القرآنية التي وردت في شأن المنافقين .

- ٢٤ -

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

٧١٧-٧١٨

الحمد لله

الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

٧١٧

عن قول: القضاة حروب من حروب الكتب
 الكتب عصر من عصر الحياة في جميع أشكالها وألوانها
 الكتب أنواع وتكون بعضها بطريق بعض من الله
 بعض إلى الخطر الصغير وبعض القضاة أنه ينحط إلى دركات
 الكتب السفل، ولطف في حياته كما تروى أشتات من الجحيم
 الحرافة والحمة والصفاء، ويبدو إلى الخلد والغنى والفتنة
 ومن في إخراج الناس المروعة من الحب والدمعة والسكر
 والكل الحنون.

الكتب عصر: وليس من العزاة في قوله أن يقول
 عصر الكتب عصر أسامي من عصر الحياة

لأنهم أن العالم يجري على نفس واحدة من الكتب والفتنة
 في ذلك شيء كثير ولا قليل من المبالغة أو التخيال . وقد
 يكون هذه الحالة صفة على النفس، وقد تكون صفة لا على
 كتبها على أي حال الحقيقة الواقعة التي لم تكن بحياة الأحياء
 مواضع الرضا، لأنه مما كان ويكره من تعاليف
 الكمال ومواضع الرضا بالواقع على الخير والحق والصدق
 عن الناس أن يتغير في مثل هذه الأحوال والأحوال.

25

The first thing I saw when I
woke up in the morning was the
sun shining brightly through the
curtains. I felt a warm glow
all over my body. I got up and
looked out the window. The
birds were singing and the
flowers were blooming. It was
a beautiful day. I felt happy
and peaceful. I went to the
kitchen and made some coffee.
I sat at the table and drank it.
I felt good.

I went to the garden and
looked at the flowers. They
were so pretty. I picked a
few and put them in a vase.
I went to the kitchen and
made some more coffee. I
sat at the table and drank it.
I felt good. I went to the
garden and looked at the
flowers. They were so pretty.
I picked a few and put them
in a vase. I went to the
kitchen and made some more
coffee. I sat at the table and
drank it. I felt good.

مقدمة

تعريف النفاق : النفاق ضرب من ضروب الكذب ،
والكذب عنصر من عناصر الحياة في جميع أشكالها وألوانها .
والكذب أنواع وفنون يتصاعد بعضها فوق بعض من التافه
اليسير إلى الخطر العسير . ويمتاز النفاق بأنه ينحط إلى دركات
الكذب السفلى ، ويلف في طياته كلها تلوى أشتاتا من الجبن
والصلف والخسة والصفافة ، ويدعو إلى الحقد والحسد والضعف
ويفتن في إخراج المآسى المروعة من الخبث والدهاء والمكر
السيء وأكل الحقوق .

الكذب عنصر : وليس من الغرابة في شيء أن نقول بأن
أساس من أساس الكذب عنصر أساسي من عناصر الحياة :
فالأواقع أن العالم يحرق على أسس راسخة من الكذب والنفاق ،
ليس في ذلك شيء كثير ولا قليل من المبالغة أو الخيال . وقد
تكون هذه الحالة صعبة على النفس ، وقد تكون موجبة للآسى
ولسكنها على أى حال الحقيقة الواقعة التي لم تقض عليها الأديان
ولا مواعظ الوعاظ ؛ فإنه مهما كان ويكون من تكاليف
الأديان ومواعظ الوعاظ بانتهاج سبل الخير والحق ، فإن القاعدة
الغالبية على الناس أن يسيروا في سبل الشر والضلال والباطل .

وقد أوضح الله تعالى سبل الخير في منطق أخاذ وحجج دامغة
ومرغبات حافزة ومع ذلك أراد ولاراد لقضائه أن تسير
الكثرة من بني آدم في مناهج الضلال وأخبر بذلك نبيه صلى الله
عليه وسلم في كتابه العزيز فقال : « وما أكره الناس ولو حرصت
بمؤمنين » (يوسف ١٠٣) وتمت حكمة ربك لآملأن جهنم من
الجنة والناس أجمعين ، (هود ١١٩)

علاقة الكذب : والإنسان مخلوق من العدم ، يرفعه الدين
بالعدم وبالإيمان بالله إلى الحق المضيء ، وتجذبه
شكول العدم إلى وهاد الباطل المظلم ، والباطل من العدم ومظهره
الكذب . ولنا أن نتدبر قول الحق الأعلى : « إن الإنسان لني
خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق
وتواصوا بالصبر ، فإن هذه الآية الكريمة تدل فيما تدل أن
الأصل في الإنسان أن يتزلق إلى الخسران عن طريق شهواته
وغرائزه فهو يتردى من هذا الأصل في مهاوى الباطل المظلم
ولا يستطيع أن ينجو من ذلك الظلام إلا أن يهتدى بنور
الإيمان والعمل الصالح وأن يتشجع بأردية الصبر على خشونتها
وأشوا كما ليصل إلى نور الحق . وصدق رسول الله صلى الله
عليه وسلم اذ وصف جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر
وجعل الكذب من الفجور وجعله باباً من أبواب النفاق

أسباب الكذب : ما هي الأسباب التي تدعو الانسان إلى الكذب ؟ الواقع أنها عديدة لا يحيط بها حصر . وأكتفي بأن أبين بعضها على سبيل الأجمال : فالكذب إما أن يكون سعياً وراء نتيجة أو يكون إشباعاً لشهوة الخيال . والنتيجة في النوع الأول إما أن تكون فائدة تعود على الكاذب سواء أنتج منها ضرر للغير أم لم ينتج وأما أن تكون قاصرة على إيذاء الغير دون فائدة تعود على الكاذب . وقد تكون الفائدة مستحقة أو غير مستحقة : أما غير المستحقة فالكذب للوصول إليها أمره واضح ، وأما المستحقة فقد يستعصى الحصول على الحق من الغاصب الخبيث الذي يحكم تلبس الحق بالباطل فيضطر صاحبه أن يدرأ الشر بالشر والكذب بالكذب . وأما النتيجة التي لا تحتوى الاضرار بالغير دون فائدة تعود على الكاذب فإنما يصدر ذلك عن نفوس شريرة خبيثة يصير الكذب من شهواتها الجارحة التي لا تستطيع أن تكبح جماحها .

الحكم على الكذب : ومدار الحكم على هذه الوجوه جميعها هو إيذاء الغير وجوداً وعدماً ، ومقدار ذلك الأذى إن وجد ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » . وإذن فالحكم على الكذب يدور مع نتيجته وفق شدتها ،

ولذلك لم يكن الكذب حراما لذاته بل لما فيه من الضرر فإن
أقل درجاته ادخال الجهل على الغير ، ولذلك ذهب الفقهاء إلى أن
بعض الكذب جائز وبعضه واجب . وقد وضع لذلك الامام
الغزالي قاعدة فقهية وهي أن الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل
مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا
فالكذب فيه حرام ؛ وأن أمكن التوصل إليه بالكذب
دون الصدق فالكذب فيه مباح أن كان تحصيل ذلك القصد مباحا
فإن كان المقصود واجبا كان واجبا ، مثال ذلك أن الكذب
واجب ان كان فيه عصمة دم امرئ مسلم اختفى من ظالم وكان
في الصدق سفك دم المسلم ظلما الا أنه ينبغي أن يحترز من
الكذب ما أمكن لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى
أن يتداعى الى ما يستغنى عنه ، والى ما لا يقتصر على حد الضرورة
فيكون حراما في الأصل الا لضروره .

الكذب والغريزة : والكذب يكاد يكون عادة تتمشى مع
الغرائز وتتغلغل في أعماق النفس ، وبذلك ينصرف الى جميع
وجوه الحياة ، ويتشكل طوعا للشهوات فيرضيها ويزينها ويلهبها ،
ويخفيها ويتستر عليها ، وقد يهضم عليها مسوحا مزورة للفضيلة ،
وعلاج النفس من جميع أنواع الكذب صغيرها وكبيرها أمر

عسير يحتاج الى جهاد طويل ورياضة شاقة .

خوامس النفاق : أما النفاق فهو وإن كان من أنواع الكذب ، إلا أنه يتضمن حتما إيذاء الغير ويهدف اليه . وأمره لا يقتصر على مجارة الغرائز واشباع الشهوات ، وإنما يقتضى فنونا من الصناعة وضروبا من التشكيل والتهينة والمظاهر ، ولا يصير عادة إلا بمرور الزمن عندما تتأصل له فى النفس عقدة يرتكز عليها ويصدر منها واليها .

والنفاق يلزم الانسان فى حياته ملازمة شيطانه ويتراآى له عونا وساعدا كلما تقلبت له الأحوال وأعوزه الحظ أو تراكت عليه المحن . وهو ينبوع الذى تفجرت من أعماقه جميع المآسى والآثام والشرور ، وله تاريخ واسع بدأ منذ بدأت البشرية ، وهو فى ذاته جبن وضعف ، ولكنه يتضمن جرأة شديدة على معارضة الحق ، وقوة غامرة فى استصناع الباطل ، ومقاومة عقيدة لما قد يعترضه من عقبات . ويقذف أول أساطيره على الأدبان فيزيغها ولعل أصدق مثال لذلك ما كان يزور به الكهنة عبادة الله ويقلبونها الى تماثيل وأصنام وطقوس مأزها الزيف والبهتان .

العالم بدون نفاق : ولنا أن نتصور العالم وقد عجز الناس عن النفاق والكذب أو اتفقوا أن يبنذوهما ! فأى تبديل يطرأ إذن على الناس ؟ أنراهم يختلفون أم يتقاضون ؟ أم يتضاربون أم يتحاربون ؟ وهل ترى شيئاً من المآسى القاسية التي تفشو الآن في حياة الأفراد والجماعات ؟ لا يشك أن أغلب هذه الشرور تنقطع جذورها بانقطاع النفاق وإذن لساد السلام واطمأن الناس وسعدوا بالمحبة والتضامن .

النفاق في الأمور الخطيرة : ويتسلط الكذب عامة والنفاق خاصة على جميع أشكال الحياة ، إلا أن النفاق ينصرف عادة إلى الأمور الهامة الخطيرة . وكلما اشتد خطر الأمر بعد عن مناط الكذب البسيط ووقع في منطقة النفاق ودخل في أوضاعه المعقدة . ولذلك كان أشد أوضاع النفاق ما تعلق بالجيش وأعمال الحرب وما تعلق بالحكم وأعمال السلطان .

النفاق في الحروب : وهنا يأتي لنا أن نقف طويلاً ونتمعن الأفكار ملياً فإذا صحائف التاريخ في جميع عصوره وإذا بالأحداث الحاضرة تجري كلها على قواعد عتيقة مشتقة من النفاق .

الجاوسية : القاعدة المعروفة في الحروب الحاضرة المبيدة أن أكثر من نصفها يقع في نطاق الجاوسية أو

ما أطلقوا عليه لفظ « الطابور الخامس » ، وأن الحروب الخفية بين أقلام المخابرات أشد وأنكى من حروب الجيوش البرية والبحرية والجوية ، وأن النجاح فيها أو الفشل أشد أثراً وأبعد نتيجة ، وما أعمال الجاسوسية وأقلام المخابرات إلا ضروب معقدة مرتكزة على النفاق في نطاقات واسعة ونظم مدروسة مرتبة .

النفاق في السياسة والحكم : وأما أعمال الحكم والساطان ومقتضيات الاجتماع بصفة عامة ، فجبال النفاق فيها واسع الأطراف ، والكذب والشروع فيه صولات وجولات . نرى ذلك واضحاً في ميدان السياسة والدبلوماسية بصفة خاصة ، وما يعقد لها من هيئات ومؤتمرات ، وما تلك الهيئات والمؤتمرات إلا معارض ومنتديات ، يستعرض فيها رجال السياسة والعلم والغاصبون والسفاكون ومن تبعهم منتهى ما وصل اليه العقل البشرى من أفانين النفاق والكذب وأساليب الخداع والدهاء والخبث ، مخلوطاً بالآلفاظ المعسولة الجميلة ومصبوغاً بالوان مستعارة من الحق والمنطق ومختبئاً تحت أستار جميلة من العلم والأدب والبلاغة والخطابة . ولذلك نراها ابتدعت للأوضاع الباطلة ألواناً زاهية فسمت الفتح والغزو واستعمارا ، فلما بهت اللون صبغت له كلمات الانتداب والوصاية واستعملت ألفاظ التعليم والتدوين

والتدريب للحكم الذاتي تغطية لمعانى النهب والسلب وانهاز
الفرص . وأنتجت هذه الأخلاط المتنافرة نتائجها الطبيعية وهو
انتشار الروح المدمرة وفنون الأباداة والتخريب . وتجرى الأمور
في مسائل الحكم والادارة على هذا النمط حيث تنشأ ألفاظ
جميلة براقة تضم طرفا من الحق وتخفى أطرافا من النفاق كالدهاء
والسكياسة والدربة ودقة الادارة .

النفاق يتداخل في الجرائم الخلقية : والنفاق عنصر أساسى
يتداخل في تركيب كثير من الجرائم الخلقية التى تنخر كالسوس
فى المجتمع كالغيبة والنميمة والوشاية وشهادة الزور — ثم هو
إلى جانب ذلك يغرس فى حنايا النفس أمراضاً عضالاً تقذف
بها إلى الهلاك كالغرور والزيف والصلف والكبرياء والحقده
والحسد والضغينة .

النفاق والكذب ألفاظ مكروهه : والكذب والنفاق ألفاظ
مكروهة مردولة لا يتعامل الناس بها وإن تعاملوا بمدلولها ،
ويعنون فى اصطناعها وفيض الفضائل تسيل من أفواههم ،
ولا يذكرونها الا ومعها أنماط من الزجر البالغ للتباعد عنها
والإشارة بهدى الصديق والنجاة به ، نجد الكثير من ذلك فى
جميع أسفار الحكمة والسياسة والأخلاق . هذا يبد أن قاعدة

واحدة اضطرد العمل بها وهي نبذ الفضائل واصطناع النفاق
لبلوغ المآرب .

ما كيا في النفاق : ولا نجد أحدا وصلت به الجرأة على
الصراحة في هذا الشأن وتذيه الناس إلى نبذ الفضائل عند
الاقتضاء إلا رجلا إيطاليا مفلوكا من كتاب القرن السادس عشر
الميلادي . لا يزال رجال السياسة إلى عصرنا الحاضر يتبعون
تعاليمه ، ويهتدون بهديه ، إذ يحض على عدم الاهتمام بالصدق
والفضائل ، وذلك الكاتب هو نيقولا ما كيا في الذي ولد عام
١٤٦٩ وتوفي عام ١٥٢٧ ميلادية .

ونظرا لخطوره تعاليم ما كيا في التي أو دعها كتابه الأمير ،
وإلى اعتبارها المثل الأعلى لدى جميع رجال السياسة والحكم
منذ وضعت إلى عصرنا الحاضر ، ثم إلى ما تضمنه هذا الكتاب
من أساليب النفاق والخداع ، فإنني أرا في مضطرا أن أعرض
طرفا وجيزا أو على الأصح صحيفة واحدة مما نصت عليه تلك
التعاليم ، لعل فيها موزعا للبحث والمقارنة لما نحن بصدد مع
شيء غير قليل الطرافة .

من تعاليم ما كيا في : يقول ما كيا في في كتابه الأمير تحت
عنوان : كيف يكون وفاء الأمراء ، مانصه : لا ينبغي للأمير

الحذر أن يحفظ اليهود اذا كانت ضد مصلحته ، وما دامت
الاسباب التي دعت للوعد قد انقضت عندها . (المقصود بالأمير
حاكم المقاطعة وقد كان العهد عهد الاقطاعيات) اذا كان الناس
كلهم أختيارا فإن القاعدة التي ذكرتها تكون لا شك سيئة ،
ولسكنهم أشرار ولن يحفظوا لك عهدا فلست مضطرا لحفظ
عهودهم . ثم أن الأمير لا يفقد حيلة شرعية يركن إليها اذا لم
يف بوعده ، وأن الأمثال في هذا الباب كثيرة تثبت أن السلم
قد تززع مرارا وأن الوعود قد نسيت تكررأ بأمرأ لا وفاء
لهم ، وأن الذين استطاعوا من الأمراء تقليد الثعلب قد فازوا
وانتصروا ، ولكن من الضروري أن يخفى الرجل هذه الخليقة
وأن يكون ماهرا في فن التظاهر بغير شعوره ، ثم أن الناس من
البساطة بمكان وهم أصحاب حاجات وصاحبها أرعن مطيع فلا
يعدم الخادع فريسته . ثم يقول ما كيف لي بعد ذلك بقايل مانصه :
« ليس من الضروري أن يتصف الأمير حقيقة بكل الفضائل
التي سبق الكلام عليها ولكن من الضروري أن يذاع عنه
الاتصاف بها ، واني أجسر فأقول أن الاتصاف بكل تلك
الفضائل خطر ولكن الظهور بالتخلي بها نافع . إنه من الخير لك
أن تظهر بالتقوى والأمانة وحب الانسانية والدين والاخلاص

وأن تكون في الواقع كذلك ولكن ينبغي أن تكون متنبها
بحيث اذا اضطرت للتحويل الى الصفات الأخرى كان ذلك بدون
مشقة . وينبغي العلم بأن الأمير لا سيما الحديث لا يمكنه ممارسة
كل تلك الحلال الموصوفة بالحسن لدى الرجال لأنه يكون في
أغلب الأحيان مضطرا للاحتفاظ بالملك فيعمل ضد الإيمان
والاحسان والانسانية والدين ، لذا ينبغي أن يكون له عقل
سهل التحويل والانتقال حسبما يقتضيه تقلب الأحوال ولا يترك
صنع الخير ما استطاع ، وأن يكون قادرا على صنع الشر اذا
احتاج لذلك . وينبغي للأمير ألا يحرك لسانه بكلمة لا تدل على
أنه متحل بالحلال الخمس السالفة الذكر ، فلا يرى فيه الرأي ،
ولا يسمع منه السامع إلا الأمانة والعفة والتقوى وحب
الانسانية ، وأهم تلك الصفات صفة التقوى ، لأن الرجال
يحكمون عادة بالنظر لا بالخبرة ، وكل الناس ترى فيك مظاهرك ،
وقليلون يلمسون حقيقتك ، وهؤلاء القليلون لا يستطيعون أن
يقاوموا الكثيرين المحتمين بسلطة الأمير ، فليعش الأمير
وليحافظ على عرشه دون النظر في الوسائل ، فأنها ستبقى على
الدوام معتبرة شريفه يمدحها الكل ، لأن العامة مأخوذون
بالظواهر وبناتج الأشياء . والعالم لا يشمل إلا العامة ،

والقليلون من الخاصة لا يظهرون إلا عندما يضل الكثيرون .
قيمة تعاليم ما كافي : أرأيت أيها القارىء مقدار الدين
والأخلاق في نظر ما كافي ؟ ومع ذلك فقد اعتبر كتابه
« الأمير » أعظم كتاب في فلسفة السياسة ، واعتبر ما كافي أنه
رفع الستار عن اسرار صناعة الحكم الدقيقة ، وأنه وضع علماً
جديداً بخدائره هو علم السياسة العملية حل فيه ألغاز السياسة ،
وصير صناعة الحكم الصعبة المراس عملية من عمليات الجبر
البسيط ، وغذى بأرائه وحكمه نفوس جميع أبطال التاريخ
الحديث (راجع كتاب الأمير وترجمته للأستاذ محمد لطفي جمعة
المحامي طبعة مطبعة المعارف سنة ١٩١٢) واشتق من اسمه
مذهباً في السياسة سمي ما كافلزم يتضمن مبادئه التي تركز على كل
عمل قائم على الخبث والدهاء المقرونين بالآثرة وتقديم الغاية على
حسن الوساطة . وقد أجمع المؤرخون أو كادوا على أن اسم
ما كافي ليست أصبح علماً على كل سياسي شديد قوى العقل والقلب
لا يقف به الشرف أو العفة أو هيبة الله دون اقتراف أفظع
الآثام لبلوغ الغاية (من كتاب الأمير السابق الإشارة إليه) .
والآن لعلك أيها القارىء اتخذت من البيان السابق مجهراً
فوضعت تحته كثيراً من الأحداث والأشخاص التي تقوم على

رؤوس السياسة والسلطان ، ثم وضعت تحته بعد ذلك كثيرا مما يصيب شخصك من الأحداث وما يصل إليك من اصدقائك واقربائك ومعارفك من خير أو شر ، فإن هذا المجهر قيم أن تنفذ أشعته في تلك الجسوم فيكشف لك عن مكنوناتها ويضيء لك بين الظلمات صراطا حريزا عن الغش والخداع .

ولقد حفر ما كيا في القلوب المريضة أن تستغرق في أسباب مرضها ، وأن تسدر في غلوائها وأهوائها ، وجعلها ضحية لشهوة الحكم والسلطان . وبعد أن كان الحكم ورجال السياسة يمشون في النفاق والكذب مشية الحذر المترب الوجل ويعتبرون أنفسهم خارجين عن حدود الدين والقانون إذا بهم يجدون من ما كيا في مرشدا يعلمهم أن البعد عن النفاق باسم الدين أو الحكم أو الخلق الحسن وهم وحق لا كياسة فيه مادام أمر الملك يقتضي ذلك . وكان تعاليمه كانت رقية من رقي ابليس مست أحد أغلاق جهنم فانفتح بمسها ألوف من أبواب الرجس يفور تنننها ويصاعد لهيبها على ضحايا البشر .

وفرق واسع أن يرتكب الشر باسم الشر طوعا لشهوة جامحة تأخذ بنفاق صاحبها ، وبين أن يرتكبه وهو يتشدد أنه يفعل حقا لا إثم فيه ، ويدخل الغش على نفسه فيخدعها ويوهمها

أن ما يفعله كياسة تتفق مع اتساع علمه وحدة ذكائه .

النفاق سابق لما كيافل : لم يكن العالم خاليا من النفاق قبل ما كيافل فالنفاق وليد الغرائز في أوضاعها الضالة ؛ ولم يخل منه شيء حتى الدين والنشريع والحكمة . ولكن ما كتبه ما كيافل قد فتح الأبواب وحرّض على الجرأة على الدين والأخلاق ، وضحي بكل شيء في سبيل الحكم وبث تلك الأفكار السامة في عقول عدد لا يحصى ، ولا زالت تلك الأفكار تتشكل وتتكاثر كما تتكاثر الجراثيم الفتاكة .

والآن أرجع بك أيها القارئ تسعة قرون قبل ما كيافل لا عرض عليك ضروبا أخرى من علاج النفاق تنزهت أن تنزل إلى سوقه ثم أفصل لك مثلا شرفت وارتفعت أن يدنسها النفاق ولسكنها أحاطت به بفضائلها فحبسته في نطاقه الضئيل كالكلب العقور : يحبس فيقتله نباحه أو تهذب ضاريتيه . وتلك المثل إنما كانت في الطريقة التي عالج بها رسول الاسلام محمد عليه السلام أهل النفاق مع شدة ضرواتهم ودهائهم إلى ما كان من خيبتهم وضياع أمرهم .

النفاق صدر الاسلام : لقد كانت قصة النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصة طويلة طريفة كأنها حلقات صراع

بين الاسلام والنفاق . بدأت منذ دخل الرسول الكريم المدينة وتداخلت حوادثها في أغلب حوادث الدعوة الاسلامية ، وحارب المنافقون النبي صلى الله عليه وسلم حروبا خفية مليئة بالدهائن والتجسس والتآمر ، وحاولوا أن يؤلبوا عليه وعلى المسلمين أشد الكافرين وضعاف القلوب ، وكانت لهم في ذلك مكائد خطيرة عصم الله نبيه الكريم والمسلمين منها ولم يحيدوا قط عن نهج الخلق المستقيم ، ولم ينزلوا إلى درك مقاومة النفاق بالنفاق ، ولم يفكروا في طرح تعاليم الدين والأخلاق للرد على تلك المكائد .

دره النفاق والمدينة النافذة : وما كان للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين أن يدرأوا النفاق بالنفاق . فان الاسلام أتى بتعاليم خاصة ومبادئ معينة تتنافى مع النفاق وتحقق المدينة الفاضلة أو النموذج الأعلى للدولة ونظام الحكم ومقتضيات الاجتماع . وهو حلم طالما تراى في أذهان الفلاسفة والحكماء منذ العصور السحيقة في القدم . ولسنا بصدد تفصيل ماورد عن سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم عن ذلك ، ولكن كتاباتهم وفلسفتهم كانت محاولات نحو السعى وراء الكمال بعد أكثرها عن الأماكن العملية ، وأغرق بعضها في التصورات الخيالية البعيدة عن طبائع البشر ، وحاول البعض الآخر أن يقربوا منها ، وفشل

الجميع في تحقيق تلك المدينة سواء في كل ما تخيلوه أو في بعضه .
كذلك فشل أصحاب نظرية الانسان الكامل Superman في
تسكييف المثل الأعلى للفرد وفي تحقيقه ، وظل الحام في كايهما
يترا آى كالسراب أمام الفلاسفة ، حتى بعث الله محمداً صلى الله
عليه وسلم فحقق المدينة الفاضلة أو الدولة الرشيدة النموذجية في
المدينة (يثرب) وما دخل تحت لوائها ، كما تحقق الانسان الكامل
في شخصه الكريم عليه الصلاة والسلام ، وكانت لمحة خاطفة
أضأت في ثنايا الزمن لتسكون نموذجاً يقتدى به الأفراد
والجماعات إذا تراضوا وتواصوا على ارتياد مسالك السعادة .

وللمدينة الفاضلة أو الدولة الرشيدة أركان ثلاثة : الرئيس
الكامل والنظام الكامل والشعب الكامل . أما الرئيس الكامل
فقد تحقق في شخص النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان كامل الخلق
والخلق حريصاً على صالح الجماعة والأفراد قائداً حازماً وسياسياً
أريباً إلى غير ذلك مما ورد في وصف ذاته الكريمة مما يستحيل
أن يجتمع في فرد واحد ويكفى أن الله تعالى قال مخاطباً له في
القرآن الكريم « وإنك لعلی خلق عظیم » . وأما النظام الكامل فهو
النظام الذي أتى به القرآن الكريم في قواعد كلية جامعة صالحة
لجميع الأفراد والجماعات في جميع العصور والأمكنة . فكان من

إدارة النبي صلى الله عليه وسلم المؤيد بالمعجزات وصاحب الشخصية الكاملة وعلى نظم القرآن أن وجد الشعب الكامل جمع أشتات العرب : ومن عجب أن تكون بعثة النبي صلى الله عليه وسلم في شعب يدرج في أسوء نظم الاجتماع والحكم وتسوده الفوضى الخلقية ، وتمزقه النعرة القبلية وحمية الجاهلية فتقوم فيه الحروب لا تفقه الأسباب ، وتظل نيرانها مستعرة سنيناً طوالاً من أجل التناوب بالالفاظ والتفاخر الكاذب بالأنساب وما أشبه ذلك من توافه الأسباب . ومع ذلك يجمع النبي صلى الله عليه وسلم شمله ، ويحكم أوامره ، تحت أبداع دستور وأهم نظام ، ألا وهو نظام القرآن الذي فصل أحوال الفرد وأحوال الجماعة وعلاقة كل منهما بالآخر في دقة لا يمكن الإحاطة بتفصيلها .

وكان قد أعجب العجب علاج النفاق ، وهو داء العالم العضال وذلك الصراع الذي دام ما يقرب من عشر سنوات فكان في كل حلقة من حلقاته آيات من الهدى والإرشاد الحكيم .

ولقد أردنا أن نرفع من أستار الماضي ثمانية وستين سنة وثلاثمائة وألف لتتفقد ما كان شأن ذلكم الأبرار وهم يهتدون بكلام الله العلي الأعلى ، ويأترون بأمر سيد الخاق ويقتدون به

لنعلم ما كان من شأنهم مع طغاة النفاق وجبابرة الكذب وزعماء
النجس ، لعل في ذلك عبرة وذكرى ، ولعل فيه حقالا للنفس
من بعض أوهامها وجمحاتها ، ولعل فيه تخفيفاً وعزاء بما نقاسيه
من آلام تطاحن النفاق وتطاحن الرذائل

تاريخ العرب والدينه : وقبل أن ندخل في ذكر تاريخ المنافيين
ونشأتهم والأحداث التي أحدثوها ، نرى لزوما علينا أن نذكر
في هذه المقدمة إلمامة وجيزة عن تاريخ العرب ونظمهم في الحكم
والاجتماع بصفة عامة ، ثم بتاريخ المدينة المنورة ، أو يثرب ، كما
كانت تسمى قبل الاسلام بصفة خاصة ، وذلك لاتصال تاريخ
المنافيين ونشأتهم وحوادثهم بذلك اتصالا متشابكا ، ولأن من
الأسباب الكبرى التي أوجدت هذا الحزب وأحكمت أواصره
ضعيفة عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي على النبي صلى الله
عليه وسلم إذ كان على وشك أن يتوج ملكا على يثرب .

لم يكن العرب دولة واحدة والسبب في ذلك : لم يكن العرب
حولة واحدة قط قبل الاسلام ، ولم تتكون فيها دولة ذات شأن
إلا في الجزء الجنوبي الشرقي منها وهي بلاد اليمن . وإنما نشأت
دويلات صغيرة لم تبلغ شأواً كبيراً في الحضارة وهي دول
الماذرة والغساسنة وكندة ، وكانت على الدوام تابعة لغيرها

من الدول العظيمة كفارس والروم كما كانت نشأتها في جهات
جميعة لظروف خاصة .

والسبب الذي لم تنشأ من أجله ببلاد العرب دولة ذات حضارة
واسعة يرجع إلى طبيعة البلاد ، فانها صحراء شاسعة الأطراف
يبلغ طولها نحو ٦٥٠ ميلا وعرضها نحو ٦٢٠ ميلا وهي خالية
تماما الخلو من الأنهار ، بحرية لا ينزل المطر فيها إلا نادرا
وذلك فيما عدا اليمن .

دولة اليمن : والعمران يكثر أو يقل طبقا لمقتضيات الحياة ،
ولهذا اتسعت دائرته بعض الاتساع في بلاد اليمن التي أطلق
عليها لذلك مؤرخو اليونان اسم العرب السعيدة بينما لقبوا
غيرها بالعرب الصخرية والعرب الصحراوية . وقد استطاع أهل
اليمن في الأزمان السحيقة في القدم أن ينظموا الارتفاع بمياه
الأمطار ، وأقاموا لها سدودا اشتهر منها في التاريخ سد مأرب ،
وتمكنوا بذلك أن يزرعوا الارض ، وقامت لديهم مدنية
واسعة ودولة قوية ، حكمها ملوك لا يزال التاريخ يقص من
أعمالهم الكثير . وأهم الدول التي نشأت باليمن ثلاث : الدولة
المعينية فالدولة السبئية فدولة حمير والنبابعة . ومن ملوك هذه
الدول قحطان وبعبع ويشجب وحمير وذو الازعار وذو نواس

والمملكة باقيلس . وقد أنشئوا المدن الكبيرة والقلاع العظيمة
والقصور الفخمة وكان ملكهم وراثيا وسلطات الحكم لديهم
مركزة في يد الملك ، وسكوا النقود ونقشوا عليها صور الملوك
وأسماءهم وأسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المستند ، وزينوها
برموز سياسية واجتماعية . وكانت الامة منقسمة في عصورهم
إلى أربع طبقات (١) الجند المسلح (٢) الصناع (٣) الفلاحين
(٤) التجار . وقد ازدهرت لديهم التجارة والصناعة والزراعة
وبلغت في ذلك شأوا بعيدا ، وامتدت مزارعهم وحدائقهم
واستعمروا كثيرا من البقاع القابلة للاستعمال بين اليمن والشام .
فلما اتسعت رقعة دولتهم أصابهم ما يصيب الدول فانغمسوا في
الملاهي وعكفوا على الملذات وكثر ظلمهم وأعرضوا عن عبادة
الله وتقواه فسلط الله عليهم سيل العرم فخرّب عمارتهم وبساتينهم
وأهلك منهم خلقا كثيرا وتفرقوا بددا في صحراء جزيرة العرب
وقد ذكر الله تعالى شأنهم في قوله عز وجل : لقد كانا بيأفى
منكم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم
واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا
عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط
وأثل وشيء من سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل

تجأزي إلا الكمور) (سورسبأ الآيات ١٥ و ١٦ و ١٧) .
دول المناذرة والغساسنة وكندة وبيعيتها لغيرها : كان من القبائل
 التي فرقها مسيل العرم من هاجر إلى تخوم الفرات فيما
 يحاور الحيرة والانباء وكونوا دولة المناذرة ، كما هاجر آخرون
 إلى تخوم دمشق وكونوا دولة الغساسنة ، ولجأ بعضهم إلى شمال
 حضرموت والجزء الجنوبي الغربي من نجد داخل الجزيرة
 وكونوا دولة كندة . أما المناذرة فهم من قبيلة الحنم وأولهم
 مالك بن فهم ومنهم النعمان بن امرئ القيس والمنذر بن النعمان
 وعمرو بن هند . وأما الغساسنة فهم من الأزد ومن ملوكهم
 الحارث بن أبي شمر والمنذر بن الحارث . وأما كندة فهم بطن من
 كهلان بن سبأ وأصلهم من البحرين أجلا منها إلى حضرموت ،
 واستخدمهم التبايع في مصالحهم وكانوا ينافسون المناذرة في التقرب
 من ملوك الفرس . ومن ملوكهم حجر بن عمرو ثم الحارث
 ابن عمرو .
 لم تكن هذه الدول الثلاث سوى دويلات صغيرة خرجت
 منذ مدة طويلة من نظام القبائل وألفت النظم السياسية ومرت
 على أوضاع الحكم فأنشأت في البلاد التي هاجرت إليها في حدود
 صغيرة - وقد رأيت كل من دولة المناذرة والغساسنة أن

بجوارها دولة كبرى وذلك إذ جاورت الأولى فارس وجاورت
 الثانية الروم وكانتا كبرى دول العالم في ذلك الوقت ، فأصبحت
 المتأخرة تابعة لفارس كما تبعت الغساسنة الروم ، وصارت كل
 منهما تسير تبعاً لسياسة الدولة التي تتبعها حتى في الحروب . ورأى
 كل من دولة فارس والروم أن في ذلك مصلحة لها لأن تلك
 الدويلات الصغيرة كانت لها بمثابة صمام الأمن في بلاد العرب ،
 فقد كانت هذه البلاد موحشة فقراء شاسعة الأطراف لا تغري
 الفاتح المستعمر من الملوك ذوي الأطماع أن يحاول فتحها
 أو استعمارها ولا يحازف أن يلقى بجيوشه لتهلك في أتون فيها
 الشاسعة فتبتلعها ، ثم أنه لا غنى للقوافل عن ارتيادها للتجارة
 وغير التجارة . فكانت هذه الدويلات الصغيرة تكفي ملوك
 الدول الكبرى مؤونة الصلة بالقبائل الضاربة في جوف هذه
 الصحراء ، وبقيت أيدي الفرس والروم تلعب مع أصحاب التيجان
 في هذه الدول فتثبت تعيينهم وتصلهم وتسخرهم ويمشون على
 هديها وسياستها ، ولم يشذ عن ذلك إلا المنذر الثالث بن امرئ
 القيس بن ماء السماء ٥١٤ - ٥٦٣ ميلادية في عهد قباذ ملك
 الفرس . وسبب ذلك أنه ظهر في بلاد الفرس في ذلك الوقت
 مذهب مزدك وكان يرمي إلى الاشتراك في الأموال والنساء .

وكان بعض أعيان الفرس قد أحرزوا أموالا كثيرة ومجوهرات
وعقارات كبيرة القيمة ، فأراد قباذ أن يستعين بهذا المذهب على
مشاركتهم ، فثار الاشراف في وجهه قباذ وأنكر المنذر هذه
البدعة وانضم إلى الثائرين على كسرى ، فتغير قباذ على المنذر
ووجد في الحارث الكندي ملك كنده خصما منافسا من العرب
للمنذر ، وكان قد امتد سلطانه إلى نجد وودا الحظوة لدى ملك
الفرس ، فاستنجد به قباذ على المنذر وغزا الحيرة وتغلب على
جيوش المنذر ، فهرب وظل محتبئا إلى أن توفي قباذ ، وتولى أمر
الفرس ابنه كسرى أنو شروان ، وكان على غير رأى والده ،
فخرج المنذر من مخبئه وأقبل عليه فرحب به وأعادته إلى منصبه
بعد قتل مزدك وهرب الحارث الكندي وكان ذلك نهاية الدولة
الكندية حيث انقسمت عقب ذلك إلى أمارات صغيرة لكل
أمير سيادة على بعض القبائل وظلت كذلك حتى قضى عليها
الاسلام .

ومن أشد الدلائل على تبعية الدولتين العربيتين لفارس
والروم أن كثيرا ما وقعت الحرب بين المناذرة والغساسنة مع أن
كليهما عربيتان ، وذلك عند وقوع الحرب بين فارس والروم ،
ومع أن كلا من فارس والروم لم تحاول مطلقا أن تغلغل في

صميم البلاد زهداً فيها لعدم الفائدة من غزوها . والمرة الوحيدة
التي حاول الفرس فيها ذلك منوا بشر هزيمة بفضل تضامن العرب
وذلك في موقعة ذي قار سنة ٣ للبعثة النبوية .

النظام القبلي في بلاد العرب : هذه هي الدول التي نشأت
ببلاد العرب . وفيما عدا البقاع التي نشأت فيها هذه الدول ، فإن
النظام القبلي وهو النظام الطبيعي للبدو المتنقل هو الذي كان
يسود سائر البلاد وخاصة أشدها جدباً وهو الحجاز لأنه عبارة
عن سلسلة الجبال التي تمتد من الشمال عند بوادي الشام حتى
تنتهي إلى الجنوب عند حواضر اليمن على مسافة تتراوح بين
ثلاثين وخمسين ميلاً شرق البحر الأحمر فيطابق على قسمه الغربي
من البحر إلى سلسلة الجبال اسم تهامة ويطلق على قسمه الشرقي أي
شرق سلسلة الجبال اسم نجد .

نشأت القبائل التي آوت إلى هذه البقاع على شطاف من
العيش . وكانت متصلة على الدوام بسائر الدول العربية بحكم
أنسابها وعاداتها وتنقلاتها إلا إذا استثنيانا من تحضر بمكة . ومن
هذه القبائل جرهم وأولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام
حيث تزوج من جرهم وأنجب اثني عشر رجلاً تكاثروا نسليهم
وتفرقوا في تهامة وصار إليها الشرف حتى نزحت إليها من

الذين قبيلة خزاعة فاستولت على شرف جرهم وانتقلت اليها
وعامة القبيلة .

النظام القبلي لا يعرف الملكية : لم تعرف هذه القبائل نظام
الملكية ، ولم يكن بينها نظام مسطور ولا دواوين ، وإنما
كانت تعيش على النظام القبلي ولا تعرف رئاسة الرئاسة
القبيلة . وكانت رئاسة القبيلة في قریش مقسمة الأجزاء ، كل
جزء منها يتمثل في وظيفة معينة ، وقل أن تجتمع في شخص
واحد وهي خمس وظائف : (١) رئاسة دار الندوة وهي دار
أنشأها قصي كبير قریش ليجتمع فيها شيوخ القبيلة للنشاور في
المسائل الهامة . (٢) اللواء وهو رمز لقيادة الجيش (٣) الحجابة
وهي خدمة الكعبة الشريفة وفتح بابها (٤) السقاية وهي سعي
الحجيج (٥) الرفادة وهي إطعام من لازاد معه من الحجاج .

سكان المدينة قبل الاسلام : أما المدينة المنورة فانما أطلق
عليها هذا الاسم بعد أن هاجر اليها النبي صلى الله عليه وسلم ،
وكانت تسمى قبل ذلك يثرب . ولم ينشأ فيها قبل الإسلام أي
دولة ولا نظام من نظم الحكم وعاشت في جميع أطوارها قبل
الإسلام في نظام قبلي : حكومتها حكومة القبيلة . والذي يتبين
من التاريخ أنها كانت في العصور القديمة موطناً لثلاث قبائل من
اليهود : بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع ، هاجروا من بلادهم

من الشمال ثم صاروا يزرعون ما صلح من أرضها كما استوطنوا
من حولها خيبر وفدك ووادي القرى إلى أن نزل حارثه بن ثعلبة
العنقاء من أوائل ملوك الغساسنة على يهود يثرب وخيبر . وسبب
ذلك أنه لما هرع غسان إلى الشام عقب سيل العرم كون بها
دولة الغساسنة وكان أوائل ملوكها وخلفه ابنه ثعلبة العنقاء ولما
مات ثعلبة تولى بعد ابن أخيه عمرو فكان ذلك سببا لسنخطة ابنه
حارثه فرحل من الشام إلى الجنوب ونزل على يهود يثرب وخيبر
وسألهم الحلف والجوار والأمان والمنعة فأعطوه من ذلك
ما سأل واستعمر ولداه أوس وخزرج الأرض وتناسلوا
وكثروا ، ولم يكونوا أول أمرهم أهل نعم ولا شاء لأن البلاد
لم تكن بلاد مرعى ولم يكن لهم نخل ولا زرع ، فاشتغلوا لدى
اليهود يزرعون الأرض ويحيون مواشيهم والأموال لليهود إلى
أن كثروا فغلبوا اليهود على الأرض وقتلواهم وصارت الغلبة
لعرب الأوس والخزرج .

قبائل المدينة : لهذا كانت المدينة قبل الإسلام مكونة من
خمسة قبائل : اثنتان من العرب هما الأوس والخزرج وثلاثة من
اليهود هم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع . وكانوا يعيشون
على النظم القبلية ، ولكل قبيلة زعيمها ورؤساؤها يتدافعون مع

القبائل الأخرى على أساس التفاخر والتناحر والتناقل دون أن تكون هناك دولة أو رئيس موحد.
الخلاف بين الأوس والخزرج : ودب الخلاف بين الأوس والخزرج بعد أن توطدت أقدامهم بالمدينة ، وقامت بينهم حروب عديدة بسبب خلافات فردية كانت تشوب لها النمرة القبلية . وكان النصر تارة للأوس على الخزرج وغالباً للخزرج على الأوس . وقد اشتدت هذه الحروب ودخلت في أواخرها قبائل اليهود فأنحازت قريظة والنضير للأوس وانضم بنو قينقاع إلى الخزرج . وبلغت هذه الحروب أشدها قبيل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

حروب الأوس والخزرج وظهور زعامة عبد الله بن أبي بن سلول :

ونظراً لأن تلك الحروب تعطينا صورة مفصلة لحالة المدينة قبيل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها فإنا نورد بعضها منها ، وخاصة فيما يتعلق بأحد رؤساء الخزرج حيث ظهر كثيراً في هذه الحروب باعتباره سيداً مطاعاً وزعيماً عادلاً حليماً ، ثم ما لبث إذ دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أن صار ثعباناً خطراً وتزعج النفاق حتى لقب فيما بعد رأس المنافقين وكثرت مكائده للمسلمين وهو عبد الله بن أبي بن سلول .

وعبد الله بن أبي بن سلول من بني عوف بن الخزرج. وكان أول ظهوره في حروب الأوس والخزرج يوم السراة وهو يوم كان فيه حرب شديدة بين عمرو بن عوف من الأوس وبني الحرث من الخزرج وكان سببها أن رجلا من بني عمرو قتل رجلا من بني الحرث فعدا بنو عمرو على القاتل فقتلوه غيلة ، فاستكشفوا أهله فعملوا كيف قتل ، فتهيئوا للقتال وأسلموا إلى بني عمرو بن عوف يؤذنونهم بالحرب فالتقوا بمكان يقال له السراة وعلى الأوس حضير بن سمالك والد أسيد بن حضير الذي صار فيما بعد من أجلاء الصحابة ، وعلى الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول أبو الحباب فاقتلوا اقتتالا شديدا دام أربعة أيام ثم انصرفت الأوس إلى دورها وتبادل شعراء الأوس والخزرج الفخر فيما حدث .

وصار عبد الله بن أبي يشترك في الحروب التي تلت ذلك وهي كثيرة ، وكانت تفتش لأسباب تافهة فيتسبب عنها القتل ، ثم تولى قيادة الخزرج في حرب الفجار الأول وهي حرب قامت بين القبيلتين لقتل الأوس ثلاثة غلمان من الخزرج كانوا رهنا للديات في صلح سابق بينهم . وإسكن عبد الله بن أبي خرج على الخزرج ، وأبى الخروج معهم في حرب الفجار الثاني الذي أعلنته الأوس ضد الخزرج وذلك لأن الخزرج في ذلك الوقت

نقضت عهدهما بدون سبب وكان ذلك العهد بينهما وبين يهود قريظة والنضير الأيماصروا الأوس وأودعوا الخزرج أربعين غلاما رهنا لعدم التعاون مع الأوس ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول هذا بغى وإثم ، ونهى عن قتلهم كما نهى من دعا إلى ذلك وهو عمرو بن النعمان البياضى عن قتال الأوس ، وحذره بنو عاقبة البغى . ولم يقتل عبد الله بن أبي ومن أطاعه من كان لديهم من الغلمان وأطلقهم .

يوم بعث : وكان من أثر ذلك أن عادت يهود قريظة والنضير إلى مناصرة الأوس ، واجتمعت الخزرج وحشدت وأرسلت إلى حلفائها من أشجع وجهينة كما أرسلت الأوس إلى حلفائها من مزينة . ومكثوا أربعين يوما يتجهزون حتى التقوا ببعاث من أعمال قريظة وتخلف عبد الله بن أبي بن سلول وأقتلوا اقتتالا شديداً وقتل قائد الخزرج عمرو بن النعمان البياضى وانهزمت الخزرج ، فبينما عبد الله بن أبي يتردد راكبا قريبا من بعث يتجسس الأخبار اذ طلع عليه بعمر بن النعمان قتيلا فلما رآه قال ذق وبال البغى .

الميل إلى الوثاق ونبت الحرب والزم على تنويج عبد الله بن أبي . كما طلى المدينة :

كان يوم بعث آخر حروب كثيرة بلغت زهاء العشرة

فأنهكت الأوس والخزرج وعطلت مصالحهم وأفتت
كثيرا منهم فستموا القتال وبدأت نفوسهم تنصرف من الحمية
الجاهلية إلى روح الوثام ومالوا إلى الاستقرار والسكينة ومعهم
اليهود . والظاهر أن هذه الروح قد نمشت بهم إلى الميل والنظام
وتقليد دول العرب التي نشأت في الحيرة والشام وكعدة تحت
النظام الملكي لتصرف كل من القبائل إلى مصالحها متضامنه
تحت لواء الملكية بعيدة عن المنافرات القبلية . وقد روى
المؤرخون أن الأوس والخزرج اتفقوا بعد أن ستموا القتال
أن يتوجوا ملكا عليهم عبد الله بن أبي بن سلول لما رأوا
فيه من الحلم والكياسة ، وصاروا يجهزون لهذا التتويج إلى أن
دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وعقد معاهدة
بينه وبين الأوس والخزرج واليهود ، وانصرف الناس عن
النصرة القبلية شيئا فشيئا كما انصرفوا عن تتويج عبد الله
ابن أبي .

وهذا يعطينا صورة محددة بعض التحديد للحالة السياسية
والاجتماعية التي كانت تسود المدينة وقت أن دخلها النبي صلى
الله عليه وسلم مهاجرا من مكة ، والتي كان لها شأن كبير

الباب الأول

فيما قبلت عليه ، قتلها في مكة سنة رثاءه ايامه
 وحملها فيه سنة رثاءه في مكة ايامه
 في مكة رثاءه في مكة ايامه
 في مكة رثاءه في مكة ايامه
 في مكة رثاءه في مكة ايامه
 في مكة رثاءه في مكة ايامه

بدء النفاق

تضاؤل النعرة القبلية بالمدينة : بدأ الاسلام يدخل المدينة
 والنعرة القبيلية بين الأوس والخزرج في أوج شدتها أيام بعث ،
 ثم بدأ يفسد وقد انفثأت حدتها وتقارب الخلاف بين القبيلتين
 حتى كاد أن ينعدم ، وبدأ التفاهم والقراية والصوالح المشتركة
 تلعب دورها لتؤلف بين قلوبهم حتى أزمعوا أن يفتشوا بينهم
 دولة عربية يثرب على غرار دول العرب ، وأجمعوا أن يولوا
 عليهم عبد الله بن أبي ، وذكر المؤرخون وكتاب السيرة أنهم
 كانوا يهيئون له تاجا لتتويجه ملكا عليهم . ووقف اليهود من
 ذلك موقفهم القديم منذ غلبوا على أمرهم بالمدينة : يصانعون
 الأوس والخزرج ما اتحدوا وما اختلفوا .

جاءه الأوس والخزرج تحت اسم الانصار : ودخل النبي صلى
 الله عليه وسلم المدينة بعد خمس سنين من حرب بعث ، وقد

فشأ الإسلام فشوا كبيراً ، وأسلم أغلب الأوس والخزرج
وبدأت التسمية القبلية تتلاشى وتحل بدلها تسمية جامعة لها
باسم الأنصار وهي تسمية مشتقة من صميم الإسلام لأنهم
نصروا النبي صلى الله عليه وسلم .

الظواهر الجديدة بالمدينة — وتضامن الأنصار وشهد اليهود
والذين تخلفوا عن الإسلام من الأوس والخزرج كيف
تظاهرت الجماهير في استقبال النبي صلى الله عليه وسلم وكيف
عجت طرقات المدينة بهذا الاستقبال ، بما لم يسبق له مثيل في
تاريخها ، ولم يكن لهم عهد بمثل هذا التضامن البعيد عن النعرة
القبلية — ورد في السيرة الحلبية أنه لما ركب رسول الله صلى
الله عليه وسلم وخرج من قباء سار وسار معه الناس ما بين
ماش وراكب ولا زال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة شهماً
برسول الله وحرصاً على كرامته وتعظيماً له حتى دخل المدينة ؛
ولعبت الحبشة بحراها ، فلما دخل المدينة أضاء منها كل شيء
وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير (أى الأسطحة) عند
قدومه ، وجعل النساء والصبيان والولائد يقان :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وجعل رؤساء الأوس والخزرج يدعونه للقيام لديهم
ويستضيفونه وآمن أغلبهم وعلى رأسهم سعد بن معاذ وأسيد
بن حضير من الأوس ، وسعد بن عباد من الخزرج رضوان
الله عليهم أجمعين .

المعاهدة وبدأ الرسول الكريم حياته بالمدينة بأن ركز
وضعها السياسي في معاهدة جامعة بينه وبين المهاجرين من مكة
وبين بطون الأوس والخزرج وقبائل اليهود الثلاث من آمن
منهم به ومن لم يؤمن . وكانت المعاهدة تشمل عدم الاعتداء
من أحد على الآخر وضمانا للأمن بين الجميع ولهذا اضطر
اليهود والذين تخلفوا عن الإسلام أن يدخلوا في هذه المعاهدة
خضوعاً للأمر الواقع من جهة ولأن التيار الذي واجهوه كان
تياراً جارفاً لم يكن لهم عهد بمثله ورأوا من الخرق والحق أن
يحاولوا مقاومته .

شئون الذين لم يؤمنوا ومع ذلك فإن تلك المعاهدة لم تمنع كثيراً من اليهود من محاجة النبي صلى الله عليه وسلم وعداوته ومحاولة تأليب القبائل عليه وخصوصاً قبائل العرب الضاربة حول المدينة ولكنهم فشلوا. أما رؤساء الأوس والحزرج الذين لم يسلموا فكان لهم شئون أخرى غير شئون اليهود : فقد كانوا يدعون الشرف في قومهم ، ولم يكن ذلك الشرف الجاهلي في غالب أمره حقاً إنما كان مرتكزاً على الطمع والدعابة والنهويش على الطباع البشرية ، باتخاذ مظاهر العظمة الكاذبة والصلف والخيلاء . ودعوى العدل والعقل لم تكن تخرج من أفواههم إلا ضرباً من الهذيان ؛ ولذلك امتلأت قلوبهم بالحفيظة والضغن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وثارَت نفوسهم للزعامة التي سلبوها ، فوقعوا بين تيار الأغلبية الإسلامية الجارف وبين رغائبهم الواسعة وعقولهم العتيدة ، فانتحى بعضهم ناحية العداوة الصريحة وعلى رأس هذا البعض أبو عامر عبد عمرو ابن صيفي بن مالك بن النعمان من رؤساء الأوس ، وانتحى البعض الآخر ناحية النفاق والتظاهر بالإسلام تقية من القتل ورغبة في التربص للمسلمين والايقاع بهم ، وعلى رأس هذا

الفريق عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان ينتظر تاج الملك
والذي أصبح فيما بعد رأس المنافقين وزعيمهم .

أبو عامر الفاسي أما أبو عامر فكان قد تهرب قبل
النبوة وزعم أنه ينتظر النبي المبعوث ، وصار يذكر للناس كثيراً من
صفاته ويقول لهم قد قرب خروجه ، فلما هاجر صلى الله عليه
وسلم إلى المدينة ، واتضحت صفاته للانصار واتباعه ، حسده
أبو عامر وأنكر نبوته . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين قدم المدينة فقال ما هذا الدين الذي جئت به ؟ فقال :
جئت بالحنيفية دين إبراهيم قال فأنا عليها . فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم إنك لست عليها ، قال بلى ، قال إنك أدخلت
يا محمد في الحنيفية ما ليس منها . قال ما فعلت ولكنني جئت بها
بيضاء نقية . قال الكاذب أمانته الله طريداً غريباً وحيداً —
يعرض برسول الله صلى الله عليه وسلم أي إنك جئت بها كذلك .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل فمن كذب ففعل الله
تعالى ذلك به . فكان هو ذلك عدو الله خرج إلى مكة مباعداً
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يقيم بالمدينة وهو بها . فلما
افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف ،

فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فات بها طريداً غريباً
وحيداً .

أبو عامر الفاسق في أحد وكان من مهازل غروره أنه
لما خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم
استصحب أتباعه الذين يعتز بهم وكان عددهم خمسة عشر رجلاً
وقيل خمسين غلاماً من الأوس . وذهب يغمر بقريش ويعدم
أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان . فلما التقى الجيشان
يوم أحد كان أول من لقي جيش الأنصار أبو عامر في الأحابيش
وعبيد أهل مكة فنادى يا معشر الأوس أنا أبو عامر ، قالوا فلا
أنعم الله بك هيناً يا فاسق . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
صماه الفاسق بدلاً من الراهب . فلما سمع ردهم عليه قال لقد
أصاب قومي بعدى شر ثم قاتلهم قتالاً شديداً ، ثم راضهم
بالحجارة . وهو الذي حفر الحفائر ليقع فيها المسلمون يوم أحد
ووقع في إحداها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن غريب الأمر أن ابنه حنظلة كان صادق الإيمان
وكان زوجاً جميلة بنت عبد الله بن أبي وكانت هي وعبد الله

ابن عبد الله بن أبي بن سلول مؤمنين صادق الإيمان واستشهد
محنة يوم أحد.

عبد الله بن أبي أما عبد الله بن أبي بن سلول فكان
شأنه في الضغينة والحقد للمسلمين وللنبي صلى الله عليه وسلم
أشد من أبي عامر الفاسق ولكنه لم ير أن يلجأ إلى هتفه
الاشكال العنيفة. وكان من طبيعته وما عرف عنه في سابق أمره
لين العريكة بحيث يتشكل للظروف كيفما كانت. فاضطر بادی
الامر إزاء إسلام الغالبية من قومه وعشيرته أن يدخل في
الحلف باقياً على شركه ، وأن يتظاهر بالود والمناصرة داخل
شروط الحلف - بيد أن أتواناً من الحقد كان يتلظى في أعماق
نفسه . فهذا التاج الذي كانت تتلأ لا خرزاته أمام عينيه في
يقظته ومنامه ، وهذا السلطان الذي كان يمني نفسه به ليصل إلى
مصاف الملوك من آل غسان والمناذرة وكندة واليمن - ذهب
كل ذلك جفاء فطار عقله من أجله شعاعاً ، والتاعت نفسه حسرة
عليه أشد اللوعة . وخيل إليه أنه واسع الحيلة قادر أن يتهز
الفرصة إذا منحت أو يخلقها إذا لم تمنح فيقضى على من اعتقد
أنهم حرموه التاج والسلطة . على أنه لم يجد لديه للوصول إلى

بغيته إلا أمرين : أحدهما أن يجمع شتات الذين لم يدخلوا في الدين الجديد من الأوس والخزرج ويضم إليهم يهود المدينة من بني قينقاع وقريظة والنضير ، والثاني أن يستعين بالنعرة القبلية ليوحد الفتنة بين المسلمين أو بينهم وبين القبائل الأخرى عند ما تكون مصلحته في ذلك . وقد لقي ابن أبي من كثير من الأوس والخزرج واليهود آذاناً صاغية ونجح إلى حد ما في إيجاد فرقة للتجسس بين المسلمين بلغت ما يقرب من ثلثمائة كان لبعضهم أعمال واضحة سوف نذكرها في مناسبتها ، ولكن ابن أبي كان العامود الفقري لهذه الفرقة ، والروح المدبر لأحداثها ، وكانت تدابير ومكائده أبرز ما فعله ذلك الحزب البغيض .

اشتغال ابن أبي بالبغاء ويحسن هنا أن نذكر عن ابن أبي أمراً من أعجب أمره ، فإن ذلك الرجل الذي كان يرى في نفسه الكفاية للملك ، وكان يهيء نفسه للتتويج وتقلد السلطة والحكم ، وكان يعتبر نفسه رأس الشرف في الخزرج والأوس ، هذا الرجل كان يشتغل قوادا يتاجر بالبغاء . فقد ورد أنه عندما دخل الإسلام المدينة كان لعبد الله ابن أبي ست جوار معاذة

ومسبك وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرهن على البغاء
 وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فنزل قول الله تعالى : ولا تكرر هو أفتيانكم على
 البغاء إن أردن تحصننا لنبتهنوا عرض الحياة الدنيا (سورة النور ٣٣)
 كما روى أن عبد الله بن أبي أسير رجلا فراود الأسير جارية له
 وكانت الجارية قد أسلمت فامتنعت لاسلامها وأكرها ابن أبي علي
 ذلك رجاء أن تحمل من الأسير فيطلب فداء ولده كما روى عن
 ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء عبد الله ابن أبي إلى رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ومعه جارية من أجمل النساء تسمى معاذا
 فقال يا رسول الله هذه لا ينام فلان أفلا نأمرها بالزنا فيصيرون
 من مناقبها فنهاء النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأعاد الكلام
 فنزلت الآية السكريمة . ومن ذلك يتضح أى رجل من أصناف
 الرجال كان ابن أبي ، وأى شيء كانت ليونته وحلمه إلا ديوثية
 هريقة ، وبرودا في الطبع ، ودناءة في الخلق . ومع ذلك كان
 يعجبه من نفسه أنه كان فارع الطول حسن الجسم جميل الصورة
 إلى حدود قل أن يشاركه فيها أحد . وكان يظن أن هذه السمات
 من ميزات التي تخضع له الناس ونهيته للزعامة والملك ، إلى أن

نحصى على ذلك قول الله تعالى «وإذ أرايتهم تمجيبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم» والمدون فاخذهم قائمهم الله أنى يؤفكون «سورة النافقون آية» فأوصله في مميزاتة التي يعجب بها إلى درجة الخشب المسندة التي لا يفتنع بها في شيء فتترك ملقاة على الحوائط أو الحجارة .

ابن أبي قبل تظاهرة بالاسلام ولم يبادر ابن أبي أول الأمر إلى إظهار الإسلام رياء ، ولكنه بقي على كفره مدة تقرب من سنة إذ أنه لم يظهر الإسلام إلا عقب موقعه بدر . ولم يفته أيضاً ذلك الأثر البالغ للظواهر الجديدة التي طرأت على المدينة وما تنطوى عليه من الخطر فرأى أن أسلم الطرق أن يتجاهل ذلك الخطر وأن يحاول التقليل من شأنه وشأن النبي صلى الله عليه وسلم وشأن المظاهر الجماعية للصلاة والأذان وبناء المسجد وغيرها . وكان له في شئون ذلك أحداث أراد بها أن تؤثر في سكان المدينة فلم تنتج أى أثر ولم تعد عليه إلا بالفشل .

ابن أبي أثناء دخول النبي المدينة فمن ذلك أنه عند شروع النبي صلى الله عليه وسلم في الانتقال من قباء إلى المدينة عرج على

عبد الله بن أبي يزيد النزول عنده تألفاً له ، وكان جالساً محتجباً ،
فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يريد النزول عنده ، قال اذهب
إلى الذين دعوك وانزل عليهم . فقال له سعد بن عبادة يا رسول
الله لا تجحد في نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن
تملكه ، فلما رد بالحق الذي أعطاك الله شرق ، فذلك الذي فعل
به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ابن أبي أثناء مرور النبي صلى الله عليه وسلم بأطمه ومن ذلك

أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حماراً عليه إكاف (برذعة
بأداتها) وأردف خلفه أسامة بن زيد بن حارثة ، يعود سعد
ابن عبادة رضي الله عنه من مرض أصابه في بني الحارث من
الخزرج ، وذلك قبل موقعة بدر . فمر بعبد الله بن أبي وهو في
ظل أطمه مزاحم ، وحوله أخلاط من المسلمين والمشركين
واليهود ، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة رضي الله عنه . فلما
راه رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل فسلم ثم جلس قليلاً فتلا
القرآن ودعا إلى الله عز وجل ، وذكر بالله وحذر ، وابن أبي
زام لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من
مقالته قال : يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً

فاجلس في بيتك ، فمن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا
تغته به ولا تأته في مجلسه بما يكره منه فقال عبد الله بن رواحه
بلى يا رسول الله فاغشنا به واقننا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو
والله ما نحب وبما أكرمنا الله به وهدانا له . واستب المسلمون
والمشركون واليهود حتى كادوا يتبادرون النعال فلم يزل بهم رسول
الله صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا . فقال عبد الله بن أبي حن
رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يكن مولاك خصمك لا تنزل
تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازي بغير جناحه

وإن جذ يوماً ريشه فهو واقع

وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فدخل على سعد
ابن عباد وفي وجهه بعض الغضب ، فقال والله يا رسول الله
إنني لأرى في وجهك شيئاً ، ولكأنك سمعت شيئاً تكرهه قال
ألم تسمع ما قال أبو حباب يعني عبد الله بن أبي ثم أخبره بما
قال ، فقال سعد يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جأنا الله

ملك وإنا لننظم له الخرز لتوجه فوالله إنه ليرى أن قد سلبت
ملكاً .

عبد الله بن أبي وابنه عبد الله وزاد الأمر على عبد الله بن
أبي عند ما آمن ابنه عبد الله وصدق في إيمانه وصار يحاول أن
يهدى أباه إلى الإسلام . وصارت تقوم بين الأب وابنه
منازعات بين حين وآخر . ومن طريف ما ورد في ذلك أن
ابنه رضي الله عنه قال يوماً للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول
الله ذرني أسقي والدي من وضوئك لعل قلبه أن يلين فتوضأ رسول
الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه فذهب به إلى أبيه فسقاه وقال
له هل تدري ما سقيتك قال نعم : سقيتني بول أملك قال لا
ولكن سقيتك بول النبي .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي في
جماعة فقال لقد آذانا ابن أبي كبشه في هذه البلاد (يعني النبي
صلى الله عليه وسلم) فسمعها ابنه عبد الله فاستأذن رسول الله
أن يأتيه برأسه فقال له صلى الله عليه وسلم لا ولكن برأباك .

اجتذاب ابن أبي لامراب وكان لعبد الله ابن أبي كفيرو

من رؤساء القبائل أتباع يسبيرون وراه حينئذ سار . وقد بدأ
ينثر شباهه ليضم أعداء الدين الجديد من اليهود وغيرهم .
فتحالف سرأ مع يهود المدينة على رغم تباين نزعاتهم القبلية ،
كما جمع من استطاع استهواؤه من حلفائه وأعدائه السابقين من
عربان البدو الضاربين حول المدينة ، وأثبتت الأيام وجود هذه
المحالفات السرية كما سيتضح فيما بعد ، وكان ابن أبي يانس لهذه
الجموع أيما إيناس ، ويثق فيها كل الثقة ، ويرى أنها كفيلة
بأحداث ما كان يريد إحداثه من الفتنة .

محاولة إشعال الفتنة بين الأنصار ومن ذلك أنه وقع في
في بعض الأيام أن قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أتيت
عبد الله بن أبي بن سلول متألفاً له ليسكون ذلك سبباً لإسلامه
ومن تخلف من قومه . فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم وركب
حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون بين يديه فلما أتاه النبي صلى الله
عليه وسلم قال إليك عني والله لقد آذاني نتن حمارك فقال رجل
من الأنصار والله لحمار رسول الله أطيب ريحاً منك . فغضب
لعبد الله نفر من قومه فشتمه فغضب لكل واحد منهما أصحابه

فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدى والنعال ، فنزل قوله تعالى
 « وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فأسلحوا بينهما فإن
 بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تقيء
 إلى أمر الله فإن فاءت فأسلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن
 الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين
 أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » . (الحجرات ١)

والثابت أن بعضاً من أهل المدينة قد أظهر الإسلام نفاقاً
 قبل أن يظهره ابن أبي ، ولا يبعد أن يكون ذلك قد تم بإيعازه
 وتحت إرشاده ليضع في صفوف المسلمين وبين ثنایاهم عيوناً
 وأرصداً تعينه على تحين الفرص وتهينة التدابير ولكن
 الأحداث توالى سراعاً فلم تترك له أى فرصة ، وأضاعت عليه
 جهوده وتدابيره ، وقلبت رأساً على عقب ما ألفه وألفته العرب
 حيثئذ من ارتكاز الأوضاع الاجتماعية على العصبية القبلية ،
 وهو الأمر الذى عقد عليه كل آماله والأفق الوحيد الذى لم
 يتسع بصره أن يمتد إلى سواه .

أثر موقعة بدر

واسلم أبي أبي

قوة الكفار في موقعة بدر كان أول ما هال ابن أبي وأحلافه ومن كانوا على شاكلته ما أحرز المسلمون من النصر في غزوة بدر، فقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه من أصحابه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً ليلقوا جيش قريش الذي كان يفوقهم في العدد ثلاثة أضعاف إذ كان يتألف من خمسين وتسعمائة مقاتل معهم مائة فرس عليها مائة درع غير دروع المشاة نفروا من مكة على الصعب والذلول في مظاهرة من الفخر، والقيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين — فطرب المنافقون وأحلافهم لذلك أيما طرب، وأيقنوا أنها النهاية لهذا الدين الجديد وأشياعه، وجعلوا يتوقعون الأخبار بهذه النهاية التي رسمها في رؤوسهم الأمل الكاذب والتي قال الله تعالى عنها في سورة الأنفال : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم

مرض فر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فان الله عزير
حكيم ، (الأنفال ١٩)

نتيجة الموقفه بالنسبه لليهود والمنافقين كانت موقعه بدر طعنة
شديدة في صدر ابن أبي وصدور أتباعه كما كانت طعنة شديدة
في صدور اليهود ، فأنى لهذا العدد الوجيز أن يكسر شوكة
قريش في أوج عزها وبالنسبة قدرها وكثرة عددها وهى زعيمة
قبائل العرب ، ومعقل الشرف والقوة ، وإذن فقد أثبتت الموقعة
أن المسلمين قوة واسعة إن يحسب لها المنهزمون من قريش
حساباً ، فأولى بهذا الحساب أن يضاعفه المواطنون بالمدينة
والذين لا يرون الدخول في هذا الدين الجديد .

الارجاف الكاذب قبل عودة الجيدين ومن عجيب الأمر أن
تستعر الحفيظة في قلوب المنافقين فلا يكادون يسمعون صوت
رسل النبي صلى الله عليه وسلم بالنصر حتى قلبوا البشارة إرجافاً
بالحزيمة . وتفصيل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل
عبد الله بن رواحة بشيراً لأهل العالية وزيد ابن حارثة بشيراً
لأهل السافلة — وهما من أقسام المدينة — يبشران أهلها

بما فتح الله على المسلمين . وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء .
أما كعب بن الأشرف اليهودي فصار يكذبهما ويقول ان كان
محمد قتل هؤلاء فبطن الأرض خير من ظهرها . ولكن رجلاً
من المنافقين لجأ لا إلى التكذيب كما فعل اليهودي ، ولكنه
اخترع من رأسه رواية لا أصل لها وصار يرجف بها في المدينة
ولقي أبا لبابة رضي الله عنه وقال له : قد تفرق أصحابكم تفرقاً
لا يجتمعون معه أبداً ، قد قتل محمد وغالب أصحابه ، وهذه ناقته عليها
زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب « قال أسامة بن زيد
فبلغني ذلك فجتحت حتى خلوت بأبي وسألته عما يقول الرجل
وقلت أحق ما تقول ؟ قال إي والله إنه لحق ما أقول يا بني
فقويت نفسي ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت أنت المرجف
برسول الله لنقدمك إلى رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك
فقال إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه . »

تظاهر بن أبي بالاسلام على أن تلك الأراجيف السخيفة لم
تكن لتغير شيئاً من الحقيقة ولا أن تحجب النتائج التي أحدثتها
موقعة بدر ، وأعلنت لجميع بلاد العرب ما للمسلمين من القوة ،
فأسلم كثير ممن لم يسلم من أهل المدينة من الأوس والخزرج

واليهود ، وانكمش الاعداء واضطر عبد الله بن أبي بن سلول
أن يذهب للنبي صلى الله عليه وسلم ويظهر إسلامه ، وبذلك بدأ
حياة النفاق وتزعم مكانه وأرجاسه — وبدأ في الحال بالتقرب
إلى النبي صلى الله عليه وسلم في مسألة عمه العباس رضى الله عنه
وقد كان ضمن أسرى الموقعة إذ كان مع جيش قريش ، ولم يكن
قد أعلن إسلامه ، وشد المسلمون وثاقه كبقية الأسرى فلما رجع
النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واقتيد إليه الأسرى افتدى
العباس رضى الله عنه ثم أظهر إسلامه وأراد النبي
صلى الله عليه وسلم أن يلبسه قميصاً وكان رجلاً فارح الطول فلم
يجدوا له قميصاً على طوله . فكساه عبد الله بن أبي قميصه لأن
عبد الله بن أبي كان طويلاً كما مر . وكانت هذه أول لفطة منه
يظن بها أنه يغافل عقول المسلمين ويمتلك قلوبهم . ولم يكن لها
أى أثر الا عند موته إذ أتى ابنه عبد الله وكان من فضلاء الصحابة
إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب قميصه ليكفن أباه فيه وجاء
بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه قميصه تطيباً لقلب
ابنه وتأليفاً لبقية المنافقين ومكافأة لما فعله مع عمه العباس
رضى الله عنه .

ابن أبي في موقعة بني قينقاع

خرج بني قينقاع على العهد كانت الأيام شديدة العجلة على ابن أبي. وأنفاس النفاق بطبيعتها حيرى مريعة قل أن تهدأ زفراتها، فزادتها عجلة الأيام سرعة واضطرابا. فما إن أظهر ابن أبي إسلامه عقب موقعة بدر، وبينما هو يتلمس لنفسه مكمنا يتوارى إليه حتى يجمع شتات أمره ويفكر فيما هو صائر إليه ويضم إليه أشياعه، حتى داهمه خطب فادح فيما حل بأحلافه القدماء يهود بني قينقاع إذ خرجوا على عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، وحق عليهم العقاب واستحقوا العار من المدينة.

ووقف عبد الله بن أبي على شفير الحرج إذ كان بنو قينقاع أحلافا للخزرج من يوم بعث وقبله. فلم يجد بدا أن يطرح بعض أستار نفاقه وفاح من قلبه النفاق في شكل أثيم.

سبب خروجهم ولم يكن سبب غدر هؤلاء اليهود إلا انحطاط الغرائز الانسانية وحب الفسق والمجون في شكل طائش، فلم يكن لابن أبي أي عذر أن يتخذ أي مسلك للدفاع

عهم . وكان من أمر هذا الغدر أن امرأة مسلمة كانت زوجة
لأحد الأنصار المقيمين بالبدو ذهبت إلى سوق بني قينقاع ،
وكانوا صاغة يقيمون بقسم من المدينة يقال له بطحان فيما يلي
العمالية ، فباعت إبلًا وغنمًا لها ، ثم جلست إلى صائغ منهم ،
فجعل جماعة منهم يراودونها على كشف وجهها فأبت ، فعند
الصائغ إلى طرف ثوبها نخله بشوكة وهي لا تشعر ، فلما قامت
انكشفت سوءتها فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من
المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ،
فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون
وتواثبوا من كل جهة ، فبلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم
ومشي اثنان من رؤساء الخزرج وأحلاف بني قينقاع إلى النبي
صلى الله عليه وسلم . وكان أحدهما عبادة
ابن الصامت رضى الله عنه والثاني عبد الله بن أبي وكان لعبادة
من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي فأما عبادة بن
الصامت فدخلهم إلى رسول الله وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم
وقال يا رسول الله أتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وأتولى الله

ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم . وأما
عبد الله بن أبي قتيب بجلفه مع اليهود وقال لسكني لا أبرأ من
ولاة يهود إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية موالي
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا الحباب أرايت
الذي نفست به من ولاة يهود على عبادة فهو إليك دونه قال إذن
أفعل . وقد أنزل الله تعالى في ذلك :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء
بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله
لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض
يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله
أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا
في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين
أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم
فأصبحوا خاسرين . يا أيها الذين آمنوا من يردكم منكم
من دينة فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على

الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ بِجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ وَتُوبَةُ اللَّهِ وَإِلَهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَقُولُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ فِئْتًا فَلَيْسَ يَكُونُ» (المائدة ٥١-٥٦)

تعدى اليهود ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود
بنى قينقاع وقال لهم «يا معشر يهود احذروا من الله مثل
ما أنزل بقريش من النعمة — أى يسدر — وأسلموا فإنكم
قد عرفتم أنى نبي مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله تعالى
إليكم ، ولكنهم قد أخذتهم شدة الغرور فقالوا «يا محمد : إنك
ترى أنا كقومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم
بالحرب فأصبحت لهم فرصة ، إنا والله لنن حاربناك لتعلمن أنا
نحن الناس ، فأنزل الله تعالى :

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَهُمْ يَخِشُّونَ إِلَى جَهَنَّمَ
وَبَشِّرِ الْمُرَادِ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْمُتَّقِينَ : فِتْنَةٌ تَقَاتِلُ

في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم متباينين رأي العين وقد
يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار
آل عمران ثم إن بني قينقاع تحصنوا في حصونهم وآطامهم وكانوا
يعتزون بها فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم
خمس عشرة ليلة أشد الحصار من ١٥ شوال إلى أوائل ذي القعدة
وحمل اللواء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، واستعمل على
المدينة أبا لبابة الأنصاري . فقتل الله في قلوبهم الرعب . ولما
ضاق بهم الأمر وعلموا أنهم أخذوا ، لجئوا إلى تسليم أنفسهم
والنزول على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضوا عليه
أن يخلي سبيلهم وأن يجلوأ عن المدينة وأن لهم النساء والذرية
دون الأموال والسلاح . فأراد النبي صلى الله عليه وسلم قتالهم .
وهنا خرج عبد الله بن أبي الدفاعة عنهم
والاستشفاع لهم عند النبي صلى الله عليه وسلم في أصفى
أنواع الشفاعة وأجهر ضروب اللؤم وذلك أنه كلم النبي صلى الله
عليه وسلم وأخ عليه فقال : يا محمد أحسن في موالي ، فأعرض
عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله من خلفه . فقال له

رسول الله ، ويحك أرسلني ، وعضب حتى رآوا الوجه سمرة
وخللا لشده غضبه ثم قال ، ويحك أرسلني ، فقال ، والله
لا أرسلك حتى تحسن في موالى ، فأنهم عتروا ، وأنا امرؤ أخشى
الدوائر وقد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدكم في غداة
واحدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلوهم : لعنهم
الله ولعنه معهم ، وتركهم من القتل وقال له ، خذهم لا بارك
الله لك فيهم ، ثم أمر أن يجلبوا عن المدينة ووكل باجلائهم عبادة
ابن الصامت رضى الله عنه ، وأمهلهم ثلاثة أيام . ولما انتهى اليوم
الثالث سألوا عبادة أن يمهلهم أكثر من ذلك فقال ، لا ولا
ساعة واحدة ، . ومع ذلك فقد حاول ابن أبي أن يعاود
الاستشفاع لهم ، وكانت له صفاقة لا تمنعه من الالحاح . ولما
وصل إلى مكان النبي صلى الله عليه وسلم وحاول الدخول إليه
حجبه الصحابة ومنعوه من الدخول . فأراد أن يدخل عنوة ،
ولكن أحدهم دفعه دفعة شديدة فاصطدم وجهه بالحائط وشج
وجهه ، فانصرف مغضباً . وعند ذلك يش بنو قينقاع كل
اليأس من بقائهم بالمدينة وقالوا لا نمكث في بلد يقتل فيه

بابي الحباب هذا ولا ينتصر له . وتأهبوا للرحيل . وغير خاف
أنهم إنما خرجوا كرهاً ويأساً من كل محاولة ، وإنما ذكروا
ذلك مرضاة لعبد الله بن أبي يكيلون له النفاق قيراطاً
بصاع .

ابن أبي بعدا جلاء بني قينقاع

أعمال متفرقة غلب ابن أبي على أمره بعد إجلاء بني قينقاع
ومرت سنة بين موقعة بدر وأحد لم يذكر التاريخ خلاصتها على
وجه التحديد فيما نعلم أموراً محدودة عن ابن أبي ؛ ولكنه
لا شك كان حثيثاً في عقد التحالف سرّاً بين أعداء الإسلام
وفي إنشاء حزبه أو طابوره الخامس حسب التسمية العصرية .
وقد وجد من الكثير آذاناً صاغية وقلوباً أثنتها سهام الحفيظة
وسودتها سخائم الحق والضعيفة . وبدأوا يغشون مجالس
الرسول صلى الله عليه وسلم ويعلمون مكان المسلمين ، ونفوسهم
ملاى بالسخرية والحق . وكانت علامات نفاقهم وسخريتهم
تتكشف للمسلمين بين آن وآخر ، فلا يستطيع المسلمون أن

يقطعوا عليهم طريق آثامهم وكيدهم ، لأن التعاليم التي كانت
للنبي صلى الله عليه وسلم تقضى أن تقبل منهم علانيتهم وأن
توكل سرائرهم إلى الله . وقد كفاء الله فعلا شر تلك
السرائر .

ومن ذلك أن المنافقين خرجوا ذات يوم ومعهم عبد الله
ابن أبي فاستقبلهم قوم من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعلي
رضي الله عنهم . فقال ابن أبي لأصحابه : انظروا كيف ارد عنكم
هؤلاء السفهاء ، فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال : مرحباً
بالصديق سيد بني تيم ، وشيخ الإسلام ، وثاني رسول الله في
الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر رضي الله
عنه وقال : مرحباً بسيد بني عدى الفاروق ، القوي في دين الله ،
الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه ،
فقال : مرحباً بابن عم رسول الله وخسته ، وسيد بني هاشم
ما خلا رسول الله ، فقال له علي رضي الله عنه : اتق الله يا عبد
الله ولا تنافق ، فان المنافقين شر خليفة الله ، فقال له عبد الله
: مهلاً يا أبا الحسن أتقول لي هذا والله إن إيماننا كإيمانكم ،
وتصديقنا كتصديقكم ، ثم افترقوا فقال لأصحابه : كيف

رأيتوني فعلت ، فاثنوا عليه خيرا ، فرجع المسلمون الى النبي
صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فنزلت الآية :
« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى
شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ
بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة
بالحدي فاربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (البقرة ١٤ وما بعدها)
ومهما يكن من أمر المنافقين وأعمالهم ومكائدهم ، فإن
الخطورة الكبرى كانت تظهر في أوقات الحرب . فقد ذهبوا
في الإيقاع بالمسلمين كل مذهب ، وتفنتوا في تدبير أسباب الهزيمة
ولهذا فقد رأيت أن أفصل أحداثهم في المواقع الحربية ، في كل
موقعة على حدة .

في موقعة أحد

ابتلاء المؤمنين واختبارهم كانت موقعة أحد أولى المواقع التي كشفت عن المنافقين ، وفضحت كثيراً من مكائدهم ونواياهم وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم قوله :
« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتنقوا فلکم أجر عظیم » . (آل عمران ١٧٩)
ولقد كان المنافقون مختلطين بين المسلمين اختلاطاً شديداً في شتى القبائل ، فاقترضت حكمة الله وسنته في خلقه أن يعلموا أكثر أمورهم بالاختبار والكسب ، لا بالاطلاع على الغيب ، وخفايا الأنفس ، ومكنونات الصدور . ولهذا كان يوم أحد يوم ابتلاء وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ، وعحق به المنافقين ، وكان

يوما أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته .

ظهور المنافقين الجماعى فى أحد لم يظهر شأن واضح جماعى للمنافقين قبل يوم أحد ، سوى ما أحدثه عبد الله بن أبى بن سلول عند إخراج يهود بنى قينقاع من المدينة ولكنه كان على كل حال ظهوراً فردياً من ابن أبى . أما موقعة أحد ، فقد اجتمع فيها مع ابن أبى عدد كبير من المنافقين ناهز الثلماتة تميزوا إذ ذلك بانحيازهم إليه ، ثم تخلفهم معه عن القتال . وقد كانت خطوات المنافقين ومناوراتهم بزعامة ابن أبى مثالا للخديعة والمكر السيئ ، وجديرة بادخال الفشل فى ذلك الوقت الحرج الذى به بدأت الموقعة ، ثم بالشماتة بالمسلمين لما أصابهم لما خالف الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم .

المعركون من قريش وعددهم فى أحد قصد المشركون من قريش المدينة فى ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا ثأرهم مما حدث يوم بدر ، فنزلوا قريباً من جبل أحد يوم الأربعاء الثانى عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فأقاموا هناك يوم الخميس .

والنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وقد أتاه الخبر بوصول ذلك الجيش . وسبق ذلك أن أنه صلى الله عليه وسلم كان قد رأى في منامه أن في سيفه ثلثة ، وأن بقرأ له تذبح ، وأنه أدخل يده في درع حصينه — فتأولها أن نفرأ من أصحابه يقتلون ، وأن رجلا من أهل بيته يصاب ، وأن الدرع الحصينة هي المدينة .

استشارة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أمام ذلك الخطر الدائم ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستشير أصحابه ، وخاعمة كبار الأنصار رؤساء الأوس والخزرج ، ومن ضمنهم عبد الله بن أبي بن سلول .

والظاهر أن عبد الله بن أبي كان مشغولا في ذلك الوقت في تدبير الكيد للمسلمين وانتهاز الفرصة للقضاء عليهم ، فقد واثته الفرصة أيما موثاة ، وحضرت قريش ذات السطوة والقوة في عدد كبير وخیل كثير ، ومعهم النياق العوذ المطافيل ، والقيان والخمور ، وأنه لصاحب مكر وخديعة فماذا لو ساعدتم ليشتروا مع الخزرج والأوس في نبش التاج ليضعوه فوق هامته .

ابن أبي في الاستشارة وقد واثته الفرصة أيضاً من جهة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فقد أرسل إليه يستشيريه . وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، باديء ذي بدء ، أن يتحصنوا بالمدينة ، إلى أن يأتي إليها المشركون ، وقال لأصحابه : امكثوا بالمدينة فإن دخلها القوم ، قاتلناهم ورموا فوق البيوت ، وفي رواية أخرى . فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا شر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ، وقد كانت حجة هذا الرأي واضحة من الجهة الحربية : فقد كانت المدينة محاطة بالمباني من كل ناحية كأنها الحصن ، وواقفه أكابر المهاجرين والأنصار .

ولما حضر ابن أبي ، ووجد نفسه لأول مرة موضع استشارة وثقة واهتمام ، ظن في نفسه أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين قد يغفلون عن نواياه . وأنهم قد غفروا له ما أحدثه بالأمس القريب عن يهود بني قينقاع ، كما رأى أن تدبيره لا يتناقض في ظاهره مع رأى الرسول صلى الله عليه وسلم

وأكابر المهاجرين والأنصار . فالشبهة إذن بعيدة عنه فقال :
يا رسول الله ، أقم بالمدينة . لا تخرج إليهم ، لقد كنا يا رسول
الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي ، ونجعل
معهم الحجارة ، ونشبع المدينة بالبذيان ، فتكون كالحصن من
كل ناحية . فاذا أقبل العدو رمتهم الذسوة والأطفال بالحجارة ،
وقاتلناه بأسيافنا في السكك . إن مدينتنا يا رسول الله عذراء
ما فضت علينا قط ، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما
خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا ، فدعهم يا رسول الله ،
وأطعن في هذا الأمر ، فاني ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي
وأهل الرأي منهم .

الرأي بالحرب خارج المدينة إلى جانب هذا الرأي شباب متحمسون

ورجال أحبوا لقاء العدو ، وغالبهم بمن أسف على ما فاتته يوم
بدر ، ونفوسهم تتحرق شوقا إلى قتال أهل الكفر والاستشهاد
في سبيل الله . فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا كنا نتمنى هذا
اليوم ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أننا جبننا عنهم ، وقال طائفة
من الأنصار على رأسهم سعد بن عباد رضي الله تعالى عنه وهو

كبير الخزي من المؤمنين ، إني لا أحب أن ترجع قريش إلى
 قومه فيقولون حصرنا محمدًا في صياصي يثرب وأطامها ، فتكون
 هذه مجرة لقريش . وهلم هؤلاء قد وطئوا سمعنا ، فإذا لم
 نذب عن عرضنا لم يزرع . وإن قريشاً قد مكثت حولاً تجمع
 الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها
 ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بصاحتنا ،
 أفيحبسوننا في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا ؟
 لئن فعلنا لازدادوا جرأة ولئن فعلنا لافترسوا غارات علينا وأصابوا من
 أطرافها ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا
 الطريق علينا ، وقال النعمان بن مالك رضي الله تعالى عنه يرجو
 الرسول صلى الله عليه وسلم في ضراعة وشوق إلى الموت في سبيل
 الله ، يا رسول الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذي نفسي بيده
 لا دخلنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بوله » فقال
 أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ولا أفر يوم الزحف
 فقال صلى الله عليه وسلم « صدقت » وكان خاتمة هذا النقاش
 أن قام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه يؤيد الرأي الثاني
 رحمه الله

ويقول لابن أخيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذي أنزل
عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجادلهم بسيفي خارج
المدينة ، وهكذا انتهى الأمر بترجيح الرأي الثاني وهو الخروج
للقاتال المشركين من قريش ومن معهم خارج المدينة ، فوافقهم
النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كرهه ابتداء ليقضى الله أمراً
كان مفعولاً .

قلب الرأي الثاني وخروج بن أبي في كتيبة ومعه اليهود ورفض النبي لهم

لم ينجح ابن أبي في الفوز ببيغيته ولكن أول الشر يطلب
آخره ، والحقد مرض لا ينفك آخذاً بخناق صاحبه ، فعمد إلى
كيد آخر ، فجمع كتيبة من ثلثمائة مقاتل ممن كانوا على شاكلته
في النفاق وضم إليهم جموعاً من اليهود ، وساروا مع جيش
المسلمين ، حتى إذا وصلوا إلى مكان يدعى الشوط بين المدينة
وأحد ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكتيبة ومن ضمنها
اليهود فقال « ما هذا » قالوا « حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول
من يهود » قال « وقد أسلموا » فقبل « لا » فقال « مروم
فليرجعوا إنا لا نتصر بأهل الكفر على أهل الشرك » وردم

فرجع عبد الله ابن أبي عحنقاً وتبعه من كانوا معه وقال عند ذلك
« عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأى له ، ما ندرى علام نقتل
أنفسنا ، ما هنا أيها الناس ، وقد عز ذلك على أحد الصحابة
الاجلاء وهو عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضى الله
عنهما وكان من عظماء الخزرج فتبعهم يقول : « يا قوم أذكركم
الله أن تخذلوا قومكم ونيبكم عند ما حضر من عدوهم ، وقاتلوا في
سبيل الله أو ادفعوا ، ونحو هذا من القول ، ولكن عبد الله
ابن أبي ابتدع له عذراً سخيلاً إذ قال « ما أرى أن يكون
قتال ، ولو علمنا أن يكون قتال لكننا معكم ، وهكذا أبي ومن
معه إلا الانصراف ؛ فلما استعصوا عليه قال « أبعدم الله أعداء
الله فسيغنى الله نبيه عنكم ، ونزل في ذلك قوله تعالى :
« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبأذن الله وليملم
المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في
سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لا تبعنكم ، ثم
للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس
في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون »

غرض ابن أبي غير خاف ما اتخذته ابن أبي من ضروب
 التلون والنفاق ، ولم يذكر أحد مراحة ، ما كان ينتويه في نفسه
 ولكن الأحداث التي وقعت تدل دلالة لا يقتورها شك أن
 ابن أبي رأى الفرصة سانحة للقضاء على المسلمين ، وذلك بأن
 يتدس بينهم هو وتابعوه ومن على شاكلته . فلو أنهم تحصنوا
 بالمدينة لوجدوا عدواً كامناً بين أظهرهم ، يتربص بهم الدوائر
 ويمكن جيش الكفار عند ما يحمي وطيس القتال من الإيقاع
 بالمسلمين ، وليس أخطر على الجيوش من هذا الضرب من
 الجواسيس وهذه الفرق الخائنة . فلما فاته هذا السكيد عمد إلى
 تكوين فرقة من تابعيه ومن اليهود الذين تضطرم في صدورهم
 نيران الحقد والغیظ بحجة الدفاع عن المدينة . وما كانت قريش
 تحارب غزواً لذات المدينة ، وإنما كانت تحارب المسلمين
 وتطلب القضاء عليهم ، أو تنشد على الأقل الثأر لقتلى القليب .
 ولكن ابن أبي حاول أن يدخل في روع الأصار أن الحال
 تدعو إلى تضافر عناصر المدينة للذود عنها من الفاتحين ، وإذن
 فلم لا يشترك في ذلك اليهود من سكانها ، مع أنه يعلم في نفسه
 حق العالَم أن قريشاً لم تفكر في فتح المدينة ولا في معاداة

أهلها ، وأنهم إذا ما بلغوا مأربهم من النار لا بد راجعون إلى قومهم ، تاركين المدينة لأهلها القسداء وعلى رأسها ابن أبي ويكون له بذلك فضل التدبير فيصل إلى تاجه العزيز المزهوم . هكذا ظن ابن أبي وظن معه المنافقون وطمعوا فيما لا يكون وغاب عنهم ما كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات ما يفضح أمرهم ويكشف سترهم ، وإيماناً صادقاً في نفوس المسلمين تتلاشى أمام نوره غياهب الكفر والاحقاد .

محاولات ابن أبي ولم ييأس ابن أبي إذ فشل في المحاولة الأولى فعمد إلى محاولة ثانية : وذلك بأن هباً جيشاً من ثلثمائة رقبه بعدد من أشياعه اليهود . وكان إدخال اليهود خدعة مكشوفة استتر عنها بادعاء الدفاع عن ذات المدينة من جميع أهلها . وفاته أنه عمل لا يتفق مع تعاليم الإسلام . فلما رفضه النبي صلى الله عليه وسلم عز ذلك الرفض على ابن أبي ويتضح من تدبيره إذ لم يبق لديه من فرقته من يعتمد عليه في تنفيذ خطته ، ورأى على قلبه الضيق ، فلم يشأ أن يعود إلا بعد أن روي بآخر منهم من سهام الفتنة فقال مقالته السابقة : وقد كادني

للفتنة أن تقع فعلاً ، وذلك أن طائفتين من الأنصار وهما بنو
ساعة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج لما رأوا انخزاله من
الجيش هموا بالانصراف وكانوا جناحي العسكرية ثم عصمها
الله تعالى وأنزل فيهما ، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ،
والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، آل عمران ١٢٢

ولنا أن نتسائل هنا كيف استطاع ابن أبي أن يستحضر
أولئك اليهود ؟ ومن أي القبائل كانوا ؟ ولماذا أطاعوه والتفوا
حوله ؟ وهل كانوا يتوون الدفاع عن المدينة حقاً ؟ وهل كان في
هزمهم أن يكونوا عوناً للمسلمين على كفسار قريش الذين
جاءوا للحرب ؟

سبب استحضار اليهود أما الطريقة التي استحضر بها ابن
أبي أولئك اليهود فلا بد أن حلفاً سرياً انعقد من قبل بينه وبينهم
دعت إليه المصلحة المشتركة في معاداة المسلمين والضعف الكامن
في قلوبهم للرسول صلى الله عليه وسلم . ولا بد أن يكون
هؤلاء اليهود من قبيلتي بني النضير وبني قريظة ، لأن يهود بني

فينقاع كانوا قد أجلوا عن المدينة ، وعجيب أن ينضم بنو النضير
وبنو قريظة إلى ابن أبي الحزرجي وقد كانوا من قبل أحلفاء
اللاوس ضد الحزرج ، ولكن الضغينة المشتركة أملت ضرورة
هذا الحلف .

ضعف المنافقين وقد كان في وسع ابن أبي ألا يتعرض لهذا
الخلط في عسكره فلا ينكشف أمره كما انكشف ، ولكن
الظاهر أن أشياعه على النفاق لم يكونوا على درجة من الجلد
والقوة بحيث يعتمد عليهم في الوصول إلى غرضه ، ولم يكن لديه
أى ثقة فيهم ، فأدخل إليه عدداً من أحلافه اليهود من قويت
شكيمتهم واشتدت قوتهم ، ومن لهم دراية بحركات الجيوش ،
وهم وأن حالفوا الرسول صلى الله عليه وسلم في الظاهر إلا أنه
لم يكن يمنعهم من نقض حلفهم ذلك إلا الخوف — ولقد
نقضوه بعد ذلك وكان سبباً كافياً لإبعادهم — وهذا يعطينا فكرة
واضحة عن نوع المنافقين الذين كانوا ينضمون إلى زعامة ابن
أبي وكيف أنهم كانوا من الأذلاء صغار النفوس عديمي الهمة
لا يعتمد عليهم في أمر من الأمور .

فرض ابن أبي في إدخال الفشل على المسكر ولعل غرض ابن أبي من كل ذلك كان أن يصل إلى إدخال الفشل في المسكر حتى إذا التقى الجمعان انضم هو وجيشه إلى فريق المشركين في مناورة يكون مجرد حصولها من أخطر الحركات على جيش المسلمين ثم في إضعاف قوته المعنوية . نعم لم يرد فيما رواه المؤرخون عن ذلك قولاً صريحاً ولكن مقتضيات الظروف وأقوال ابن أبي وأعماله كانت كلها شواهد لا تحتمل الشك في سوء نياته وخبثا تدبيره . وإنما عصم المسلمين منها الإيمان الصادق وعدم التساهل في تعاليم الدين .

استمرار وجود بعض المنافقين في الجيش هل تظهر جيش المسلمين تماماً من أهل النفاق ؟ وبعبارة أخرى هل خلع من الجواسيس . تدل نصوص القرآن أن الجيش لم يخل من أهل النفاق ، نجد ذلك صريحاً فيما نزل من الآيات على أثر ما منى به المسلمون لما خالف الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وتركوا مواقعهم وانكشف الجيش ، فانتبه للمشركون هذه الفرصة وقاموا بحركة التفاف نشأ عنها قتل كثير من المسلمين ، وحرموا ثمرة النصر إلى آخر ما حدث في هذه الواقعة . فلما عادت صفوف

المسلمين إلى نظامها ، أنزل الله النعاس على المسلمين أمنة منه
 ونعمة حتى نام أكثرهم ولم يغش هذا النعاس المنافقين . روى
 البخارى عن أنس أن أبا طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في
 مصافنا يوم أحد ، فجعل سبقي يسقط من يدي وأخذه ويسقط
 وأخذه ، وقال الزبير بن العوام رضى الله عنه : لقد رأيتني مع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتد علينا الخوف
 وأرسل علينا النوم فما منا من أحد إلا وذقنه في صدره ، فوالله
 إنى لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير والنعاس يغشائى ، لو كان
 لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا ، فنزل في ذلك قوله تعالى
 « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة
 منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق
 ظن الجاهلية . يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، قل إن
 الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون
 لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا ، قل لو كنتم
 في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتلى إلى مصابيحهم
 وليبتي الله ما فى صدوركم وليسمع ما فى قلوبهم والله

عليه بذات الصدور « آل عمران ١٥٤

الارجاف والشماتة بعد الواقعة كان هذا من بؤادر موجة
الارجاف والشماتة وهي الدور الثاني الذي لعبه المنافقون عن
نتائج هذه الواقعة . فقد اتهموا فرصة ما حدث للمسلمين بأحد
وأطلقوا سهاماً من القيل والقال والمفتريات الكاذبة الممزوجة
بالشماتة ، والتي مع ذلك لم تحدث أثراً في قلوب المؤمنين إلا
أن يزدادوا إيماناً مع إيمانهم وإلا أن ينكشف أمر من في قلوبهم
مرض . ولعل أشد ما وصل إليه الارجاف ما أشيع في العسكر
من قتل الرسول صلى الله عليه وسلم : أشاع ذلك مشرك خبيث
من قريش يدعى ابن قته فهب بعض المنافقين يقول : لو كان
نبياً ما قتل فارجموا إلى دينكم الأول ، وقال جماعة منهم : ابعد
لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان ،
يا قوم إن محمداً قد قتل فارجموا إلى قومكم قبل أن يأتوكم
فيقتلوكم ، وانهزمت طائفة منهم حتى دخلت المدينة . ومن
ظريف الأمر أن لقينهم أم أيمن رضى الله عنها ، وكانت تسقى
البحر حى ، فجعلت تحثو التراب في وجوههم وتقول لبعضهم هالك

المغزل فاغزل به وهلم سيفك ، أما المؤمنون فلم يفكر أحد منهم
مثل هذا التفكير بل إنه روى أن أنس بن النضر عم أنس بن
مالك رضى الله عنهما أنشأ يقول : يا قوم إن كان محمد قد قتل
فإن رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه — ثبت على
القتال كما ثبت عليه غيره من أهل الصدق . وقد أنزل الله تعالى
في هذا الشأن رداً على المنافقين فقال : وما محمد إلا رسول
قد خلت من قبله الرسل أفأن مات أو قتل انقلبتم على
أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ،
وسيجزي الله الشاكرين ، آل عمران

شهادة المنافقين شتمت المنافقون أيما شتماته بما أصاب المسلمين
يوم أحد لكثرة القتلى ولقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله
عنه ، عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم شتموا أكبر من ذلك لما
أصاب الرسول نفسه من الأذى والجراح حيث شج وجهه
وكسرت رباعيته ودخل المفقر في شفته . وظن المنافقون أن
المسلمين قد هزموا وغلّبوا على أمرهم ، وانحاز اليهم بعض اليهود
وصاروا يقذفون أقبح القول . من ذلك أنهم قالوا : وما محمد إلا

طالب ملك ، ما أصيب بمثل هذا نبي قط : أصيب في بدنه
وأصيب في أصحابه ، كذلك قالوا ، لو كافي من قتل منكم عندنا
ما قتل ، وقد أنزل الله تعالى في شأنهم ذلك « يا أيها الذين
آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَى ، أَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا
وَمَا قُتِلُوا ، لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يَكْبِي
وَيُخَيِّتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوْ مِتُّمْ لَغَفْرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . وَلَئِنْ مِتُّم
أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَكُونُونَ » (آل عمران)

سباسة النبي صلى الله عليه وسلم في عدم قتل المنافقين ظهر المنافقون
جلباً . وميزتهم الأحداث المتعاقبة ، ولما كان يفور على ألسنتهم
من تن النفاق ، فاستأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه النبي
صلى الله عليه وسلم في قتل هؤلاء المنافقين فقال له الرسول
الكريم « أليس يظهرون شهادة ألا إله إلا الله وأني رسول الله »
قال عمر « بلى واسكن نعوذ من السيف فقد بان أمرهم وأبدى

الله تعالى أضغاثهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نهيت عن
قتل من أظهر ذلك ، وهكذا كانت سياسة الصراحة والملاينة
التي قضت على هذه الشرذمة وفي هذا يخاطب الله تعالى نبيه
الكريم بقوله فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنتم فظا
غليظ القول لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر
لهم وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمتم فتوكل على الله إن الله
يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن
يخذلكم فتن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل
المؤمنون ، آل عمران

ابن أبي وابنه بعد أن أصيب أما ابن أبي فقد اضطرب عليه
الأمر ، وتدافعت في قلبه أشتات النزعات من غرور وكبرياء
وضغن مستعر ، وحقد زادته الحوادث شدة ، وزاد في بلائه
أن ابنه وفلذة كبده عبد الله كان يؤمن بدعوة الإسلام إيماناً
صادقاً ، وكان والده يود أن يجد فيه عضده المتين وساعده
القوى ليعتمد عليه في تنفيذ رغباته ، وتديره . وقد أصيب
الابن في الموقعة ، وأثبتته الجراحة ، قرأى أبوه أن يوبخه لعله

يرجع عما يراه غياً ، وصار يشد عليه القول . وهنا يظهر الجمال من أدب الاسلام عن معاملة الوالدين : إذ سغه الابن رأى أبيه في أدب جميل حيث قال له ، الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير .

ابن أبي يحاول استعادة مركزه في صلاة الجمعة وحاول ابن أبي أن يستعيد مركزه وزعامته القبلية وخاصة أمام المسلمين ، فلم يبعد كثيراً عن الصفاقة - وكان له مقام يقومه في صلاة الجمعة ، أقام نفسه فيه فلم ينكره عليه أحد ، تألفاً لقلبه ، ودرءاً لشبهه ، وذلك بأن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس عند خطبة الجمعة ، يقصد بذلك أن يعلن للناس شرفه في قومه ورئاسته عليهم ، ويدخل الوم به على ذوى النفوس الضعيفة حتى لا ينسوا تلك الزعامة والرئاسة . فإذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لينخطب الناس قام ابن أبي فقال : أيها الناس : هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس . ولم تمنعه صفاقته أن يحاول ذلك عقب موقعة أحد ، وقام يفعل كما كان

ولكن المسلمين لم ينسوا له ما صنع وهو دته بالناس والاقوال
التي صدرت عنه ، فأخذوا بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس أي
عدو الله ، است لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج
يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكانما قلت بجرا (أمرأ
عظيما) أن قت أشدد أمره ، فلقيه رجل من الانصار بباب
المسجد فقال له : مالك ويلك ، قال ، قت أشدد أمره فوثب على
رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكانما قلت بجرا أن قت
أشدد أمره . قال : ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ، قال
: والله ما أبتغي أن يستغفر لي ،

في غزوة بني النضير

دور المنافقين في الغزوة حدثت هذه الغزوة في السنة الرابعة من الهجرة أي بعد سنة من موقعة أحد ، ولم يدخل المنافقون فيها دخولا فعليا ، ولم يحاولوا التجسس على المسلمين أو إيقاع الفتنة في عسكرهم ، ولكنهم مثلوا مهزلة سخيفة ، إن دلت على شيء فأنما تدل على اليأس وضيق الحيلة .

سب الغزوة سبق أن ذكرنا أن بني النضير كانوا إحدى قبائل اليهود الثلاث بالمدينة - وظلوا بعد إجلاء بني قينقاع يعيشون في ضاحيتهم بالمدينة التي كان يقال لها زهرة يتمتعون بظل وارف من الأمن والطمأنينة في كنف العهد الذي عقده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو أنهم أقاموا على العهد ولكن الحفيظة والكفر دفعهم إلى محاولة الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذهب إليهم في نفر قليل من الصحابة دون العشرة منهم أبو بكر وعمر وعلى ليتشاور معهم في دية رجلين من بني عامر حلفاء بني النضير قتلها أحد الصحابة خطأ

فلما عرض ذلك الأمر ، قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا ، إجلس تطعم وترجع بحاجتك ونقوم فقتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا به . فلما خلا بعضهم إلى بعض فطنوا لما كانوا في غفلة عنه ، ورأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا إلى جوار جدار من بيوتهم ، فقال بعضهم لبعض : دإنكم إن تجدوا الرجل على مثل هذه الحال منفردا ، فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ، فقال أحد ساداتهم ، وهو عمرو ابن جحاش ، د أنا لذلك . فاعترضهم سلام بن مشكم ، وكان من أبحارهم ، وقال : د لا تفعلوا ، لئن فعلتم فوالله ليخبرن بما همتم به ، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه ، يا قوم أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر ، وليكنهم لم يسمعوا له وصعد عمرو بن جحاش ليلقى الصخرة . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم فقام مظهرا أنه يقضى حاجته حتى لا يفطنوا له ، وحتى لا يؤذوا أصحابه ،

من ذلك ما رواه أبو جحاش عن أبي القاسم

ورجع مسرعاً إلى المدينة ثم عاد إليه أصحابه فأخبرهم بما أرادت
اليهود من الغدر ، وأرسل إليهم محمد بن مسلمة رضي الله عنه
« أن اخرجوا من بلدي فلا تسكنوني فيها وقد هممت بما هممت
من الغدر ، - وأخبرهم بما هموا - فسكتوا ولم يقولوا حرفاً قال :
« ويقول لكم قد أجلتكم عشراً فمن روى منكم بعد ذلك ضربت
عنقه ، فأوأبأدى الأمر أن يخضعوا ، ومكثوا أياماً يتجهزون
واكثروا من قبيلة بني أشجع إبلاً للرحيل عليها .

ما فعله ابن أبي علم ابن أبي ومن معه من المنافقين ذلك
فعر عليهم أن يتضاءل أعداء المسلمين يوماً بعد يوم ، فأرسل ابن
أبي وأربعة من رهطه من بني عمرو بن الحزرج وهم وديعة بن
ثابت ومالك بن أبي فوقل وسويد وداعس إلى بني النضير « أن
اثبتوا وتمنعوا ولا تخرجوا من دياركم فانا لن نسلمكم ، إن قوتلتم
قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، وأرسل إليهم ابن أبي
« ألا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم ، فان معي ألفين
من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصونكم ويموتون عن
آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من

غطفان
 أعجب هذا القول حي بن أخطب زعيم بني النضير ، وظن
 قول ابن أبي صيحان . والواقع أن ابن أبي أرسل إلى بني قريظة
 لمعاونة بني النضير فرفضوا خوفاً على أنفسهم من نقض العهد
 بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يقطع الأمل
 ولم يأبه للرفض ، وأرسل إلى بني النضير برسائله آملاً أن يحتال
 في نجدتهم ونجدة غطفان كما وهم بعض النجدة من الصعاليك
 الملتفين حوله من المنافقين ، وداخله الغرور في نفسه وفيمن
 حاول أن تتصل أسبابه بأسبابهم .

اغترار اليهود بارشاد المنافقين ما كادت هذه الرسائل تصل
 إلى مسامع حي بن أخطب حتى أعجبته وداخله الغرور ، ونسى
 أن الخزرج وعلى رأسها ابن أبي لم يكونوا يوماً من حلفائه ،
 وأن الدافع الذي دفع ابن أبي ومن معه إلى تلك الرسائل ، لم
 يكن عطفاً على بني النضير ولا حباً لهم ، وإنما هو الضغينة الكامنة
 في قلب ابن أبي للمسلمين . وكان الأقرب إلى حي أخطب —
 وهو سيد قومه الحصيف — أن يستوثق من وعود ابن أبي قبل

أن يعلن العصيان ، ولكن حصافته وعقله نضاً لا وتلاشياً في
نار الحفيظة والعداوة فعمى عن حسن التبصر وأعلن قومه أبغزمه
على العصيان . فاعترضه سلام بن مشكم أحد أجبازهم وقال له
« متيتك نفسك والله يا حيي الباطل ، فان قول ابن أبي ليس
شيء ، وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمداً
فيجلس في بيته ويتركك ، ألا ترى أنه أرسل إلى كعب بن أسد
القرظي سيد بني قريظة أن تمدكم بنوا قريظة فقال له لا ينقض
رجل واحد منا العهد ، فأيس من بني قريظة ، وأيضاً قدم وعد
حلفاءه من بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا
العهد وحصروا أنفسهم في صياصيمهم (حصونهم) وانتظروا
ابن أبي جحلاس في بيته وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه ،
فإذا كان ابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ،
ونحن لم نزل نضربه بسيفنا مع الأوس في حروبهم . ولكن
حيماً أجابه « نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله ، فقال له سلام

مائة بارزاً ، فماتت في ذلك اليوم مائة من بني قينقاع

« ففروا والله جلاؤنا من أرضنا وذهب أموالنا وشرفنا ونسبنا
 ذراريها مع قتل مقاتلينا ، ومع كل ما اتضح له من محبة رأى
 سلام بن مشكم فان حياً أبى إلا محاربة رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، وأعلن العصيان ، وتابعت على ذلك بنو النضير وقالوا له
 « أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك ، فأرسل إلى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم « إنا لن نخرج من ديارنا فافعل ما بدا لك ،
 فكبر رسول الله وقال « حاربت يهود ، وكبر المسلمون
 وتهيبوا للحرب . وذهب النبي صلى الله عليه وسلم بالجيش إلى
 ضاحيتهم فحاصروهم وتم له النصر ، وأخرجت بنو النضير من
 المدينة دون أن يحدوا نجدة من أى جهة برغم وعود ابن أبي
 الكاذبة ، واعتزلتهم قريظة ولم تعنهم ، كما اعتزلهم حلفاؤهم
 من غطفان .

الخلاف المنافقون لومودم وقد انتظرت بنو النضير طويلاً
 نجدة ابن أبي وصار هذا وقومه يرسلون إليهم في طلب
 الحرب ، أن ابتوا وتمنعوا ، وطال الانتظار في غير طائل .

وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا يقولان لحبي : « أين
نصر ابن أبي الذي زعمت ، فيقول « ما أصنع هي ملحمة كتبت
عليها . وقد أنزل الله تعالى في شأن هذه الغزوة سورة الحشر .
وفيها عن المنافقين قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا
يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أمر — إلى الكتاب لئن
أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن
قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم — لكاذبون — لئن
أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ،
ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون — لا أنتم أشد
رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ،
ويستفاد من هذه الغزوة أمران : الأول أن عبد الله
ابن أبي بعد أن كان عدواً لليهود بنى النصير وقريظة من وقت
يوم بعث وقبله لحلفهم مع الأوس إذا حاربوه ، انقلب في هذه

الموقعة وصار حليفاً لهم . ومعنى هذا أن حلفا انعقد بين عبد الله
ابن أبي وبين اليهود بعد إجلاله بني قينقاع . ولا بد أن ذلك
الحلف قد انعقد سرّاً لخالفته العهد الذي أبرمه يهود بني النضير
وغيرهم مع النبي صلى الله عليه وسلم أول مقامه بالمدينة ألا يحاربوه
ولا يظاهروا على المسلمين أحداً . ولا بد أن ذلك الحلف السرى
لم يكن إلا لانتهاز أى فرصة للإيقاع بالمسلمين ، ولقد حاولوا
ذلك في موقعة أحد فرد الله كيدهم إلى نحورهم .

سبب وعود ابن أبي والأمر الثانى هو البحث فى عقلية
ابن أبى ، فان ما فعله فى غزوة بنى النضير يدعونا إلى التشكك فى
أمر عقلية وإلا فما الذى حدا به إلى التغرير ببني النضير وهو
يعلم عجزه وضعفه . ثم ما الذى منعه أن يساعدهم ، كما وعد ،
بأى قدر ولو ضئيل ، والذى يقرب من الذهن أنه حاول جهده
أن يجمع الأوباش من محبيه وأشياعه فخافوا على أنفسهم وذرائعهم
وأوكتوا تحت أقدامهم رأى ابن أبى حتى لا ينكشف أمرهم
وهم يعلمون ألا قوة لهم على حرب المسلمين .

حزن المناقين على بني النضير وقد حزن المناقون وعلى
رأسهم ابن أبي أشد الحزن لانهم لم يبقوا في النضير والقضاء عليهم
ولا شك أن خروجهم من المدينة كان نصراً عظيماً للمسلمين ،
حيث تطهرت المدينة من ركن كبير كان مركزاً للفتن
والغلاقل وكان يعتمد عليه ابن أبي في إحداث ما توسوس به
نفسه من السكيد كل الاعتماد .

في غزوة الخندق

تخاذل المنافقين لم يستفد ابن أبي من وعوده لبني النضير التي لم يحاول أن يف بشيء منها إلا أن ضل في أعين أهل المدينة وحقر في نظر اليهود ، واستبان لهم أنه أصبح فارغا كالطبل الأجوف لا يستطيع أن يقوم بأى عمل . لذلك هرع نفر من يهود بني النضير وهم حي بن أخطب وسلام بن مشكم وانضم إليهم جماعة من بني وائل منهم هوذة بن قيس الوائلي إلى مكة واستنجدوا بقريش ومن حولها من القبائل كبنى سليم وبني مرة وغيرهم حتى جمعوا جيشاً من عشرة آلاف مقاتل قاموا يهيمون المدينة يزعمون أنهم بهذه الأحزاب يستأصلون المسلمين . فكان ذلك بلاء شديداً للمؤمنين ثبت في قلوبهم الإيمان ، وأظهر النفاق في قلوب المنافقين وإن كان ما أظهره في هذا الشأن لم يصل إلى أى عمل إيجابي وإنما قام دليلاً على ما وصل إليه المنافقون من الذلة والضعف والضعف .

سبب الفزوة ويان ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمع بما اجتمع عليه أمر الأحزاب من قريش وما حولها واليهود ضرب خندقاً حول المدينة . وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين وتشجيعاً لهم ، وأمرهم بالجد ، ووعدهم النصر إن هم صبروا وأمرهم بالطاعة ، وخط لكل عشرة من الناس عشرة أذرع يعملون فيها . أما المؤمنون المخلصون فقد دأبوا فيه وجدوا وصاروا يتنافسون في العمل سواء في ذلك المهاجرون والأنصار . وأما المنافقون الذين انحشروا في صفوف المسلمين فأبطأوا وتباطأوا في عملهم ، وجعلوا يعتذرون بالضعف ، ومن عمل منهم يعمل عملاً ضعيفاً ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذنه . وجعل الرجل من المسلمين إذا نأبته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذنه في اللحق بحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير واحتساباً له . فأنزل الله تعالى : **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ**

يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنوك أولئك
الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض
شأنهم فأذن إن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله
غفور رحيم « النور ٦٢ » ثم قال في حق المنافقين « لا تجملوا
دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله
الذين يتسلون منكم لو إذا ، فليحذر الذين يخالفون عن
أمره أن يصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » النور ٦٣

المنافقون يصدد بعض المعجزات وكان من معجزات النبي صلى
الله عليه وسلم في حفر الخندق ما روى عن البراء بن عازب
رضي الله عنه قال « عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ
فيها المعاول فاشتكيننا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فجاء وأخذ
المعول من سلمان رضي الله عنه فقال باسم الله ثم ضربها فنثر
ثلثها وخرج نور أضواء ما بين لابتى المدينة فقال الله أكبر أعطيت
مفتاح الشام والله إنني لأبصر قصورها الحمر الساعة من مكاني ،
ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر ففرقت برقة من جهة فارس »

أضياء ما بين لايتها فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس
والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن أي مدائن كسرى
وفي رواية إني لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى من مكاني
هذا وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا بالنصر
فسر المسلمون . ثم ضرب الثالثة وقال بسم الله فقطع بقية الحجر
وخرج نور فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني
لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة . عند ذلك قال جمع
من المنافقين منهم معتب بن قشير : ألا تعجبون من محمد ، يمنكم
ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن
كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق
(الخوف) لا تستطيعون أن تبرزوا ،

نقض يهود بني قريظة للعهد وعند ما وصلت قريش قريبا
من المدينة ، كان الخندق قد تم حفره ، وكان جيش المسلمين يبلغ
زهاء ثلاثة آلاف ، ولكن عدواً جديداً نشأ في ذلك الوقت
داخل المدينة ، قام على ألوية الغدر ونكث العهد : وذلك العدو
هو يهود بني قريظة ، إذ أنهم نقضوا في هذا الموقف فقطع عهدهم
الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ دخل

المدينة ، وإنما نقضوا العهد بسعى حيث وإلحاح شديد من حي
ابن أخطب النضري حيث حضر إلى كعب ابن أسد سيد بني
قريظة أثناء وجود الأحزاب حول المدينة ، وصار يمينه الأمان
الباطلة ، ويقتل له في الذروة والغارب إلى أن نقض العهد -
وكان ذلك من أخطر العمليات إذ أصبح المسلمون بين عدوين
عدوي طوق المدينة ليس بينه وبينها غير الخندق ، والآخر
يتغلغل في أحشائها ، وهو بهذا الوضع أقدر على الإيقاع
بالمسلمين .

سخرية المنافقين ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يبشر المسلمين ويثبتهم ويقول لهم حينما يرى ما بهم من
كرب « أبشروا بعون الله ونصره . إني لأرجو أن أطوف
بالبیت العتيق وأخذ المفتاح وإيها لکن كسرى وقيصر ولتنفق
أموالهما في سبيل الله ، هذا والمنافقون يستخرون من كل ذلك
ملء أشداقهم ويقولون ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا .

استعداد الخوف والبلاء وعظم البلاء على المسلمين ، واشتد
الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ، ومن أسفل منهم حتى ظن

المؤمنون كل ظن ، وزادت شره المنافقين وصار معتب بن قشير
يقول « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا
اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط ، وحتى قال منافق
آخر هو أوس بن قبظي ، من بني حارثة بن الحارث « يا رسول
الله وإن بيوتنا عورة « من العدو ، وذلك على ملاء من رجال
قومه ، فأذن لنا أن نخرج الى دارنا فانها خارج المدينة وقد نزل
في ذلك قوله تعالى « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم
مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا : وإذ قالت طائفة
منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق
منهم النبي : يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن
يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أفتارها
ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ،
والآيات التي تليها .

مدم ظهور ابن أبي في هذه الحوادث لم يظهر لابن أبي أي
شأن في هذه الموقعة ولم يرد له أي ذكر ، والظاهر أنه كان

في شغل وتدير يراقب نتيجة الاحزاب عن كسب ، و أثر الا
يظهر على مسرح الحوادث إلا اذا رأى الفرصة مواتية وتأكد
من نجاحها . ولكن حصار المدينة لم يطل أكثر من بضعة
وعشرين ليلة أي ما يقرب من شهر ثم أرسل الله تعالى ريحا
وجنودا عصفت بالاحزاب وشتت شملهم ، وأزاحتهم عن
المدينة ، وباء بنو قريظة بما كسبوا إذ حاصرهم المسلمون
واختاروا حكما حليفهم سعد بن معاذ رضي الله عنه وكانوا
يأملون أن ينقذهم كما أنقذ ابن أبي بني قينقاع ولكنه حكم
بقتلهم فقتلوا .

في غزوة بني المصطلق

دوران هجمات المنافقين فيها أصبح ابن أبي بعد

أن ينس من تديره ومكايده في الحرب ، وبعد اخراج اليهود
وتضائل أعداء المسلمين ، يمثل هو وأشياعه دور التابع الذليل
واكتفى من آماله ومآربه بالعمل في الظلام والتدخل هو
ومشايعوه في زمر المسلمين .

وقد لعب المنافقون في غزوة بني المصطلق دورين هامين
كان لهما أثر كبير وهزة شديدة كادت أن تؤدي الى الفتنة لولا
أن الله تعالى عصم المسلمين ومن عليهم ورد كيد المنافقين الى
محورهم وفضح أكاذيبهم . أما الدور الأول فهو بذر الفتنة بين
المهاجرين والانصار حتى كادوا أن يقتتلوا ومحاولة توسيع شقة
الخلاف بينهم لسبب تافه عارض . والدور الثاني اتهام السيدة

عائشة المبرأة الطاهرة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم إفا
وبهتاناً . وكان كلا الدورين بعد انتهاء الحرب وانتصار
المسلمين .

سب خروج المنافقين في الغزوة خرج المنافقون في هذه الغزوة
في كثرة لم يخرجوا قط في مثلها ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي
وزيد بن الصلت ، لا رغبة في الجهاد ، ولا طمعا في إدخال
الفشل على جيش المسلمين ، ولكنهم كانوا يوقنون بنصر المسلمين
ولم تكن المسافة بعيدة بين المدينة وماء المريسيع حيث كانت
جموع بني المصطلق ، فرأوا أن يخرجوا ليصيبوا من الغنائم
وعرض الدنيا ، وليتظاهروا بمظهر المؤمنين المخاضين . وقد
صدق ظنهم ، وأنعم الله على المؤمنين بالنصر . وفي أثناء العودة
حدث حادث تافه فاذا بعبد الله بن أبي والمنافقين يظهر
بمظهرهم الحقيقي ، فاندفعت أسنتهم تخرج من أفواههم حيث
النفاق والفتنة .

الدور الاول وكان من أمر ذلك أن أجيرين للمسلمين

اختصهما على الماء أحدهما من المهاجرين والثاني من الأنصار :
 الأول أجير لعمر بن الخطاب رضى الله عنه من بنى غفار يقال
 له (جهجاه بن مسعود) ، والثاني سنان بن وبر الجهمى حليف
 بنى عوف من الخزرج . وقد ازدحم الاثنان على الماء فاقتتلا
 فضرب الأول الثانى فمشجه وسال منه الدم ، فصاح الثانى
 يا للأنصار يا للخزرج وصاح الأول يا لكتبانة يا لقريش ،
 فأقبل جمع من الجيش وشهروا السلاح ، وكادت أن تكون
 فتنة عظيمة ، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصياح فخرج
 وسأل ما بال دعوى الجاهلية ، فأخبر الخبر أن رجلاً من
 المهاجرين ضرب رجلاً من الأنصار فقال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم دعوها فانها منتنة ، (أى دعوى الجاهلية وهى
 قولهم يا لفلان) ثم انحسم النزاع ، وترك المضروب حقه ،
 وسكنت الفتنة ، وانطفأت نائرة الحرب .

محاولة توسيع الخلاف بسبب تافه لم يترك عبد الله بن أبى
 هذا الحادث التافه أن يمر تافهاً كما يجب ، ولكنه أثار الحفيظة
 الكامنة فى قلبه ، والنفاق الغائر فى نفسه ، فما رأى المهاجرين

والانصار يتواثبون ويتدافعون ، ويرفع بعضهم لبعض السلاح
حتى انفلتت منه روابط الرياء ، وجعل يحاول استغلال ذلك
التدافع أوقع استغلال وأشنع ، ليؤلب المهاجرين والانصار
بعضهم على بعض ، لعل أن يكون في ذلك مفتاح لافساد الآلفة
والأخوة بينهم . فما أن علم بذلك الخلاف وعنده رهط من
قومه حتى غضب وقال « والله ما رأيت كاليوم مذلة ، أو قد
فعلوها ، نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب
قريش هذه (لقب من أسلم من المهاجرين لقبهم به المشركون
لأنهم كانوا يلتحفون بالأزر الغلاظ) إلا كما قال القائل ممن
كلبك يا كلك ، والله لقد ظننت أني سأموت قبل أن أسمع هاتفاً
يهتف بما سمعت ، والله لن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز
منها الأذل ، ثم أقبل على من حضر وقال « هذا ما فعلتم بأنفسكم
أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم
عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير بلادكم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم
حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه (يعني النبي صلى
الله عليه وسلم) فأيتهم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا

عليهم حتى ينفضوا من عند محمد . .
لغة خبيثة مشحونة بفتيل الفتنة كان من شأنها مع النعرة
القبلية الجاهلية أن يتضرم لهبها سعيراً فاتكا جارفاً ، وفاته أن
الايمن قضى على تلك النعرة ، وأرجع الأمور الى طوائعها ،
وردها الى نصائبها ولذلك لم يحدث ما أراد ابن أبي من
الفتنة ، وفاض نور النبوة وهدى الإيمان ، فاذا الفريقان
مؤتلقان .

زيد بن أرقم يروي أقوال ابن أبي كان من بين القوم الذين
أطلق ابن أبي لسانه أمامهم غلام صغير هو زيد بن أرقم رضى
الله عنه لم يحسب له القوم حساباً لصغر سنه . وكان الغلام
صادق الإيمان فلم يعجبه قول ابن أبي ، فذهب الى مجلس رسول
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده بعض المهاجرين والانصار
منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فذكر الغلام المقالة لعمر
فقلها عمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فدعاه الرسول وسأله الحديث
فأعاده عليه ، فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وتغير

وجهه ، ولم يرد أن يؤكد الخبر منماً للفتنة ، وقال لزيد : يا غلام
لعلك غضبت عليه قال والله يا رسول الله لقد سمعته منه قال
لعله أخطأ سمعك . وعند ذلك دلف اليه بعض الانصار وجعلوا
يعنفونه ويلومونه بقولهم اليه عمدت الى سيد قومك تقول عليه
ما لم يقل .

خرج الغلام وقد أصابه من الهم ما شدد عليه ، وجلس في
خبائه منكسراً حزيناً ، وجاء اليه عمه ليعنفه وقال له ما أردت
إلا أن كذبك رسول الله ومقتك . فقال زيد والله لقد سمعت
ما قال ولو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها لرسول الله صلى
الله عليه وسلم . واني أرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق
حديثي .

اعتذار ابن أبي وحلفه وذهب بعض الانصار الذين سمعوا
قول النبي صلى الله عليه وسلم ورده على الغلام الى عبد الله
ابن أبي وقالوا له يا أبا الحباب إن كنت قلت ما نقل عنك
فأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فليستغفر لك ، ولا تجحد
فيمنزل فيك ما يكذبك ، وإن كنت لم تقله فانت رسول الله

صلى الله عليه وسلم فاعتذر له واحلف له ما قلته خلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئاً . ثم مشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أرسل اليه ، فلما حضر عنده قال له : أنت صاحب الكلام الذى بلغنى عنك فقال والذى أنزل عليك الكتاب ما قلت من ذلك شيئاً وإن زيدا لكاذب . فقال بعض من حضر من الانصار يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل وقال البعض الآخر يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه كلام غلام .

فشو الحديث ولم يفته الحادث عند هذا الحد فقد شاعت مقالة ابن أبي النخبة وتناقلها الناس ، ولم يكن لهم حديث غيره . طول اليوم . والظاهر أنه سبب للنبي صلى الله عليه وسلم غير قليل من الألم ، فهو يعلم حقيقة ابن أبى وأن إسلامه لم يكن إلا نفاقاً وأنه زعيم المنافقين . ولم يشأ النبي عليه السلام أن يغير السياسة التى اتخذها معهم . وقد حضر اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد قليل فوجده فى شجرة عنده غليم أسود ثممر ظهره (أى يكبسه) فقال له يا رسول الله : كأنك تشكى

ظهر ك ، فقال : تفحمت بنى الناقة ، (أى القتلى) الليلة ، فقال له
 هم رضى الله عنه : يا رسول الله ائذن لى أن أضرب عنق ابن
 أبى ، أو إن كرهت أن يقتله مهاجرى فأمر به أنصارياً ، فقال
 له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ترعد له إذن أنف كثيرة
 يثرب ، ثم كيف اذا تحدث الناس بأبى محمد أ يقتل أصحابه
 ولاكن أذن بالرحيل ، وكان ذلك فى ساعة لم يكن يرتحل فيها
 لشدة الحر ، ولكنه أراد أن يشغل الناس بالرحيل والسفر عن
 كثرة القيل والقال .

عبد الله بن عبد الله ابن أبى يعرض على النبى أن يقتل أباه وقد فشا
 أيضاً ذلك الحديث ، فلما بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى مقالة
 عمر عن قتل أبيه جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال
 له : يا رسول الله قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى (يعنى
 والده) فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا فرنى أن أحمل لك
 رأسه فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى ،
 وإنى لاخشى يا رسول الله أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى
 نفسى أن أنظر الى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأدخل النار .

قطمأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : بل تترفق به
وتحسن صحبته ما بقي بين أظهرنا .

الامر بالرجل في ساعة منكورة وقد ارتحل الناس وساروا
امتثالاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند مسيرهم أتاه أسيد
ابن حضير سيد الأوس وحياء بتحية النبوة قائلاً : السلام
عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ثم قال له : يا نبي الله لقد
رحلت في ساعة منكورة ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول
الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ، فقال
: أي صاحب يا رسول الله ، قال : عبيد الله بن أبي بن سلول ،
قال : وما قال ، قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعر
ضها الأذل ، قال : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ،
هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال يا رسول الله إرفق به
فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه
فانه ليرى أنك استلبته ملكاً .

السيرة الحثيث ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم سيراً
حثيثاً ومطار يضرب راحلته بالسيوط في مراقبها (مأرق من جلد

أسفل البطن) وساروا يومهم ذلك حتى أمسوا وليلتهم حتى أصبحوا وصدر ذلك اليوم الثاني حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض وقعدوا نياماً — كل ذلك ليشتغل الناس بالسفر وشدته عن حديث ابن أبي .

نزول القرآن سورة المنافقين وعند اقترابهم من المدينة

أنزل الله تعالى سورة المنافقين ، وفيها تكذيب صريح لعبد الله ابن أبي وتصديق لزيد بن أرقم — قال زيد رضى الله عنه « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخذه البرحاء ويعرق جبينه الشريف وتثقل يدا راحلته فقلت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ؛ ورجوت أن ينزل الله تصديقي . فلما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بأذني ، وأنا على راحلتي يرفعها الى السماء حتى ارتفعت عن مقعدي وهو يقول وعت أذنك يا غلام وصدق الله حديثك وكذب المنافقين .

وقد بدأت السورة الكريمة بكشف بعض أفعال المنافقين من الكذب والجرأة على المؤمنين الكاذبة وأغروهم بأجسامهم

وأشكالهم وميئاتهم ، ثم أعادت طرفاً من أقوال ابن أبي مع
الرد عليها في سخريه لاذعة وحكم قاطع حاسم . يقول الله عز وجل
« وإذا رأيتمهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم
كانهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو
فاحذرهم ، قاتلهم الله ، أتى يؤفكون » الى أن قال « هم
الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا
ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون
يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل
ولله العزة ولرسوله والـمؤمنين ولكن المنافقين
لا يعلمون » .

معاينة قوم ابن أبي له وتغيفه ولما نزلت السورة صار قوم
عبد الله بن أبي يعاتبونه ويعنفونه ، ولما بلغ رسول الله صلى
الله عليه وسلم بغض قومه له ومعايبهم إياه ، قال لعمر « كيف
أمرى يا عمر إني والله لو أقتلته يوم قلت لأرعدت له أنوف لو

أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، فقال عمر رضى الله عنه : قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى ، ثم إن أصحاب ابن أبى من قومه من المسلمين شددوا عليه وقالوا له اذهب إلى رسول الله يستغفر لك فلوى رأسه وقال : أمرتمونى أن أومن فأمنت ، وأمرتمونى أن أعطى زكاة أموالى فأعطيت ، فما بقى إلا أن أسجد لمحمد ، وفى ذلك قال الله تعالى « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووارثوهم ورأيتمهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أاستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين »

عبد الله بن عبد الله ابن أبى يعترض أباه ولما وصل الجيش إلى وادى العقيق قريباً من المدينة تقدم عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول وجعل يتصفح الركاب حتى مر أبوه فاتناخ به ثم وطىء على يد راحلته ، فقال له أبوه : ويلك ما تريد يا لئع ، فقال : « والله لا تدخلها (يعنى المدينة) حتى تقرأ أنك الذليل وابن رسول الله هو العزيز ، وحتى يأذن لك رسول الله لتعلم الأعز

من الأذل : أنت أو رسول الله ، فقال له أبوه : أنت من بين
الناس ، قال : أنا من بين الناس ، فلم يجد مناصاً إلا أن يخضع
ويقر بمذلتة وصار يقول : لا أنا أذل من الصبيان ، لا أنا أذل
من النساء ، وظل محبوساً عن التقدم والمسير حتى وصل
الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إلى ابنه أن
خل عنه .

* * *

الحادث الثاني حديث الافك انتهى من الحادث الاول ، أما

الحادث الثاني فينحصر في تلفيق ابن أبي حديث الافك ، وهو
الكذب على السيدة عائشة الصديقة المبرأة الطاهرة رضى الله عنها
وانتهامها بالزنا ، وقد أدار ابن أبي هذا الحديث وتولى إشاعته
وأظهر في ذلك من المهارة الطائفة الدينية ما أحدث فتنة
كبيرة وسبب للنبي صلى الله عليه وسلم وزوجه المطهرة غير قليل
من الأذى .

سبب الحديث كانت السيدة عائشة رضى الله عنها مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق . ولما دنوا من المدينة في أوبتهم إليها من الغزوة أذن ليلة بالرحيل فذهبت بعيداً عن الجيش لقضاء حاجتها فلما عادت افتقدت عقداً لها فذهبت للبحث عنه حتى اذا عادت وجدت الراكب قد سار وأنهم حملوا هودجها على بعيرها الذى كانت تركبه وهم يحسبون أنها فيه لحفة وزنها ، فظلت في مكانها وذهبت في النوم فوجدها أحد الصحابة واسمه صفوان ابن معطل السلمي وكان متأخراً عن الجيش فظل يسترجع (بقول إنا لله وإنا إليه راجعون) الى أن استيقظت فأناخ لها بعيره وركبت حتى اذا كانوا عند دخول المدينة مرت على جماعة من المنافقين يتباعدون من الناس وفيهم ابن أبي فلان رآها قال « من هذه » قالوا « عائشة » قال « ومن هذا » قالوا « صفوان » فقال « فجر بها ورب الكعبة ، مانجا منها ولا نجت منه » ، وصار يقول « امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت . وذهبت به العداوة الكامنة في قلبه أن أشاع ذلك في المدينة بعد دخولهم ، وصار يدفع بعض أعدائه فيحدث عنده بحديث الافك فيقره

ويستمعه ويستوشيه ويستخرجه بالبحث عنه لتكثر اشاعته ،
وأدار ذلك بمهارة فائقة ملؤها اللؤم ، حتى استدرج اليه بعض
المستضعفين وحتى انزل الى روايته بعض المسلمين مثل مسطح
ابن اثانة وحمنة بنت جحش . وظلت الاشاعة تدور من لسان
الى لسان حتى صارت مدار الحديث بالمدينة . وزاد الامر أن
مرضت السيدة عائشة بالحمل مرضاً شديداً عقب عودتها الى المدينة
أقعدتها أكثر من شهر وهي لا تعلم شيئاً من الحديث الذي
يدور حولها حتى برأها الله تعالى بما أنزل من القرآن عن هذا
الآفة .

ابن أبي يتولى الحديث عقب الحادث الاول ومن أروع الامر
أن يحدث ابن أبي هذه الفتنة عقب فضيحته في الحادث الاول .
فما زجره ما نزل فيه من القرآن ولا تعنيف قومه له ولا ثبوت
الكذب عليه . ولعله استفاد من حجب ابنه له من دخول المدينة
حتى أذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأخر بذلك عن
الركب فتمكن من رؤية السيدة عائشة رضي الله عنها ، فوجد
في ذلك فرصة تتفق مع طبيعته التي لم تمنعه من قبل ان يشتغل

قواداً للبغايا ، فتلقفها واستغلها وأشعلها فتنة طاغية لعلها كانت من أشد ما قام به من الفتن . وقد أدخلت هذه الفتنة آلاماً كثيرة للنبي صلى الله عليه وسلم وزوجه . وقد قصت السيدة عائشة رضى الله عنها هذه القصة بأسلوبها المحكم وبما صاحبها من ظروف ، في تصوير شديد الدقة والروعة . ولذلك نوردها كما وردت في كتب السيرة .

قصة الافك على لسان السيدة عائشة رضى الله عنها قالت عائشة

رضى عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزل الحجاب فأنا أحمل في هودجى وأنزل فيه ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وجه قافلاً حتى إذا دنونا من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل ، ثم أذن في الناس بالرحيل ، فقممت لبعض حاجتى حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى ، فاذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع وانسل من عنق ولا أدرى ، فرجعت فلمست عقدى فى المحل الذى قضيت فيه حاجتى ، وحبسنى التماسه حتى وجدته ، وجاء القوم خلافاً ، الذين كانوا يرحلون لى

البعير ، فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب
وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع فشده على البعير ولم يشكوا
أنى فيه ، وكنت جارية حديثة السن ، وكان النساء إذ ذاك خفافا
إنما يأكلن العلق ، لم يهجن اللحم فيثقلن ، وانطلقوا بالبعير
فرجعت الى العسكر وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطاق الناس ،
فتلففت بجلبابى ، ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت أن لو قد
افتقدت لرجع إلى ، فأنى لمضطجعة وقد غلبتنى عينى فممت ، وكان
صفوان بن المعطل السلى قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته
فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى ، فأقبل ووقف على ، فعرفتى
حين رآنى . وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب ، وقال
إنا لله وإنا إليه راجعون ، فاستيقظت باسترجاعه ، فخمرت
وجهى بجلبابى ، قال ما خلفك يرحمك الله ، فما كلمته ، ثم أناخ
ناقته فوطئ على يدها فركبتها ، واستأخر عنى ، فانطاق يقودنى
الراحلة حتى أتينا الجيش فى نحر الظهيرة وهم نزول ، فلما نزلنا
هلك من هلك بقول البهتان والافتراء ، والذى تولى كبره عبد الله
ابن أبى بن سلول ، وكان أول من أشاع ذلك فارتعج (اضطرب
وتحرك) العسكر ووالله ما أعلم بشيء من ذلك ، ثم قدمنا المدينة

فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولا يبلغني من ذلك شيء
والناس يفيضون في قول أصحاب الآفك . وانتهى الحديث إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبوي ، لا يذكر لي منه
قليلا ولا كثيرا ، إلا أنه كان يريني في وجعي أني لا أجد من
رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى فيه حين
أشتكي ، وكنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي ، فلم يفعل بي
ذلك في شكواي تلك ، إنما كان يدخل علي فيسلم وعندي أمي
تمرصني ثم يقول كيف تبيكم لا يزيد علي ذلك ثم ينصرف ، فذلك
الذي يريني ، حتى خرجت بعد ما نقيت ، فخرجت معي أم مسطح
(اسمها سلمى بنت رهم بن المطلب بن عبد مناف وأما بنت صخر
بن عامر خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه) قبل المناصع وكانت
متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ
الكهف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب في البرية ، فانطلقت
أنا وأم مسطح ، فلما فرغنا من شأننا وأقبلنا عثرت أم مسطح في
مرعها ووقع السطل فقالت تعس مسطح فقالت لها بئس ما قلت
تلك الدنيا . والله حسنة ، إنك لن تجدي ، م ٨

أتسبين رجلا شهد بدرآ ، قالت يا هنتاه ! أو لم تسمعي ما قال ،
قلت وما قال . فأخبرتني بقول أهل الألفك ، فازددت مرضا على
مرضى ، وأخذتني حمى نافضة ، فلما رجعت إلى بيتي مكثت تلك
الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم
أصبحت أبكى ، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال
بعد أن سلم ، كيف تيسمكم ، فقلت له يا رسول الله لو أذنت لي
فانتقلت إلى أمي فرضدني ، وأنا أريد أن تثبت الخبر من قبل أبوي
(لأن أمها كانت فارقتها لما فقحت من المرض وذهبت إلى بيتها)
فقال لي لا عليك ، فبحثت أبوي وأرسل معي الغلام فدخلت الدار
فوجدت أم رومان في السفلى وأبا بكر فوق يقرأ فقالت أمي .
ما جاء بك . فقلت لأمي يغفر الله لك تحدث الناس بما تحدثوا
لا تذكريني لي من ذلك شيئا ، قالت أي بنية خفضي عليك الشأن
فوالله لقلبا كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر
إلا كثرن وكثر الناس عليها ، فقلت سبحان الله ، ولقد تحدث
الناس بهذا ، قالت نعم . قلت ورسول الله ؛ قالت نعم ، فاستعبرت
وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتي فنزل فقال لأمي ما شأنها فقالت
بلغها الذي ذكر من شأنها ، ففاضت عيناه . فبكيت تلك الليلة

حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحللت بنوم في هذه الليلة
كذلك . ولما أصبحت أصبح أبوأي عندي يظنان أن البكاء قالق
كبدي . فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي وهما يبكيان وأهل
الدار ييكون فاستأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست
تبكي ، فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فسلم ثم جلس ، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل ، وقد
لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً لا يوحى إليه في شأني
فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس وحمد الله وأثنى
عليه ثم قال . أما بعد يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس
فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت قارفت سوءاً مما يقول
الناس فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم
تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه . فلما قضى رسول الله صلى الله
عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه بقطرة وانتظرت
أبوأي أن يجيئني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يتكلم ،
فقلت لأبي أجب رسول الله عني ، قال فوالله ما أدرى ما أقول
لرسول الله . فقلت لأبي أجيب رسول الله عني ، فقالت ما أدرى
ما أقول لرسول الله . فقلت وكنت جارية حديثة السن لا أقرأ

من القرآن كثيراً . لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في نفوسكم
فلئن قلت لكم إني بريئة — والله يعلم أنني بريئة — لاتصدقوني
بذلك ، ولئن اعترفت بأمر — والله يعلم أنني منه بريئة —
لاتصدقني ، فوالله لا أجد لي ولكم إلا قول أبي يوسف عليهما
السلام — والتست اسم يعقوب فلم أقدر عليه — إذ يقول :
فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، ثم تحولت فاضطجعت
على فراشي . فوالله ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجلسه
ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي ، وأنا أعلم
أنني بريئة وأن الله مبرئي ، ولكن والله ما ظننت أن الله تعالى
ينزل في شأني وحيًا يتلى ، وإيم الله لشأني في نفسي كان أحقر من
أن ينزل الله فيه قرآنًا يقرأ به في المساجد ويصلى به ، ولكني
قد كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا
في النوم يبرئني الله بها . وعند ذلك قال أبو بكر رضي الله عنه ،
ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل علي ، والله
ما قيل لنا هذا في الجاهلية حيث لا يعبد الله ، فيقال لنا في الإسلام ،
وأقبل علي عائشة مغضبا — فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما كان يأخذه عند نزول الوحي من البرحاء ، حتى إنه ليتحدّر

منه العرق من الحمان ، فسجى بثوبة ، ووضعت له وسادة من آدم
تحت رأسه . قالت عائشة رضى الله عنها : فأما أنا حين رأيت من
ذلك ما رأيت ، فوالله ما فرغت لاني عرفت أنى بريئة وأن الله
تعالى غير ظالمى . وأما أبو اى فوالذى نفس عائشة بيده ماسرى
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت ائتخرجن أنفسهما
فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس ، فلما سرى عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم سرى عنه وهو يضحك ، وإنه
ليتحد من العرق كالحمان ، فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم
فكان أول كلمة تكلم بها : يا عائشة أما إن الله قد برأك فقالت
أى قولى إليه . فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله .
وتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم درعى فقلت بيده هكذا
أى أدفع يده عن درعى ، فأخذ أبو بكر النعل ليعالونى به ، فمنعته
فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : أقسمت عليك
لا تفعل . وأنزل الله تعالى : **وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ**
عَصِيَّةٌ مِنْكُمْ لَا تُحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِى تَوَلَّى

كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون
والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إنك مبين - لولا
جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذلم يأتوا بالشهداء فأولئك عند
الله هم الكاذبون - ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا
والآخرة لاسلككم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم - إذ تلقونه
بالاستنكهم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ،
وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم - ولولا إذ سمعتموه
قاتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم
يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين -
ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ،

الفترة بين حديث الافك وآيات البراءة وظاهر أن الفترة التي

مرت بين أقوال أصحاب الافك وآيات البراءة كانت فترة شديدة
على المسلمين ، اندلعت فيها السنة ملتظية من نيران الفتنة وأذت
النبي صلى الله عليه وسلم حتى لقد استشار بعض أصحابه ، وحتى

استعذر من عبد الله بن أبي ، فلم تؤد الاستشارة إلى نتيجة ،
وكاد الاستعذار أن يتغلب إلى إثارة الفتنة والخلاف بين
الأوس والخزرج .

الاستشارة فأما استشارته صلى الله عليه وسلم فكان من
أمرها أنه استشار أولا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فقال له
عمر « من زوجها لك يا رسول الله » قال « الله تعالى » قال
« أفأظن أن الله قد دلس عليك فيها » سبحانك هذا بهتان
عظيم ، ثم دعا على بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضوان الله
عليهما ليستأمرهما فى فراق أهله ، فأما أسامة فقال « أهلك
يا رسول الله ولا نعلم إلا خيرا وهذا الكذب والباطل » وأما
على فإنه قال « يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، إن النساء
لكثير ، وإنك لتقادر على أن تستخلف ، وأن تسأل الجارية .
تصدقك ، يعنى بذلك بريرة رضى الله عنها لأنها كانت تخدم عائشة
فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة ليسألها . قالت عائشة
فقام إليها على بن أبي طالب فضربها ضرباً شديداً ويقول أصدق
رسول الله ، وسألتها النبي صلى الله عليه وسلم : أى بريرة هل
رأيت من شيء يريك » قالت بريرة « والذي بعثك بالحق

ما رأيت عليها أمراً أغمضه أكثر من أنها جارية حديثة السن
تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق ذلك يسأل زينب
بنت جحش أم المؤمنين ، وهي التي كانت تسامى عائشة في المنزلة
والحبة والجمال ، عن أمرها : قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم
« ماذا علمت أو رأيت » فتقول « يا رسول الله : أحس سمعي
وبصري ، ما علمت إلا خيراً . والله ما أكملها وإنى لمهاجرتها ،
وما أقول إلا الحق ،

الاستعداد وأما الاستعداد ، فإن رسول الله صلى الله
عليه وسلم لما طال أمر الاتهام وقبل أن تنزل آيات البراءة ، قام
في الناس فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس : من
يعذرني أن ينصفني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله
ما علمت على أهلي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه
إلا خيراً ، ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وأنا حاضر ، ولا غبت
في سفر إلا غاب معي ، يقولون عليه غير الحق . فقام سعيد
الأوس بن معاذ وقال « يا رسول الله إن كان من الأوس

ضربت عنقه ، وإن كان من اخواننا الخزرج فمرنا بأمرك ،
 فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم ، . فقام سعد بن عباد
 سيد الخزرج ، وقد أجهلته الحية ، فقال له : كذبت ، لعمر الله .
 لا تقتله ولا تقدر على قتله ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك
 عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ،
 فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن
 عباد : كذبت لعمر الله : لنقتله وأنفك راغم ، وإيكنك
 منافق تجادل عن المنافقين ، فثار الحيان الأوس والخزرج
 وتساوروا (قام بعضهم الى بعض) حتى هموا أن يقتلوا ، لأنه
 كان بين الحيين قبل الاسلام ما هو معروف من المشاحنة
 والمحاربة والمنافسة ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يخفضهم حتى سكنوا .

اعرض ابن أبي من الحديث — ذكر من اتزاق اليه انتهى الحادث
 الثاني وهو قصة الافك ، ولعلها أروع ما قام به ابن أبي من
 الفتن ، لم يرع فيها حرمة ولا خلقاً ، وأخذ من فنون النشفيق
 والقذف أحطها وأذلها — وقد أراد أن يلوث عرض النبي

صلى الله عليه وسلم بهذه الشبهة الخبيثة المجرمة والناس بطبائعهم
يميلون الى تصديق أمثال هذا القذف ولا يابسون لتحقيقه ،
وإن أرادوا تحقيقه عجزوا ، فترك المسألة بين الاستفهام
والشك مريضة تدخل الى القلوب الضعيفة ، وقد أراد ابن أبي
ذلك وعناه عنابة واضحة - ومع كل لم ينزلق إلى الافك إلا عدد
ضئيل جداً ، وبقي المؤمنون على ثباتهم موقنين بالكذب هازئين
بملك المفتريات - هذه امرأة أبي أيوب خالد بن زيد رضى الله
عنهما تسأل زوجها أبا أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس في
عائشة ، قال : بلى وذلك الكذب : أكنت يا أم أيوب فاعلة ،
قالت : لا والله ما كنت لأفعله ، قال دفعايسة والله خير منك ،
ومع ذلك لم يعاقب رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبي
على فعلته ، وتركه يأكل الحقد والضغن والكفر قلبه وقلوب
المؤمنين تفر منه ، والحزى والحذلان يحوطانه ، ونور الله إلى
تمامه ، والله متم نوره .

بعد غزوة بني المصطلق الى غزوة تبوك

ضعف المنافقين توالى الاحداث والغزوات بعد غزوة بني المصطلق ، وكان النصر فيها للمسلمين . وانكش المنافقون وعلى رأسهم ابن أبي الاما كان في من سيرهم الاخرى في حياة السلم ، والا أحداث فردية تافهة أثبتوا فيها روح الضعف والتبعية بشكل كان يتضاعف كلما مرت الايام . ومن ذلك بعض حوادث صغيرة حدثت يوم الحديبية وفي غزوة خيبر .

في صلح الحديبية أما في صلح الحديبية فقد ورد أن عبد الله ابن أبي والجد بن قيس كانا من الذين حضروا من المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين الحج فآزمت قريش أن تمنعهم من دخول مكة وتجمعت للحرب . ثم تصالحوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعود عامه ذلك الى المدينة على أن يحضر في عامه القابل - وفي أثناء وجود النبي صلى الله

عليه وسلم بالحديبية وقبل التصالح بعثت قريش الى عبد الله بن
أبي إن أحبيت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل فقال له ابنه
عبد الله يا أبت أذكرك الله ألا تفضحننا في كل موطن ؛ تطوف
ولم يطف رسول الله ؟ ، فأبى حينئذ وقال لا أطوف حتى يطوف
رسول الله .

ولنا أن تتسامل عن السبب الذي حدا بقريش أن ترسل
إليه هذه الرسالة إلا أن تكون جامعة الكفر قد لفقت بين
قلوبهم وأن المشركين من قريش كانوا يعجبون بأعمال النفاق
التي كان يدبرها . ولكنه لم يجب دعوة قريش لا حباً للمسلمين
ولكن روح التبعية كانت قد أخذت من نفسه ولم تكن له
فائدة في الخروج على قومه في غير بلاده ، ولذلك لم يمتنع عن
قول السوء عند ما وجد الفرصة . من ذلك أنه حدث أن أصابهم
مطر في الحديبية لم يبلغ أسفل نعالهم ليلاً فقال ابن أبي هذا
نوء الخريف ، مطرنا بالشعري ، فنادى منادى رسول الله صلى
الله عليه وسلم أن صلوا في رحالكم ، وقال بعد أن صلى بهم
أتدرون ما قال ربكم ، قالوا الله ورسوله أعلم ، قال وقال

الله عز وجل : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر : فأما من قال
مطرنا برحمة من الله وفضله فهو مؤمن بالله وكافر
بالكواكب . ومن قال مطرنا بنوء كذا فهو مؤمن بالكواكب
كافر بى . (٥)

الشكوى من فلة الماء وما تم فى ذلك وشكا المسلمون قلة

الماء فى الحديدية ، وهى إذ ذاك فلاة قاحلة ليس بها إلا بئر قد
جف ماؤها ونضب إلا قليل من الماء يتربضه الناس تربضاً ، ثم
لم يلبث حتى نزحوه . فلما بلغ الشكوى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وكان الحر شديداً ، دعا ناجية بن الأعجم ودفع إليه
سهما من كسائته ودعا بدلو من ماء البئر فتوضأ ومضمض ثم مچ
الماء فى الدلو ، ثم قال له انزل بالدلو فى البئر وأثر ماءها بالسهم ،
ففعل وفار الماء كما يفور القدر حتى طمت واستوت بشفيرها ،

(*) هذا عند الشافعية مكروه لا حرام لأن المراد بالإيمان شكر نعمة الله
حيث نسبها إلى الله والكفر كفران النعمة حيث نسبها لغيره . فان اعتقد أن
النجم هو الفاعل كان الكفر فيه على حقيقته والأول إنما ينهى عنه لأنه كاف
من أشر الجاهلية . والافهنا التركيب لا يقتضى أن يكون نوء كذا فاعلاً ومن
ثم لو قال مطرنا فى نوء كذا وكذا أى فى وقت نوء كذا لم يكره .

ومصار المسلمون يغترفون من جوانبها حتى نهلوا عن آخرهم -
وقد كان ذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم - وكان على البئر
نفر من المنافقين منهم عبد الله بن أبي بن سلول فقال له أوس
ابن خولى رضى الله عنه «ويحك يا أبا الحباب ، ما آن لك أن
تبصر ما أنت عليه ، أبعد هذا شيء ؟ » فقال «إني رأيت مثل
هذا ، فقال له أوس بن خولى رضى الله عنه «ويحك الله وقبح
رأيتك ، ثم أقبل عبد الله بن أبي الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال له رسول الله «يا أبا الحباب انى رأيت مثل ما رأيت
اليوم » قال « ما رأيت مثله قط ، قال « فلم قلت ما قلت ،
فقل « يا رسول الله استغفر لى ، وقال ابنه عبد الله « يا رسول
الله استغفر له ،

الجد بن قيس في الحديث وقد كان ضمن المنافقين في الحديث
الجد بن قيس وقد روى عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه
أنه قال « بينما نحن جلوس قائلون إذ نادى منادى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو عمر بن الخطاب « البيعة البيعة نزل
روح القدس فاخرجوا على اسم الله فسرنا الى رسول الله وهو
تحت شجرة فبايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار وأنه إما الفتح

وإما الشهادة ولم يتخلف منا أحد إلا الجند بن قيس ، قال
لكنني أنظر إليه لاصقاً بأبط ناقتة يستتر بها من الناس ،
وكان يرمى بالنفاق وسيأتي أخبار له متصلة في غزوة تبوك .

النافقون في خيبر وأما دور المنافقين في غزوة خيبر ، فلم
يزد على حادث تافه هو أن عبد الله بن أبي لمّا علم عزم النبي
صلى الله عليه وسلم على غزو خيبر أرسل إلى يهودها يخبرهم أن
محمدًا سائر إليكم فخذوا حذركم ، وأدخلوا أموالكم حصونكم ،
وأخرجوا إلى قتاله ، ولا تخافوا منه ، إن عددكم كثير ، وقوم محمد
شرذمة قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قليل ، فكانوا يخرجون
كل يوم ويصطفون صفوفا ويقولون « محمد يغزونا هيئات
هيئات ، فلما كانت الليلة التي نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم
صبيحتها بمساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ، ولم يصح لهم ذلك
حتى طلعت الشمس ، فقاموا من نومهم وأفتدتهم تخفق ، وفتحوا
حصونهم وغدوا إلى أعمالهم ومعهم الفؤوس والمسامي والمكاتل
(القفف) فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوا هاربين
إلى آخر ما تم في حربهم .

هدم تأثر المنافقين بفتح المسلمين وينتج من هذا أن ابن أبي
 أتعب نفسه في غير طائل ومع ذلك فلم يكن ليتنبه هو
 وأشياعه المنافقون إلى الوقائع المادية وفتوح المسلمين الناجحة
 فقد فتح الله للمسلمين مكة ودانت للنبي صلى الله عليه وسلم قريش
 وثقيف وهوأزن بعد عداوتها وشدتها وغلظتها ، فلما وعد أمته
 ملك فارس والروم عاد المنافقون إلى التهمك والسخرية وشاركهم
 اليهود وصاروا يقولون هيهات هيهات من أين لمحمد ملك
 فارس والروم ، وهم أعز وأمنع من ذلك ، فنزل في ذلك قول
 الله تعالى « قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ،
 وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من
 تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير . توأج الليل
 في النهار ، وتوأج النهار في الليل ، ومنخرج الحي من الميت
 ومنخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب .
 (سجدة)

في غزوة تبوك

بمميزات الغزوة - وسورة براءة - امتازت غزوة تبوك بأنها
قضت القضاء الاخير على المنافقين وفضحت أعمالهم واكاذيبهم .
وكشفت عن أسرارهم ، وأوقفتهم مواقف الخزي والخذلان ،
كذلك امتازت بما نزل عنها من القرآن ، ولقد نزل في ذلك
سورة براءة وهي على طولها - حيث تقع في جزء من ثلاثين
جزءاً من القرآن - قد نزلت إلا آيات قليلة في شأن المنافقين في
هذه الغزوة ، ولذلك سميت بالسورة الفاضحة والمبعثرة والخافرة
قال سعيد بن جبيرة سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن
سورة براءة قال تلك الفاضحة ، ما زال ينزل ومنهم ومنهم حتى
خفنا ألا تدع أحداً (*) ،

(*) قال الزمخشري في الكشاف أن سورة براءة لها عدة أسماء براءة
والترية والمفشقة والمبعثرة والمشرقة والخزبة والفاضحة والمثيرة والخافرة
والملكاة والمدممة وسورة المذابح . وقال ابن السبب في ذلك هو أن فيها
التوبة على المؤمنين وأنها تكشف عن النفاق أي تبرئ منه وتبعثر عن أسرار
المنافقين وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتكلم بهم وتشردهم
وتخزيهم وتقدم عليهم .

وما تبعها من السور التي فيها بيان

فيها

المنافقون في سورة براءة ويحسن لمن يريد أن يتفهم أمره

المنافقين بصفة عامة ، وفي هذه الغزوة بصفة خاصة ، أن يمعن في تلاوة هذه السورة ويكرر تلاوتها ، ففيها كنوز لا حصر لها من السياسة والحزم ودربة الحكم وكرم المعاملة ، وفيها كشف واسع لطباع اللؤم والخداع والحقد والحسد والصفقة ، وفيها تحذير ووعد وقوة كأروع ما يكون التحدي وأشد ما يكون الوعد والقوة ، وفيها سخرية لاذعة بالنفاق وأهله وشدة لآزر المسلمين ، وفيها عتاب وتوبة لقليل من المؤمنين آثروا الدعة ولازموا الصدق ، وفيها غير ذلك معين لا ينضب من بدائع الاجتماع وروحه وروائع النفس الانسانية . ولعل ذلك راجع الى أن هذه الغزوة كانت آخر غزوات الرسول الكريم وقبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، فاقترضت حكمة الباري جل شأنه أن تكون مرجعاً ومجماً لما يحتاج اليه الناس في هذه الشئون .

الامر بالغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة أمر

النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه للتهيب لغزو الروم ، وكان ذلك الوقت صائفاً شديداً الحر ، فكان عسيراً على النفس أن تترك مقامها ودعتها ، وحين طاب لها الظل والتمر ، لتشخص للصحراء القاحلة والجذب المعدم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلباً يخرج في غزوة إلا كفى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يقصده إلا ما كان من أمر هذه الغزوة فإنه بينها للناس لبعده المشقة وشدة الزمان وكثرة العدو حتى يتأهبوا لذلك أهبطه ، فأمرهم بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم ، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب ليستنصرهم وحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله .

كانت هذه الظروف القاسية محكا شديداً للإيمان وقوته ، فالإيمان الثابت القوى لا يعبأ بالمتاعب مهما شقت أن يخوضها في سبيل الله وبصحبة رسوله الكريم وتحت قيادته . ولذلك بادر أهل الثراء من المؤمنين بتقديم أنفسهم وأموالهم فأنفق عثمان ابن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، وأحضر أبو بكر جميع ماله وكان أربعة آلاف درهم ، وأحضر عمر بن الخطاب

نصف ماله ، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من الذهب ،
وجاء العباس بمال كثير وكذلك طلحة ، وجاء عاصم بن عدى
بسبعين وسقاً من التمر رضوان الله عليهم أجمعين - وبعث نساء
المؤمنين بكل ما قدرن عليه من حلين .

التناقل الاول وقد أخذ بعض الناس في أول الأمر شيء من
التناقل والتباطى فوبخهم الله تعالى وعاب عليهم إيثارة الدنيا على
الآخرة حيث أنزل : يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم
انفروا في سبيل الله أنافلتم إلى الأرض أرضيتكم بالحياة
الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل .
إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا
تصرفوه شيئاً والله على كل شيء قدير . إلا تنصروه فقد
نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار
إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . . .
(سورة براءة الآيات من ٣٨ وما بعدها) وقد كانت هذه الآيات

حافظ ألهب النفوس العامة بالايمان فذهب عنها ما كان قد ألم
بها من الحرص على الدنيا والتناقل عن القتال . وحرص جميع
القادرين على السفر والجهاد لينضموا الى جيش الرسول الله صلى
الله عليه وسلم ، واشتدت درجة الحرص الى أن سبعة من
الانصار كانوا أهل حاجة وفقر ذهبوا الى النبي صلى الله عليه وسلم
يسألونه أن يضمهم الى الجيش ويجد لهم ما يحملهم عليه ، فلم يوجد
لهم ورجعوا باكين . وقد قبل الله عذرهم كما قبل عذر الضعفاء
 والمرضى وأنزل في ذلك قوله تعالى « ليس على الضعفاء ولا
على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا
نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور
رحيم . ولا على الذين اذا ما أنوك لتحملهم قلت لا أجد
ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا
ألا يجدوا ما ينفقون » (سورة براءة الآية ٩١ وما بعدها)
وفي شأنهم روى أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه ، قالوا : يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : حبسهم العذر ، (٥) .

تفسير الأعداء كان طبيعياً أن ينكشف أمر المنافقين في وسط هذا التنافس الشديد ، فما لهم ولهذا الحر القاتل وقلوبهم

(*) هؤلاء السبعة هم : (١) سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف (٢) علي بن زيد من بني حارثة (٣) أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بني مازن بن النجار (٤) عمرو بن حاتم بن الجموح من بني سلمة (٥) عبد الله بن مغفل الزني (٦) هرم بن عبد الله من بني واقف (٧) مريض بن سارية الغزاوي . وقد لقب هؤلاء بالكائنين . وقد روى أن يامين بن عمير بن كعب البصري لقي أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل بيكيان فساءلها ما يبيكما قالاجئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعملنا فلم نجد عنده ما يعملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه ، فأعطاهما جملاً له كان يستقى عليه الماء فارتعلاه وزودهما شيئاً من تمر ، فخرجا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد روى أيضاً أن العباس رضي الله عنه حل منهم اثنين آخرين .

خاوية من الايمان بالله ورسوله . ولذلك لم يكن لديهم بد أن يتخلفوا ، وصاروا يتصيدون الاعذار السخيفة والعلل الواهية هم عملوا على تثبيط همم المؤمنين .

التخلف أما التخلف فحسبنا ما ورد عن ذلك من الآيات في سورة براءة - وقد ورد عنه الشيء الكثير - من ذلك قوله تعالى (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيخلفون بالله لو استطعنا اخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم - لم انهم لكاذبون) (الآيه ٤٢ وما بعدها) (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون . فان رجعت الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن نخرجوا معي أبداً ، ولن

تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا
 مع الخالفين) (الاية ٨١ وما بعدها) وفي هذه السورة عدد
 كبير من آي الذكر الحكيم تصور ما كان عليه المنافقون في
 هذا التخلف من الصفاقة وسوء التدبير رغم الزجر الشديد
 الذي كان حتماً على القلوب الغافلة أن تستيقظ من سباتها
 لولا ما ذكره الباري جل وعلا أنه طبع على قلوبهم فهم
 لا يعلمون.

بعض أعذار التخلف ومن تلك الأعذار السخيفة أن الجند
 ابن قيس من بني سلمة حضر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم
 وهو في جهازه لهذه الغزوة فقال له الرسول الكريم «يا جند
 هل لك العام في جلد بني الأصفر» (يعني الروم) فقال «يا رسول
 الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل
 أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر
 ألا أصبر، ولكن أعينك بمالي، فأعرض عنه رسول الله صلى
 الله عليه وسلم وقال «قد أذنت لك، ولما علم ابنه قوله ذلك

لام آياه وقال له : « والله ما يمنعك إلا النفاق وسينزل الله فيك
قرآنًا ، فأخذ نعله وضرب به وجهه . فأنزل الله في شأنه ذلك :
« ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ، ألا في الفتنة سقطوا
وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ... » سورة براء: الآية ٤٩ وما بعدها
ولما نزلت الآية قال له ابنه « ألم أقل لك » فقال له أبوه :
« اسكت يا لسكع لأنك أشد على من محمد » والحق الواضح أن
النفاق كان ولا يزال ينزل بصاحبه الى أسفل الدرجات . فما كان
الجد بن قيس ليستم نفسه على كبر سنه بالافتتان بالنساء ، وما
كان في سيرته شيء مما اتهم به نفسه ، ولكنه النفاق أبي إلا أن
ينزل بالرجل فيؤثر التمرد عن قبول التكليف بهذه السخافة
ويجعل منها عذراً للتخلف عن الجهاد في سبيل الله (٥) .

عزل المنافقين كان التخلف إذن فيصلا عزل الجزء
الأكبر من المنافقين ، فإن المؤمن الصادق في إيمانه كان يجد في

(*) يقال ابن الجد بن قيس تاب عن النفاق وحسنت توبته وعاش الى
خلافة عثمان رضي الله عنه .

الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الدين لئلا تعادلها لئلا يتطلع
من خلالها للأمل الكبير ، وهو الاستشهاد في سبيل الله ، وقد
وعدهم الله الجزاء الأوفى . قال تعالى : « ما كان لأهل المدينة
ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله
ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم
ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يبطئون
موطئاً فيغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب
لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين - ولا
ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب
لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون »
(سورة براءة الآية ١٢٠ وما بعدها) ولهذا قام المسلمون على بكرة
أيهم فاشتركوا في الغزوة إلا من ذكرنا من الضعفاء والمرضى
والمقلين ومن صرح لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتخلف
لسبب معين . ولهذا بلغ جيش المسلمين في هذه الغزوة ثلاثين

ألفاً . ولم يتخلف من المسلمين الذين لا تشوبهم شائبة من
النفاق أو ضعف الإيمان إلا أربعة أشخاص تخلفوا من غير
شك ولا ارتياب في دينهم ، وهم : كعب بن مالك بن أبي كعب
من بني سلية ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف وهلال
ابن أمية من بني واقف وأبو خيثمة مالك بن تيس من بني سالم
ابن عوف . أما الأخير فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأما
الثلاثة فظلموا على تخلفهم وأبى صدق إيمانهم أن يعتذروا للنبي
صلى الله عليه وسلم كما اعتذر المنافقون ، فأمر النبي صلى الله عليه
وسلم بمقاطعتهم ثم إبعاد نسائهم عنهم ثم تاب الله عليهم على تفصيل
نورده فيما بعد .

تأليف فرقة لتثييط الهيم كانت المدينة تعج في هذا الوقت

بالنفاق والمنافقين ، وكانت طائفتهم قد وصلت الى آخر ما قدر
لها من العدد والتأمر حتى اتخذوا لأنفسهم مسجداً في قباء ضاحية
المدينة . فلما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتهيب لهذه الغزوة
وقعوا في أشد الحيرة والاضطراب ، وطفقوا يلتمسون المخرج
من ذلك السفر الطويل في الصحراء المقفرة بين المدينة والشام

النادرة الماء وفي أشد أيام الصيف القائظة . ووجدوا أن تخلفهم
وحده غير كاف للخروج من ذلك الحرج فلبثوا إلى تأليف فرقة
مهما أن تثبط همم الناس عن الجهاد . وكان أفراد هذه الفرقة
يجمعون في بيت يهودى يدعى سويلم بمكان بالمدينة يدعى
جاسوم ، يقول بعضهم لبعض ، « أنحسبون جلاد بنى الأصفر
كقتال العرب بعضهم بعضاً ، والله لكأنهم (أى الصحابة) غداً
مقرنون في الجبال » . وقد أرادوا أن يشيع هذا القول فيكون
فيه إرجاف وترهيب للمؤمنين . وقد روى ابن هشام أن هذه
الفرقة كان من بينها وداعة بن ثابت من بنى عمرو بن عوف
ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخشن بن حمير -
ويظهر أن هذا الأخير كان ممن استهوتهم الدعاية فلم تسترح نفسه
لما سمعه من قول وداعة بن ثابت وفرقتهم وذلك حيث قال لما
سمع ذلك « والله لو ددت أن أقاضى على أن يضرب كل منا مائة
جلدة وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقاتلتكم هذه » وبلغ رسول
الله صلى الله عليه وسلم خبرهم فقال لعمار بن ياسر رضى الله عنه
« أدرك القوم فانهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا ، فان أنكروا
فقل بلى قلتم كذا وكذا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

يعتذرون اليه ، وجاء وديعة بن ثابت ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته ، وجعل يقول وهو آخذ بحقيبها (حزام البطن) يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فانزل الله تعالى « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ، إن نعت عن طائفة منكم نعت طائفة بأنهم كانوا مجرمين » ^{برائة ٦٥ وما بعدها} كان مخشن هو الذي عفى عنه فقال « يا رسول الله قعد بن اسمي واسم أبي » وتسمى عبد الرحمن وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر . وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى الباقرين طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طالحة فاقتحم أحدهم وكان اسمه الضحالك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم أصحابه وأفلتوا .

عدم الجدوى من الدعاية لم تنتج الدعاية المرزوية ما أراد لها أصحابها من الأراجاف وتشيط الهمم ، وظل المنافقون في ترددهم

بين اللحق والتخلف ولجأ أكثرهم الى الاعتذار والاستئذان
والتعلل بالعلل الواهية . وكل ما يمكن أن تكون تلك الدعاية
قد أحدثته هو التأثير في بعض الأعراب المقيمين في الصحراء
المتاخمة للمدينة من قبائل غفار وأشجع وأسلم والمعاهدين لرسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنهم حضروا اليه واعتذروا ،
وقد روى أن رهط عامر بن الطفيل قالوا « يا رسول الله لو
غزونا معك أغارت أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشيئنا
فعدوهم النبي صلى الله عليه وسلم . وقد أنزل الله تعالى في ذلك
« وجاء المذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين
كذبوا الله ورسوله » (سورة براءة الآية ٩٠ وما بعدها

ابن أبي يأسه من الدعاية لم يكن عبد الله بن أبي بعيداً عن
هذه الدعاية ، ولا شك أنه كان مركزها الاساسي الذي تصدر
عنه وروحها المدير الذي تستمد منه قوامها . فلما بادت بالفشل
عسكر بنفصر من المنافقين أسفل ثنية الوداع قريباً من عسكر
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي كان على ذات الثنية ، حتى اذا

اجتمع معه نفر من قومه ومن كانوا على شاكلته والذين استهواهم بدعايته وغرهم بترهانه قال لهم : « يغزو محمد بنى الاصفر مع جيهد الحال والحر والبلد البعيد الى ما لا طاقة له به يحسب محمد أن قتال بنى الاصفر من اللعب والله لسكأنى أنظر الى أصحابه مقرنين فى الجبال » ثم رجع بهم .

ينس البائس المفتون من أمره بعد أن فشلت دعايته التى أوهم نفسه حسن تدبيرها وأثرها ، فعاد الى طريقته القديمة التى سلكها يوم أحد ، فجمع الناس حتى احتشد نفر منهم تحمى لوائه وظن أن فى مكنته أن يلبىهم بباطل مزخرف من القول . ولنا أن ننسأل عن السبب الذى دعا ابن أبى للخروج أسفل ثنيه الوداع فى مقابل جيش المسلمين ؛ فإن الجهاد لم يكن من غرضه ، ما فى ذلك شك ، ولا بد أنه كان يرمى الى غرض آخر ، ولعل غرضه كان أن يجمع قومه ومن فى قلوبهم مرض ومن أمكنه إدخال التردد والشك الى نفوسهم ليضمروا رجوعهم وليرضى شهرة الزعامة التى تتأجج نيرانها فى نفسه فخطب فيهم ثم رجع

يهم ، وكانت مناورة سمجة يعلمها علم الصفاقة ، وتظهر
جيش الرسول صلى الله عليه وسلم من أغلب هذا الرمح
الخبيث (*) .

ولا شك أن ابن أبي قد قام بدعاية واسعة ضد الغزوة وأنه
صاحب الفكرة في تأليف تلك الفرقة التي فشل أمرها في تشييط
الهمم ، يدل على ذلك دلالة واضحة أنه كرر على الناس الجملة
المأفونة التي تناقلها المجتمعون في بيت سويلم اليهودي عن قتال
بنى الأصفر . ولعل هذه الجملة كانت أشد جمل الدعاية ، ولو أن
الذى يتبادر الى الذهن أنهم أخرجوا جملاً أخرى من الأباطيل
يدل على ذلك ما ورد في القرآن من تحكيكمهم بالرسول صلى الله
عليه وسلم وملازمته وإدعائهم الاسلام ثم قولهم للناس لا تنفروا

(*) فان وجودهم في جيش المسلمين لا يذبح إلا أسراً واحداً وهو إثارة
الفتنة وترصد القوائيل ولذلك قال الله تعالى « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا
خبالاً ولا وضعوا خلالكم يغيوبكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم
بالظالمين » . براءة الآية ٤٧

في الحر . يقول الله تعالى « فرح المخلفون بمقعدكم خلاف
رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في
سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد
حرا لو كانوا يفقهون » سورة براءة الآية ٨١ وما بعدها
وظاهر أن هذه الآيات تقصد صراحة فيمن تقصد عبد الله
ابن أبي .

ومن العجب ألا يجد المنافقون مركزاً للدعاية غير بيت
سويلم اليهودي ، كأنما ضاقت عليهم بيوتهم ، وهذا يعطينا
صورة صادقة لجامعة التآمر بين المنافقين ومن بقي من اليهود
بعد أن أجلوا جميعاً عن المدينة ، ويفهم من سياق اخراجهم أن
هذا البيت كان خرباً قبل أن توضع فيه النيران بأمر النبي صلى
الله عليه وسلم .

المنخلفون ومع ما بذله ابن أبي والمنافقون من الجهد لم

يتخلف بدون سبب مبرر سوى الأربعة السالف ذكرهم ، وسوى
من خلفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما اثنان محمد بن مسلمة
إذ خلفه عاملاً له على المدينة ، وعلى بن أبي طالب على أهله .

• • •

خلو المدينة من الرجال الأشداء خلت المدينة من صاحب

الوحي والرسالة وذهب معه فحول الاسلام من الرجال الأشداء
فتخلوا بذلك الجول للمنافقين ، ووجدوا فيه فرصة لملء المدينة
بالأراجيف والدعاية الكاذبة . وكثرت الأقاويل والاشاعات .
وصارت المدينة تعج فيها السنة المنافقين بالأذى والسفه . من
ذلك أنهم أرجفوا بعلي بن أبي طالب رضى الله عنه وقالوا
« ما خلفه إلا استثقلاً له وتخففاً منه » فلما وصل اليه هذا القول
أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو نازل بالجرف على بعد ثلاثة أميال من المدينة فقال « يابني
الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني »

فقال : كذبوا ولستكنني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني
في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون
من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ، فرجع علي إلى المدينة ، ومضى
رسول الله صلى الله عليه وسلم على سفره .

عدول أبي خيثمة ومن العجب أن يكون هذا القول وما
شاكله سبباً في عدول أحد المتخلفين الأربعة ممن لم يكن عذراً ولا
نفاق في قلوبهم وهو أبو خيثمة ، حيث رجع بعد أن سار رسول
الله صلى الله عليه وسلم أياماً إلى أهله في يوم حار ، فوجد
امراتين له في عريشين لهما في حائطه (بستانه) قد رشت كل منهما
عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيات له فيه طعاماً ، فلما دخل قام
على باب العريش ، فنظر إلى امرأته وما صنعتا له فقال : رسول
الله صلى الله عليه وسلم في الصبح (الشمس) والرياح والحر
وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء في ماله مقيم !
ما هذا بالنصف ، ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما
حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فبهنا لي زاداً ، ففعلتا
ثم قدیم ناضحه فارتحله . ثم خرج في طلب رسول الله صلى الله عليه

وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك ، حتى اذا دنا منه قال الناس
« هذا راكب على الطريق مقبل » فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم « كن أبا خيثمة » فقالوا « يا رسول الله هو والله أبو خيثمة »
فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم « أولى لك يا أبا خيثمة » (دنوت
من الهلكة) ثم أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم الخبر فقال له
خيراً ودعاه له بخير . وقال أبو خيثمة في ذلك :

لما رأيت الناس في الدين نافقوا
أتيت التي كانت أعف وأكرما

وبايعت باليمينى يدى لمحمد
فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرماً

تركت خصيباً فى العريش وصرمة
صفايا كراماً بسرهما قد تحمما

وكننت اذا شك المنافق أسمعته
الى الدين نفسى شطره حيث يemma

وبقي النفر القليل الذي اندس في جيش المسلمين يفوح منهم
 ومن النفاق بين آن وآخر . والمتبادر الى الذهن أن استرسالهم في
 هذا السفر لم يكن مبالغة في التوقي ، ولا تورطاً ، وإنما كانت
 إمعاناً في النفاق وحرصاً على استجلاء ما يقع للمسلمين ، ومراسلة
 إخوانهم بالمدينة لما يتوقعونه للمسلمين من الهلكة والأذى ،
 وليتخذ إخوانهم العدة عند ذلك لتنفيذ خططهم ، أو بالأحرى
 خطط ابن أبي ، ووضع يدهم على المدينة بعد إحداث الهرج
 والفتنة بها . والعجب أن هذه الجاسوسية كانت مكشوفة للمسلمين
 وكان المنافقون أو على الأقل كثير منهم ، معروفين لديهم ،
 مغموزين في عقيدتهم . روى ابن هشام يحدث عن عاصم بن
 قتادة عن محمود بن لبيد قال « قلت لمحمود هل كان الناس يعرفون
 النفاق فيهم ، قال « نعم ، والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه
 ومن أبيه ومن عمه ومن عشيرته ثم يلبس بعضهم بعضاً على
 ذلك » .

الجاسوسية في الجيش وهذه من أغرب الأوضاع في
 الجيوش وهو أن يتحمل الجيش جواسيس من الأعداء معروفين

لقادته وأفراده، ثم هو لا يخشى شرهم ولا يعنى بأمرهم، ولكن الغرابة تفتنى بمسألة واحدة وهى أن الجيش كان ذا قوة معنوية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً يقوده سيد الأنبياء والمرسلين وسيد الخلق، وكانت هذه الجواسيس أخط وأذل وأوهن من أن تقوم بأى عمل إيجابى يؤثر فى الجيش.

ونذكر هنا شيئاً مما كانت تفوح به نفوس المنافقين من النتن أثناء الرحلة.

الشدة فى طلب الماء بعد أن مر الجيش فى طريقه الى تبوك على الحجر ديار ثمود التى خربها الله بينهم، أصبح الناس ولا ماء لهم، وحصل لهم من العطش ما كاد يقطع رقابهم حتى حملهم ذلك على نحر إبلهم ليشقوا أكراشها ويشربوا ماءها. فعن عمر رضى الله عنه «خرجنا فى حر شديد - يريد هذه الغزوة - فزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على صدره، فشكوا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبو بكر يا رسول الله قد عودك الله من الدعاء خيراً فادع الله لنا قال أتحب ذلك قال نعم فرفع يده صلى الله

عليه وسلم فدعا ، فلم يرجعهما حتى أرسل الله سبحانه فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا ما يحتاجون اليه فقال رجل من الانصار لآخر متهم بالنفاق ويحك قد ترى قال انما مطرنا بنوء كذا وكذا فانزل الله تعالى « ونجعلون رزقكم أنكم تكذبون ، (سورة الواقعة الآية ٨٢) وقيل إنه قال له « ويحك هل بعد هذا شيء » قال « سبحانه مرة » وفي لفظ أنهم لما شكوا اليه صلى الله عليه وسلم شدة العطش قال « لعل لو استقيت لكم فسقيتم قلتم بنوء كذا وكذا » فقالوا يا نبي الله ما هذا يحين أنواء » فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ ثم قام فصلى فدعا الله تعالى فهاجت ريح وثار سحابة فأمطروا حتى سال كل واد ، فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يغترف بقدره وهو يقول هذا نوء كذا فنزلت الآية.

النافقوت يتحدثون عن ضباع ناقة رسول الله وكيف تألوله

وفي بعض الطرق ضلت ناقة لرسول صلى الله عليه وسلم فخرج أصحابه في طلبها ، وعنده رجل من أصحابه يقال له عمارة

ابن حزم ، وكان عقيباً بدرياً وكان معه في رحله زيد بن اللصيت
القينقاعى وكان منافقاً . فقال زيد وهو في رحل عماره — وعماره
عند رسول الله — « أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم عن خبر
السماء وهو لا يدري أين ناقتة ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وعماره عنده ؟ » إن رجلاً قال هذا محمد يخبركم أنه
نبى ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء ، وهو لا يدري أين ناقتة ، وإنى
والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، وهى فى هذا
الوادى فى شعب كذا وكذا ، قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا
حتى تاتونى بها ، فذهبوا فجاءوا بها . فرجع عماره بن حزم الى
رحله فقال « والله لعجب من شىء حدثناه رسول الله صلى
الله عليه وسلم آنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا
للذى قال زيد بن اللصيت فقال رجل ممن كان فى رحل عماره ولم
يحضر رسول الله « زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى . فأقبل
عماره على زيد بجأ فى عنقه ويقول : إلى عباد الله إن فى رحلى
لداهية وما أشعر — اخرج أى عدو الله من رحلى فلا تصحبنى (٥)

(*) زعم البعض أن زيدا تاب بعد ذلك وقال البعض الآخر لم يزل
متهما بشئ حتى هلك .

الشدة في طلب الماء وعند الاقتراب من تبوك بلغ

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بالماء قلة فقال للجيش : إنكم تأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك وإنكم لن تنالوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس منها شيئاً حتى آتى ، وأمر منادياً بذلك . ومع ذلك روى حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : فحشناها فاذا العين مثل الشرك تبض من ماء ، وقد سبق اليها رجلا من المنافقين ومسا من ماءها ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم لذلك ، واغترفوا من تلك العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع شيء في شن فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ويديه ومضمض ثم أعاده فخرت العين بماء كثير .

في العودة من تبوك — حادث العقبة هذا في الذهاب الى

تبوك . ولم تخل العودة من بعض أعمال المنافقين التي كانوا يخالفون فيها أو امر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمداً طمعاً في الخلاف واستكباراً عن الخضوع . فقد روى أنه كان بالطريق ماء يخرج من وشل (حجر يقطر منه الماء قليلاً قليلاً) ما يروى الرأكب والرأكبين والثلاثة ، بواد يقال له وادى المشقق ، فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سبقنا الى ذلك الوادى
فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه » ، فسبقه اليه نفر من المنافقين
فاستقروا ما فيه . فلما أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف
عليه فلم ير فيه شيئاً فقال « من سبقنا الى هذا الوادى » فقبل له
« يا رسول الله فلان وفلان » فقال « أولم ننههم أن يستقوا منه
شيئاً حتى آتية » ثم لعنهم ودعا عليهم . ثم نزل فوضع يده تحت
الوشل فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب ثم نضح به
ومسحه بيده ، ودعا بما شاء الله أن يدعو به فانخرق من الماء
كما يقولون من سمعه ما إن له حساً كحس الصواعق فشرب الناس
واستقوا حاجتهم .

ولم ينته المنافقون عند هذا الحد من الحقد والسفاهة وعدم
المبالاة إذ أنهم تأمروا على النبي صلى الله عليه وسلم ، واجتمع
رأيهم أن يغدروا به فى العقبة التى بين تبوك والمدينة . فقالوا
« إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى » . والواقع أن
المنافقين فى هذه الغزوة كانوا قلة لا يتجاوز عددهم خمسة عشر
رجلاً ولم يكن فى وسعهم القيام بأى عمل . وإذن فلم يبق لهم

غرض إلا تخين الفرصة لإشعال الفتنة ، أو أن يكونوا بحيث
ينتقلون الى معسكرهم الرئيسي بالمدينة أخبار الجيش وأخبار
السوء التي كانوا يتوقعونها . فلما انتهت الغزوة الى خير المسلمين
وظفرهم ، يئس هذا النفر من المنافقين واشتد عليهم اليأس ، ولم
يبق أمامهم إلا السكيد الخبيث ومحاولة اغتيال الرسول صلى الله
عليه وسلم ، ولكن الله تعالى أخبر رسوله بذلك ، فلما وصل
الجيش الى العقبة ، نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن رسول الله يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد واسلكوا
بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع فسلك الناس بطن الوادي
وسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة . فلما سمعوا بذلك
استعدوا وتلثموا واسلكوا العقبة . وأمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة بقودها ، وأمر
حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه وظلا يتناوبان ذلك . فبينما
رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في العقبة إذ سمع حس القوم
قد غشوه ، فنفرت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط

بعض متاعه وغضب رسول الله وأمر حذيفة أن يردهم فرجع
حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه
محجن فجعل يضرب به وجوه رواحلهم وقال «إليكم إليكم
يا أعداء الله» فإذا هو يقوم ملثمين. فعلموا أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم اطلع على مكرهم، فأنحطوا من العقبة مسرعين
إلى بطن الوادي واختلطوا بالناس. فرجع حذيفة يضرب الناقة
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل عرفت أحداً من
الركب الذين رددتهم» قال «لا كان القوم ملثمين والليلة مظلمة،
عرفت راحلة فلان وراحلة فلان» قال «هي كما علمت ما كان
من شأنهم وما أرادوه» قال «لا» قال «إنهم مكروا ليسيروا
معي في العقبة فيزحموني فيطرحوني منها» إن الله أخبرني بهم
وبمكرهم وسأخبركم بهم واكتتامهم» فلما أصبح رسول الله صلى
الله عليه وسلم جاء إليه أسيد بن حضير رضى الله عنه فقال:
«يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي» فقد كان أسهل
من سلوك العقبة» قال «أتدري ما أراد المنافقون» وذكر له

القصة ، فقال « يا رسول الله ، قد نزل الناس واجتمعوا ، ففر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا فان أحبيت بين أسماءهم والذي بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برءوسهم فقال صلى الله عليه وسلم « انى أكره أن يقول الناس ان محمداً قاتل بقوم حتى اذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم » فقال « يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أليس يظهرون الشهادة » ثم جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بما قالوا وبما أجمعوا عليه فخلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذى ذكر فأنزل الله تعالى : يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ، وما نكروا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيرا لهم ، وإن يتولوا يعذبهم عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا

التوبة

٧٤

تصانير : ٥٥٥

مسجد الضرار وقبل أن يصل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل بمكان من ضواحيها يدعى ذى أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار وهدم مسجد الضرار - وقد أفردنا لذلك فصلاً خاصاً نظراً لأهميته سيأتى بعد .

(*) ولهذا كان يقال لحذيفة اليمان انه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال حذيفة نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته فأوحى اليه ، وراحلته باركة ، فقامت نجر زمامها فلقيتها فأخذت بزمامها ووجئت الى قرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنختها ثم جلست عندها حتى ظم الذي صلى الله عليه وسلم فأنيته بها فقال من هذا قلت حذيفة فقال انى سر اليك سرّاً فلا تفكره انى نهيت أن أصلى على فلان وعلى فلان وعد جماعة من المنافقين . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عمر بن الخطاب فى خلافته اذا مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة رضى الله تعالى عنه فقاده الى الصلاة فان مضى معه حذيفة صلى عليه عمر رضى الله عنه ، وان انتزع يده من يده ترك الصلاة عليه .

أرجاف المنافقين ثم اعتذارهم ثم أقبل جيش المسلمين عائدا إلى المدينة وقد ملأت بأراجيف المنافقين في غيبة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المجاهدين ، وأشاعوا أخبار السوء كذباً واقتراء ، يقولون إن محمداً وأصحابه قد جهلوا في سفرهم وهلكوا . وبينما هم يتلقفون الأخبار ويتربصون السوء إذا طلائع الجيش تقضى على تلك الأراجيف ، وإذا بالمسلمين يعودون سالمين غانمين حامدين ، فكان ذلك ضربة شديدة للمنافقين ولمن تخلف من بطون العرب ، ولم يجدوا بداً أن يذهبوا للرسول صلى الله عليه وسلم ويعتذرون إليه . ولكن الله تعالى أخبر نبيه أمرهم فقال تعالى : « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لا تعتذروا لن يؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . » فيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون

لكم لترضوا عنهم ، فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن

القوم الفاسقين ، (التوبة ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦)

ولما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من
المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا ، وكانوا بضعة وثمانين من المنافقين
والمسلمين الثلاثة السابق ذكرهم . فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم لأصحابه : لا تكلموا رجلا منهم ولا تجالسوهم حتى آذن
لكم ، وأعرض عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون
حتى ان الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه .

أما المنافقون فانما جادوا ليغطوا موقفهم فجعلوا يخلفون
للنبي صلى الله عليه وسلم ويعتذرون اليه فقبل منهم ظاهرهم
وعلايتهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم الى الله . أما الثلاثة
فصدقوا في أقوالهم وأقروا بأنه لم يكن لديهم عذر ، فأرجأهم النبي
صلى الله عليه وسلم وأخر أمرهم ، ينتظر أمر الله فيهم ، وقد أنزل
الله في شأنهم أولا قوله تعالى : وآخرون مرجون لأمر الله

إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليهم حكيم ،
(سورة براءة الآية ١٠٦)

فصة التوبة وأميتها وقد كانت قصة التوبة على هؤلاء الثلاثة
حسيرة وشاقة ، وناهم من الصدق آلام مبرحة . وقد شاء الله
جلت قدرته ألا يتذوقوا حلاوة الصدق إلا بعد أن تجرعوا
مرارة الصبر عليه ، وفي ذلك عبرة وعظة للانسان ألا يتبرم
بالصدق اذا اشتدت عليه نتائجه . ونظراً لسمو هذه العبرة فاق
أورد هنا تفصيل شأن هؤلاء الثلاثة رضوان الله عليهم ليتبين الى
أى حد تحملوا في سبيل صدقهم .

قال أحدهم وهو كعب بن مالك رضى الله عنه « لم أخلف عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة
تبوك ، غير أنى تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب رسول الله صلى
الله عليه وسلم أحداً من تخلف عنها . إنما خرج رسول الله صلى
الله عليه وسلم يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم

على غير ميعاد وقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
العقبة حين توافقنا على الاسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد
يذكر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس . وكان من خبري حين
تخلفت عنه في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني
حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت لي راحلتان
قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة . وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قلما يريد غزوة إلا وري عنها بغيرها — حتى كانت تلك
الغزوة فغزاها رسول الله في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً
وغزو عدو كثير . فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبة ، وأخبرهم
خبره بوجهه الذي يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله صلى الله
عليه وسلم كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ . (يعني بذلك الديوان)
فقل رجل أن يتخاف يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك يخفى ما لم
ينزل فيه وحى من الله . وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين
طابت الثمار وأحبت الظلال ، فالناس إليها صعر (ماثلون)
فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتجهز المسلمون معه
وجعلت أعدو لا تجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة ، فأقول في

نفسى أنا قادر على ذلك اذا أردت ، فلم يزل ذلك يتبادى بي حتى
شمر بالناس الجدد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غادياً
والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً . فقلت أنجهز بعده
يوم أو يومين ، ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لا تجهز ،
فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ،
فلم يزل ذلك يتبادى بي حتى أسرعوا ، وتفرط الغزو ، فهمت
أن أرتحل فأدر بهم ، وليتني فعلت ، فلم أفعل ، وجعلت اذا
خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم
فطفت فيهم ، بحزني أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً (مطعوناً)
عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم
يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو
جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » فقال رجل
من بنى سلبية « يا رسول الله حبسه حب برديه ، والنظر في عطفه ،
فقال له معاذ بن جبل « بنس ماقلت ، والله يا رسول الله ما علمنا
منه إلا خيراً ، فسكنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما

بلغنى أن رسول الله قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بشي ، فجعلت
أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من نسخة رسول الله صلى
الله عليه وسلم غدا ، وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى .
فلما قيل إن رسول الله قد أظلم قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت
أنى لا أنجو منه إلا بالصدق ، فأجمعت أن أصدق . وصبح رسول
الله صلى الله عليه وسلم المدينة . وكان اذا قدم من سفر بدأ
بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك
جاءه المخلفون ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضعة
وثمانين رجلاً ، فيقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم علايتهم
وأيمانهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم الى الله تعالى ، حتى
جئت فسلمت عليه ، فتبسم تبسم الغضب ، ثم قال لى تعاله ، فجمت
أمشى ، حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ألم تكن
ابتعت ظهرك ؟ قلت إنى يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك
من أهل الدنيا ، لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد
أعطيت جدلاً ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم
حديثاً كذباً لترضين عنى وليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن

حدثك حديثاً صدقاً تجد على فيه ، أنى لا أرجو عقباى من
 الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر
 منى حين تخلفت عنك — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك ، فقممت ،
 وثار معى رجال من بنى سلمة ، فاتبعونى وقالوا لى : والله
 ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون
 اعتذرت لرسول الله بما اعتذر به اليه المخلفون ، قد كان كافيك
 ذنبك استغفار رسول الله لك . فوالله ما زالوا بى حتى أردت
 أن أرجع الى رسول الله فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لى
 هذا أحد غيرى ؟ قالوا نعم ، رجلاً قالاً مقاتلك ، وقيل لهما
 مثل ما قيل لك ، قلت من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العمرى
 من بنى عمرو بن عوف ، وهلال بن أبى أمية الواقفى ، فذكروا
 لى رجلين صالحين فيهما أسوة . فصمت حين ذكروهما لى ، ونهى
 رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين
 من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وغيروا لنا — حتى تنكرت

لى نفسى والارض ، فاهى بالارض التى كنت أعرف . فلبثنا
على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحبائى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما
وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج ، وأشهد
الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، ولا يكلمنى أحد
وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد
الصلاة ، فأقول فى نفسى ، هل حرك شفتيه برد السلام على أم
لا ، ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى
نظر الى وإذا التفت نحوه أعرض عني . حتى اذا طال ذلك
على من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى
قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس الى ، فسلمت عليه فو الله
ما رد على السلام . فقلت يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلم
أنى أحب الله ورسوله ، فسكت فعدت فناشدته فسكت عني فعدت
فناشدته فسكت عني ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ،
ففاضت عيناى ، ووثبت فتسورت الحائط ، ثم غدوت الى السوق
فبينما أنا أمشى بالسوق اذا بجليل يسأل عني من بطن الشام من قدم
بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك قال
فجعل الناس يشيرون الى حتى جاءني ، فدفع الى كتاباً من

ملك غسان ، وكان الكتاب مكتوباً في سرقة من حرير (شقة)
فاذا فيه ، أما بعد فانه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يحملك
الله بدار هو ان ، فألحق بنا نواسك ، فقلت حين قرأتها : وهذا
من البلاء أيضاً ، قد بلغني ما وقعت فيه أن طمع في رجل من
أهل الشرك ، فعمدت بها الى تنور فسجرت به . فاقننا على ذلك
حتى اذا مضت أربعون ليلة من الحسين ، اذا رسول رسول الله يأتيني
فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعزل امرأتك
قلت أطلقها أم ماذا ؟ قال بل اعزلها ولا تقر بها . وأرسل الى
صاحبي بمثل ذلك . فقلت لا مرأتى الحق باهلك ، فكونى عندهم
حتى يقضى الله في هذا الامر ما هو قاض . وجاءت امرأة هلال
ابن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إن
هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له أفتركه أن أخدمه
قال لا ولكن يقر بذك قالت والله يا رسول الله ما به من حركة
الى ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان الى يومه
هذا ، ولقد تخوفت على بصره ، فقال لي بعض أهلى ، لو استأذنت
رسول الله لا مرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه .

قلت والله لا أستاذنه فيها ، ما أدرى ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب . فلما بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا . ثم صليت الصبح ، صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، على الحال التي ذكر الله بنا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وضاقت على نفسي ، وقد كنت ابتليت خيمة في ظهر سلع ، فكنت أكون فيها ، إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته ، يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج - وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر - فذهب الناس يبشروننا ، وذهب نحو صاحبي مبشرون ، وركض رجل الى فرسا ، وسعى ساع من أسلم ، حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعته ثوبي فكسوتهما إياه بشارة والله ما أملك يومئذ غيرها ، واستعرت ثوبين فلبستهما . ثم انطلقت أتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة .

يقولون ليهنك توبة الله عليك ؛ حتى دخلت المسجد ، ورسول
الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام طلحة بن
عبد الله يهرول ، فخياني وهنأني ، والله ما قام الى رجل من
المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة (٥) . فلما سلمت على رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال لي ووجهه يبرق من السرور : أبشر
بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قلت أمن عندك يا رسول
الله أم من عند الله قال بل من عند الله . وكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم اذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف
ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي
الى الله عز وجل أن أنخلع من مالي صدقة الى الله والى رسوله
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو
خير لك قلت إني ممسك سهمي الذي بخير وقلت يا رسول الله
إن الله قد نجاني بالصدق ، وإن من توبتي الى الله ألا أحدث إلا

(٥) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخى بين كعب بن مالك وطلحة

صدقاً ما حييت ، والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صدق
الحديث منذ ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أفضل
عما أبلاني الله ، والله ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك
لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن
يحفظنى الله فيما بقى — فو الله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن
هدانى للإسلام ، كانت أعظم فى نفسى من صدق رسول الله صلى
الله عليه وسلم يومئذ ألا أكون كذبتة ، فأهلك كما هلك الذين
كذبوا ، فان الله تبارك وتعالى قال فى الذين كذبوه حين أنزل
الوحى شر ما قال لا أحد قال « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم
إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم
جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم
فانترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين »
براه: (٩٥ ، ٩٦) قال كعب وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن
هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا
له فعذرهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ما قضى . وقد أنزل الله تعالى في شأن
توبتهم قوله : لقد تاب الله على النبي والمهاجرين
والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد
يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف
رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم
الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظننوا ألا
ملاجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو
التواب الرحيم . يأياها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا
مع الصادقين ، (براءة ١١٧، ١١٨، ١١٩)

وكان المبشر لجلال بن أمية أسعد بن أسد ، وكان المبشر
لمرارة بن الربيع سلطان بن سلامة وقيل سلامة بن وقش —
وكان نزول التوبة على النبي صلى الله عليه وسلم حين بقى الثلث
الآخر من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة

فقال يا أم سلمة تيب على كعب قالت أفلا أرسل اليه فأبشره قال
إذا يحطمنكم الناس فيمنعوكم النوم سائر الليل حتى إذا صلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر أعلم بذلك .

هذه هي القصة أوردناها على طولها مفصلة كما وردت في كتب
السيرة . وإنما أردنا بذلك أن نستعرض تلك المشقة الطويلة التي
اقتضت حكمة الله تعالى أن يلهم عباده المخاضين أن يتحملوا
محتها ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، وليكونوا
للعالم من بعدهم مثلاً عالياً للصدق وشدائده ، وليعلم المفترون
أن الشدائد هي التي تطهر الإنسان فتجعل منه صفاء ونقاء أو تلقى
به مع الخبث إن كان خلواً من الجوهر الصافي النقي — هذان
صنفان من المتخلفين يصدق الأول فيقاطعونهم المسلمون ويأمرهم
النبي صلى الله عليه وسلم أن يعتزلوا زوجاتهم ، وتضيق عليهم
الأرض ويبلغ بهم الضيق مداه وهم صابرون لقضاء الله .
والثاني أقسموا اليمين كاذبين ، واعتذروا كاذبين ، فلم يحاسبهم
النبي صلى الله عليه وسلم ووكّل سرائرهم إلى الله ، فاخذهم

الغرور أن قد أفلتوا من العقاب . هذا وأعين المسلمين الفاحصة
تنظر اليهم من كل ناحية هازئة هادئة . أى نفوس زرية كانت
نفوس المنافقين حتى يصل بهم النفاق الى هذه الدرجة الدنيئة من
امتهان النفس وانحطاطها !

انتهى أمر المنافقين فى غزوة تبوك إلا ما كان من شأن
مسحط الضرار ونذكر أمره فيما يلى .

مسجد الضرار

فكرة إنشاء مسجد الضرار عند ما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً إليها من مكة نزل قبل دخولها بضاحية لها تدعى قباء في بني عمرو بن عوف من بطون الخزرج. وبني بها أول مسجد في الاسلام. وكان هذا المسجد محلاً لاقامة الشعائر في هذا الحى وفخراً لبني عمرو بن عوف، ويظهر أن المنافقين رأوا في موقع هذه الضاحية وهدوء أهلها فرصة لجعلها مركزاً لاجتماعهم، ومنتدًى للتآمر وإحداث الشغب. قيل إن أبا عامر الفاسق - وقد سبق للكلام عنه - أمر بينائه وأشار أن ابنوا له مسجداً واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح فأتى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه من المدينة. وقد اخترع المنافقون إشاعة في بني عمرو بن عوف ليستفزوا ضعاف النفوس ومرضى القلوب كما استفزوا إخوانهم بني غنم بن عوف وحاولوا أن يشعلوا فيهم نار الغيرة من بني

عمرو بن عوف فقالوا عن مسجد قباء إنه بنى في مكان كانت تربط فيه امرأة حمارها واستنكروا أن يصلوا في مربط حمار، واعتقدوا أن ذلك يقوم سبباً حقيقياً للنفور من مسجد بناء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام فيه المسلمون يعبدون الله. وتضافرت هذه الاشاعات والتخرصات بعضها مع بعض فحفظت اثني عشر رجلاً من بطون مختلفة فبنوا المسجد الذي أشار به أبو عامر الفاسق وهم:

أسماء بناته (١) خدام بن خالد من بني عميد بن زيد أحد

بني عمرو بن عوف وبني من داره

- | | |
|-------------------------|------------------------------------|
| (٢) ثعلبة بن حاطب | من بني أمية بن زيد |
| (٣) معتب بن قشير | من بني ضبيعة بن زيد |
| (٤) أبو حبيبة بن الأزعر | من بني ضبيعة بن زيد |
| (٥) عباد بن حنيف | أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف |
| (٦) جارية بن عامر | من بني ضبيعة |

- (٧) مجمع بن جارية بن عامر من بني ضبيعة
 (٨) زيد بن جارية بن عامر " " "
 (٩) نبتل بن الحارث " " "
 (١٠) بحزج " " "
 (١١) بجاد بن عثمان " " "
 (١٢) وداعة بن ثابت من بني أمية بن زيد رهط أبي لبابة
 ابن المنذر .

ويكفي عند استعراض أسماء هؤلاء الاثني عشر أن نجد
 من بينهم نبتل بن الحرث الذي نبه الامين جبريل عليه السلام
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان دسيسة ينقل أخبار المسلمين
 الى الكفار وأن كبده أغلظ من كبده الحمار ، ثم معتب بن قشير
 ووداعة بن ثابت لنعلم أن أصبع النفاق كان الاساس الاول
 والاخير لتلك المؤسسة الفاسقة ، وأن رموساً مريضة هي التي
 فكرت في إنشائها لأغراض أوسع مما ظهرت به ثم اختبأت
 وراء هؤلاء الذين بنوه . وللباحث المفكر أن يرى دلائل
 هذه الرموس في أبي عامر الفاسق ثم في شيوخ المنافقين .

المسجد عش للمتأمرين واحداث الفتن بنى المسجد و صار

المنافقون يعقدون به مؤتمراتهم ووجدوا بين حيطانه مكاناً
يسهل فيه اجتماعهم . وصاروا يعيرون النبي صلى الله عليه وسلم
ويستهزئون به ، ويتنظرون أبا عامرهم بما وعدهم ، وستروا
أمرهم بأن ذهبوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز
الى تبوك ، فقالوا يا رسول الله « إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة
والحاجة والليله المطيرة والليله الشاتية ، وانا نحب أن تأتينا
فتصلي لنا فيه ، فقال « إني على جناح مفر وحال شغل ، أو كما
قال صلى الله عليه وسلم « ولو قد قدمنا إن شاء الله لآتيناكم
فصلينا لكم فيه ،

ومن غريب أمر تلك الفئة وحرصها على التستر أنهم استدرجوا
للإمامة شاباً حدثاً هو بجمع بن حارثة ولم يكن يعلم بشيء من
نياتهم ولذلك لما كان في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه
طلب بنو عمرو بن عوف منه أن يأذن لمجمع بن حارثة أن

يَوْمَهُمْ فَقَالَ « لَا وَلَا نِعْمَةٌ عَيْنَ أَلَيْسَ بِأَمَامَ مَسْجِدِ الضَّرَارِ »
فَقَالَ جَمْعٌ « يَا مِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَعْجَلْ عَلَى فَوَ اللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ بِهِمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَا أَعْلَمُ مَا قَدْ أَضْمَرُوا عَلَيْهِ وَلَوْ عَلِمْتُ مَا صَلَّيْتُ
مَعَهُمْ فِيهِ ، كُنْتُ غَلَامًا قَارِئًا لِلْقُرْآنِ ، وَكَانُوا شَبَوخًا قَدْ عَاشُوا
عَلَى جَاهِلِيَّتِهِمْ وَكَانُوا لَا يَقْرَأُونَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا ، فَصَلَّيْتُ وَلَا
أَحْسِبُ مَا صَنَعْتُ إِثْمًا وَلَا أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ » فَعَذَرَهُ عَمْرٌ
وَصَدَقَهُ وَأَمَرَهُ بِالصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِ قِبَاءٍ .

وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ يَصَلُّونَ فِي مَسْجِدِ قِبَاءٍ
جَمَاعَةً فَلَمَّا بَنِيَ هَذَا الْمَسْجِدَ صَرَفَ عَنْ مَسْجِدِ قِبَاءٍ جَمَاعَةً وَصَلُّوا
بِذَلِكَ الْمَسْجِدِ ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ تَفْرِيقٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَمَحَاوَلَةٌ لِلْبَحْثِ عَنْ
ضَعْفِ النُّفُوسِ لَضَمِّهِمْ إِلَى تِلْكَ الْفِئَةِ .

وَلَكِنْ اللَّهُ تَعَالَى كَشَفَ سِتْرَهُمْ وَفَضَحَ نِيَاتَهُمْ ، فَمَا كَادَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصِلُ إِلَى ذِي أَوَانَ مِنْ ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ رَاجِعًا مِنْ
تَبُوكَ حَتَّى أَتَاهُ فَرِيقٌ الْمُنَافِقِينَ يَدْعُونَهُ إِلَى الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِهِمْ
فَدَعَا بِقَمِيصِهِ لِيَلْبَسَهُ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا

خسرارا وكفرا وتفرقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب
الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله
يشهد إنهم لكاذبون . لا تقيم فيه أبدا المسجد أسس على
التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون
أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على
تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا
جرف هار ، فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم
الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم
إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم . براءة من ١٠٧ الى ١١٠

عند ذلك دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن
الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعين بن عدي أو أخاه عاصم
ابن عدي من بني العجلان وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة
فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه فخرجا

سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن
الدخشم فقال مالك لمعن أنظرنى حتى أخرج اليك بنار من
أهلى ، فدخل الى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً
ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه
وتفرقوا عنه وكان ذلك بين المغرب والعشاء ووصل الهمدم
الى الأرض .

وفاة ابن أبي

احتضاره وطلبه قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمض وقت طويل بعد غزوة تبوك حتى هلك رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول وكان ذلك في شهر ذى القعدة من السنة التاسعة - وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما اشتكى عبد الله بن أبي عاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن أبي دامن على فكفني في قميصك وصل على فأرسل اليه القميص الفوقاني فردده وطلب الذي يلي جلده ليكفن فيه فقال عمر رضي الله عنه لم تعطى قميصك الرجس النجس فقال عليه الصلاة والسلام إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئاً .

الصلاة عليه وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه أسلم منهم يومئذ خلق كثير . فلما مات جاءه ابنه يعرفه فقال عليه الصلاة والسلام

لابنه صل عليه وادفنه فقال إن لم تصل عليه يا رسول الله لم يصل
عليه مسلم فقام عليه الصلاة والسلام ليصلي عليه فقام عمر فقال
بين رسول الله وبين القبلة لثلاثين يصبلي عليه وقال يا رسول الله
أتصلي عليه وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا وعدد عليه أشياء
مثل قوله لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا
وقوله ليخرجن الأعز منها الأذل فنزل قوله تعالى
« ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره »
إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » برامة ٨٤
وأخذ جبريل عليه السلام بثوب النبي صلى الله عليه وسلم وتلا
الآية فامتنع عن الصلاة .

(*) هذه منقبة من مناقب عمر رضي الله عنه وذلك لأن الوحي نزل على
وفق قوله في آيات كثيرة منها آية أخذ الفداء عن أسارى بدر وثانيها آية
تحريم الخمر وثالثها آية تحويل القبلة ورابعها آية أمر النسوان بالحجاب وخامسها
هذه الآية .

هذا ما رواه الفخر الرازي في تفسيره ولكن الرواية التي
أوردها ابن هشام وأغلب أصحاب السير تقول إن النبي صلى
الله عليه وسلم صلى على ابن أبي ثم ورد النهي بعد ذلك - وأنا
نميل الى القول الأول لأنه يجعل للنهي موضعاً حيث كان
المقصود منه الامتناع عن الصلاة قبل أن تصلى .

ولسائل أن يسأل عن السبب الذي من أجله رغب الرسول
عليه الصلاة والسلام أن يصلى عليه وهو يعلم أنه كافر وأنه
مات على كفره وأن صلاة الرسول عليه فيها معنى الاجلال
والتعظيم له وأيضاً فإن الصلاة تشمل الدعاء للميت والله
تعالى قد ذكر أنه لا يغفر للكفار البتة ثم ما هو السبب في
إعطائه القميص .

تفسير الغرض من إعطاء القميص والشروع في الصلاة عليه لقد ذهب

المفسرون في هذا الشأن جملة مذاهب . والذي لا شك فيه أن
النبي صلى الله عليه وسلم كان يتبع مع المناققين سياسة واحدة
وهي معاملتهم معاملة المؤمنين في كل شيء إلا أن يكشف الله

الغطاء عن أفعالهم . وسنذكر تفصيل ذلك في باب مستقل إن شاء الله تعالى ويضاف الى ذلك في مسألة وفاة ابن أبي أمير أخرى وهي (١) أن النبي صلى الله عليه وسلم رغب في الصلاة عليه تطييباً وإكراماً لولده الصالح و (٢) تأليفاً للخزرج وخاصة من لم يؤمن منهم أو كان منافقاً ، فلو لم يحب ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي لكان سبة على ابنه وعاراً على قومه فاستعمل أحسن الأمرين . أما اعطاء القميص فقد سبق أن عبد الله بن أبي أعطى قميصه للعباس رضى الله عنه لما أسر في موقعة بدر فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكافئه على ذلك وخاصة أن ابن أبي كان يطلب القميص وهو في حد ذاته شيء يسير قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم انه لا يغني عن الايمان شيئاً .

وقد ذهب بعض المفسرين الى أن السبب ربما كان أنه لما طلب من الرسول عليه السلام أن يرسل اليه قميصه الذي مس جلده ليدفن فيه غلب على ظن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه انتقل الى الايمان لأن ذلك الوقت وقت يتوب فيه الفاجر

حريو من فيه الكافر ، فلما رأى منه إظهار الاسلام وشاهد منه هذه
الأمارة التي دلت على دخوله في الاسلام غلب على ظنه أنه
كان مسلماً وكانت الرحمة غالبية على الرسول الكريم مصداقاً
لقوله تعالى عنه « بالمؤمنين رءوف رحيم » ، وما أرسلناك إلا
رحمة للعالمين ، فلماذا غلب عليه ذلك الظن . ورغب في أن يصل
عليه فلما نزل جبريل عليه السلام من عند الله وأخبره بأنه
مات على كفره ونفاقه امتنع من الصلاة عليه إذ لم يبق محل
لذلك الظن .

وعلى أي حال فقد كانت هذه المعاملة الكريمة سبباً في
رجوع الكثير من قومه وعموم المنافيين عن غيهم — روى
الطبراني عن قتادة قال ذكر لنا أنه صلى الله عليه وسلم قال وما
يعني عنه فيص من الله وإني لأرجو بذلك أن يسلم ألف من قومه
وأورد القسطلاني في شرح البخاري أنه أسلم ألف من الخزرج
لما رأوا ابن أبي يستشفع بثوب النبي صلى الله عليه وسلم ويتوقع
اندفاع العذاب عنه .

وبعد نزول الآية الكريمة لم يصل الرسول صلى الله عليه وسلم

على منافق حتى انتقل الى الرفيق الاعلى .
وكان موت ابن ابي ايداناً باندحار حزب المنافقين بعد أن
انكسرت شوكتهم وخابت آمالهم وتبدد كيدهم واقتضحت
مخازيهم بما أنزل الله تعالى في شأنهم من القرآن فكانوا ابلا أذاب
ما عقدوه من الارجيف . وانتقل النفاق بعد النبي صلى الله عليه
وسلم الى أوضاع شتى وخاصة بعد أن فتحت بلاد فارس والروم
وما اليها وخطأ أصحاب النفاق من عقائد المجوس والثنوية
والمزكية والبرهمية وما اليها أشتاتاً متناثرة وأقحموها في الاسلام
وتكونت بذلك فرق كثيرة ونحل غريبة وفتن معقدة متشابكة
ليس من موضع هذا الكتاب تفصيلها .

تعريف النفاق

وعناصره وأهميته

النفاق لغة ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب تعريفاً عاماً للنفاق وقلنا إنه ضرب من ضروب الكذب . ونعود الآن الى تفصيل هذا التعريف . والى بيان عناصر النفاق ومكوناته وأهمية أمره .

قال علماء اللغة إن النفاق كلمة مشتقة من النافق — وهو جحر اليربوع . ولليربوع جحران أحدهما يقال له النافق والثاني يقال له القاصعاء . واليربوع يفعل ذلك لظهار غير الحقيقة دفاعاً عن حياته فهو يخرق الأرض حتى اذا كاد يبلغ ظاهرها أرق التراب . فاذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج فظاهر جحره تراب وباطنه حفر ، وكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر .

معنى النفاق ومحمد بن الفخر الرازي بتقسيم أحوال القلب واللسان والنفاق

يبدل على نوع معتل من العقيدة ، أو على خلل طارىء يعرض للعقيدة فيفسدها . أو على التضارب بين العقيدة الباطنة والعقيدة الظاهرة . وفي تحديد معنى النفاق فصل الفخر الرازي في تفسيره جدولاً مؤسساً على التقسيمات المنطقية ذكر فيه أن أحوال القلب فيما يتعلق بالعقيدة أربع : فأما أن تكون العقيدة مطابقة للحق أو غير مطابقة له وإما أن يكون القلب خالياً من الاعتقاد والاعتقاد المطابق للحق إما أن يكون عن دليل أو يكون تقليداً بلا دليل . وأن أحوال اللسان أحد أمور ثلاث هي الإقرار أو الإنكار أو السكوت فينتج من أحوال القلب مع أحوال اللسان اثنا عشر حالة . وهذه الأحوال إما أن يكون كل من الإقرار أو الإنكار أو السكوت اختيارياً أو اضطرارياً فهذه أربع وعشرون حالة فصلها كالآتي :

١٠، الإقرار الاختياري باللسان مع الاعتقاد الصحيح بالقلب
إيمان واضح ٢٠، والاضطراري إن كان مقصوداً فيوشك صاحبه

أن يكون منافقاً حيث لا معنى ألا يقر بلسانه إلا مضطراً (٣)،
والانكار باللسان مع الاعتقاد الصحيح بالقلب إن كان اختيارياً
فهو الكفر والعناد (٤)، وإن كان اضطرارياً فصاحبه مسلم ورد
في شأنه قوله تعالى «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» (٥)،
والسكوت في حالة العقيدة الصحيحة إن كان اضطرارياً فصاحبه
مسلم (٦)، وإن كان اختيارياً كان محل بحث ويميل الغزالي الى
اعتبار صاحبه مؤمناً. أما الاعتقاد التقليدي ففي علم الكلام أبحاث
مطولة موضوعها الحكم على إيمان المقلد هل يعتبر إيماناً صحيحاً
أم لا؟ فعلى الأخذ باعتبار إيمان المقلد صحيحاً في حالة (٧)،
الإقرار الاختياري يكون الإيمان صحيحاً (٨)، فإن كان اضطرارياً
فهو نفاق (٩)، وفي حالة الانكار الاختياري فهو كفر (١٠)، فإن
كان الانكار اضطرارياً فهو إيمان (١١، ١٢)، وحالتا السكوت فيه
مطابقة لحالتى السكوت السابقة. وتأتى بعد ذلك حال الاعتقاد
غير المطابق للحق أو الاعتقاد الجاهل فالإقرار فيه (١٣، ١٤)،
نفاق سواء أكان اختيارياً أم اضطرارياً والانكار والسكوت
فيه (١٥، ١٦، ١٧، ١٨)، كفر سواء أكان اختيارياً أم اضطرارياً.

والنوع الأخير وهو خلو القلب من الاعتقاد إن صحبه الاقرار
الاختياري (١٩)، فأما أن يكون المقر في مهلة النظر فلا يلزم منه
الكفر ولكنه فعل ما لا يجوز وإن لم يكن في مهلة النظر كان
محل بحث وتأمل . فان كان الاقرار اضطرارياً (٢٠)، فلا يتصور
الاضطرار في غير مهلة النظر فان كان في مهلة النظر فلا يكون
عمله قبيحاً ولا يكون كفراً ولا نفاقاً . أما حالتى (٢١، ٢٢)،
الانكار فهما على عكس حالة الاقرار . وأما حالة السكوت (٢٣)،
فان كان اختيارياً وفي مهلة النظر فهو الواجب حتى تفتنى المهلة
وإن كان بعد انتهائها فهو كافر لا منافق . ولا يتصور السكوت
الاضطرارى (٢٤) .

وينتج من هذا أن النفاق ينصرف الى أربعة أحوال من
الأحوال الأربعة وعشرين وهى حالتا الاقرار الاختياري أو
الاضطرارى باللسان مع العقيدة القلبية غير المطابقة للحق وحالة
الاقرار الاضطرارى مع العقيدة القلبية المطابقة للعلم الصحيح
عن دليل أو عن تقليد .

أقسام الناس حسب العقيدة وقد انقسم الناس على أساس هذا التقسيم الى ثلاثة أنواع ١٠، مؤمنون ظاهرون بحسن اعتقادهم و ٢٠، كافرون مجاهرون بكفرهم وعنادهم ٣٠، ومنافقون مذنبون يظهرون الايمان بالسننهم ويضمرون الكفر في قلوبهم . وقد ورد هذا التقسيم في أول القرآن فذكر الله تعالى شأن المؤمنين وأثنى عليهم في أربع آيات ثم ذكر الكافرين وأنه ختم على قلوبهم وسمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة وتوعدهم بالعذاب العظيم في آيتين ثم ذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية بين في تسع منها صفاتهم وأحوالهم وضرب بشأنهم مثلين مفصلين مليئين بالعجيب المعجز والدقة الباهرة في أربع آيات .

أهمية شأن المنافقين وتفصيله في القرآن وأظهر ما يستفاد من هذا الوضع الأهمية البالغة لأمر المنافقين حيث شملهم في أول القرآن ثلاث عشرة آية بينما شمل المؤمنين أربع آيات والكافرين آيتان . ويضاف الى ذلك أن القرآن فصل أمر المنافقين في مواضع عديدة لا تقل في مجموعها عن عشر القرآن .

وترجع هذه الأهمية الى أمرين : الأول أن أمر المنافق
أشد خطراً من أمر الكافر والثاني توجيه النظر الى أهمية علاج
أمرهم .

وقد قال بعض العلماء إن كفر الكافر أقبح من كفر المنافق
وعلموا ذلك بأن الكافر جاهل بالقلب كاذب باللسان وأن المنافق
جاهل بالقلب صادق باللسان ولكن ذلك غير مطابق للواقع
لأن المنافق كاذب يدل على ذلك قوله تعالى (والله يشهد إنهم
لكاذبون) .

الفرق بين الكافر والمنافق والواقع أن المنافق والكافر في الكفر
سواء إلا أن المنافق يختص علاوة على الكفر بأمور منكرة
منها : ١٠ أن المنافق قصد التلبيس والكافر لم يقصد ذلك و ٢٠
أن الكافر لم يرض لنفسه بالكذب بل استنكف منه والمنافق
رضى به ٣٠ أن المنافق يفقد بنفاقه خلق الشجاعة والشهامة
ويتردى من نفاقه الى الخصال الدنيئة من الجبن والخداع والبخل
والتردد ثم الى ما هو أشد خطراً من الكذب كالأستهزاء بالله
وآياته وظن السوء بالله ولهذا قال الله تعالى « إن المنافقين في

«الدرك الأسفل من النار» النساء ١٤ و ١٥، أن المنافقين كانوا أشد خطراً على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوفى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وكان بحكم المخالطة يفشى أسرارهم وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» .

اختلاط المنافقين بالمسلمين وقد كان المنافقون مختلطين اختلاطاً شديداً بالمسلمين ولم يكن جميع أمرهم معروفاً . ويرجع السبب في هذا الاختلاط أنهم لم يكونوا من قبيلة واحدة ولا في مكان واحد بل كان في كل قبيلة عدد كبير فكان في كل من فروع الأوس والخزرج منافقون كما كان من قبائل اليهود الثلاث منافقون ، وكما كان في أعراب البوادي وخاصة الضاربة حول المدينة منافقون . وقد جمعت بين أشتاتهم جامعة مزيفة وهي التحزب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يظنون في أنفسهم الألفة والمنفعة والشدة حتى إذا حز بهم الأمر وضائق

لهم شارب قتلهم منافقون من شدة الحقد لا يميزونهم ١٤٣

إيهم الضائقة ألقوا أنفسهم ضعافاً مستخذلين ، ورأوا ما جمعهم
إنما كان قطعاً مرقعة من سبائب المهانة والذلة ، وصدق عليهم
قول الله عز وجل « نحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » ، ذلك
بأنهم قوم لا يعلمون ، (المعر ١٤)

تمييز المنافقين وكان للمنافقين من خلالهم وأفعالهم
علامات وميزات يتميزون بها ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم
يتفرسون بهذه العلامات ليتحاشوا أعداءهم من المنافقين .
وليعلّموا مواطن التجسس ، وليدروا عن أنفسهم شروهم
وكيدهم وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم عن هذه العلامات
مخاطباً رسوله عليه السلام « ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم
بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول ، والله يعلم أعمالكم ،

(القتال ٣٠)

كذلك كان كثير من الاحداث محكا وبلاء عزل المنافقين
عن المؤمنين كما حدث في موقعة أحد وموقعة تبوك وغيرهما ،

وقد ورد في كتاب الله تعالى إشارات كثيرة الى ذلك منها قوله
تعالى (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم
المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في
سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا أو نعلم قتالا لا تتبعناكم ، هم
للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم
ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتبون . الذين قالوا
لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادعوا
عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) (آل عمران ١٦٦-١٦٨)
(أم حسبتم أن تتركوا ، وما يعلم الله الذين جاهدوا منكم
ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة
والله خير بما تعملون) (براء ١٦٥)

وكانت هناك علامات أخرى هي خليط من الأخلاق
الوضيعة والصفات المهينة كالخداع والحسد والعجب أشربت بها

قلوب المنافقين نتيجة لازمة لما اختزن في قلوبهم من الكفر
والضغن والرياء .

حديث خصال المنافقين واخلاف الآراء في ذلك وقد أخرج البخاري
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربع من كن فيه كان
منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من
النفاق حتى يدعها . اذا ائتمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد
غدر واذا خاصم فجر ، — وقد ورد هذا الحديث عن النبي
صلى الله عليه وسلم في رواية أخرى وهي : « ثلاث من كن فيه
فهو منافق وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن اذا حدث كذب
واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان » .

والذى ينتج من التأويل الحرفي لهذا الحديث أن ارتكاب
شيء من الكذب أو الخيانة أو الإخلال بالوعد معناه الانتقال
من حالة الإيمان الى حالة النفاق مع أن هذه الأشياء من
المعاصي .

وقد اختلفت الآراء في هذا الموضوع وانقسمت الى خمسة
آراء :

فالأول : وهو رأى البخارى والحسن البصرى وبعض
أهل العلم أخذوا بظاهر النص وقالوا إن هذه للخلال الذميمة
منافق من اتصف بها . وفي الاعتراض على هذا نقل عن واصل
ابن عطاء قال : أتى الحسن رجل فقال له إن أولاد يعقوب
حدثوه فى قولهم أكله الغنث وكذبوه ، ووعدوه فى قولهم
وإنا له لحافظون فأخلفوه ، واثمنهم أبوهم على يوسف فخافوه
فهل نحكم بكونهم منافقين ؟ فتوقف الحسن رحمه الله . وهذا
الاعتراض وحده كاف أن يجعل هذا رأى محلا للتأمل
والنظر .

والثانى : أن ذاك مخصوص بالمنافقين فى زمان رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، واستندوا على ما رواه مقاتل بن حيان عن
سعيد بن جبير عن ابن عمر وابن عباس قالا أتينا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى أناس من أصحابه فقلنا يا رسول الله إنك
قلت ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه
مؤمن إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ، ومن
كانت فيه خصلة منهن ففیه ثلث النفاق ، فظننا أنا لم نسلم منهم

وغيره من المنافقين والمنافقات

أو من بعضهن ولم يسلم منهم كثير من الناس . فضحك رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما لكم ولهن إنما خصصت بهن
المنافقين كما خصهم الله في كتابه أما قولي إذا حدث كذب فذلك
قول الله عز وجل إذا جاءك المنافقون (الآية) أفأنتم كذلك
قلنا لا قال لا عليكم أنتم من ذلك براء . وأما قولي إذا وعد
أخلف فذلك فيما أنزل الله على «ومنها من عاهد الله لئن آتانا من
فضله» (الآيات الثلاث) أفأنتم كذلك قلنا لا والله لو عاهدنا الله
على شيء أوفينا به قال لا عليكم أنتم من ذلك براء . وأما قولي
إذا اتهمنا خان فذلك فيما أنزل الله على «إنا عرضنا الأمانة»
(الآية) فكل إنسان مؤتمن على دينه فال مؤمن يغتسل الجنابة في
السرا والعلانية والمنافق لا يفعل ذلك إلا في العلانية أفأنتم كذلك
قلنا لا قال لا عليكم أنتم من ذلك براء — وإلى هذا الرأي ذهب
كثير من التابعين والأئمة . قال عطاء بن أبي رباح حدثني جابر
ابن عبد الله أنه صلى الله عليه وسلم إنما ذكر قوله ثلاث من كن
فيه فهو منافق في المنافقين خاصة الذين حدثوا النبي صلى الله

عليه وسلم في كذبوه واثمنهم على سره فخانوه ووعدوا أن ينخرجوا معه فأخلفوه .

والثالث : فسر الحديث بأن المقصود هو من إذا حدث عن الله كذب عليه وعلى دينه ورسوله وإذا وعد أخلف كما ذكره فيمن عاهد الله وإذا ائتمن على دين الله خان في السر فكان قلبه على خلاف لسانه — وهذا التفسير ينقل الحديث من معناه العام الى تعريف النفاق .

والرابع : هو أن المقصود بالحديث من يحدث بحديث يعلم أنه كذب ، ويعهد عهدا لا يعتقد الوفاء به ويقتظر الأمانة للخيانة فيها واستند أصحاب هذا الرأي الى حديث ضعيف الإسناد هو أن علي بن أبي طالب لقي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما خارجين من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ثقيلان فقال علي مالي أرا كما ثقلين قالوا حديث سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنافقين إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا ائتمن خان وإذا وعد أخلف فقال علي أفلا سألتهم فقالوا

هبتا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لـكنى سأسأله فدخل
على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله خرج أبو بكر
وعمر وهما ثقيلان ثم ذكر ما قالاه فقال قد حدثتهما ولم أضعه
على الوضع الذي وضعاه ولكن المناق إذا حدث وهو يحدث
نفسه أنه يكذب وإذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف وإذا
اتتمن وهو يحدث نفسه أنه يخون - والواقع أننا إذا وضعنا
ضعف الاسناد في هذا الحديث جانباً ، نجد أن التأمل في هذا
الرأى وفي تفسيره لا يوصل الى أمر واضح .

والخامس : قال ابن العربي قد قام الدليل على أن متعمد هذه
الخصال لا يكون كافراً وإنما يكون كافراً باعتقاد يعود الى الجهل
بالله وصفاته أو التكذيب له ، وأنه لو غلبت المعاصي ما كان بها
كافراً ما لم تؤثر في الاعتقاد .

نتيجة الآراء والواقع أن القول بأن ارتكاب شيء من
الكذب أو الخيانة أو عدم الوفاء بالوعد ينقل مرتكبه من
الايمان الى النفاق هو قول خطر يقلب قواعد التوحيد . فالنفاق

أمر يتعلق أول ما يتعلق بالعقيدة وسترها باللسان وتزويرها .
 فإذا ما كانت العقيدة صحيحة سليمة ولم يطرأ عليها من اللسان
 ما يفسدها أو يزيفها فإن المعاصي ليس من شأنها أن تغير العقيدة
 في وجود الله وفي صفاته وفي رسالة النبي عليه الصلاة والسلام .
 وقد روى عن الحسن بن أبي الحسن البصري ما يعدل رأيه
 حيث قال إن النفاق نفاقان نفاق الكذب ونفاق العمل فأما
 نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما
 نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة ، كذلك روى البخاري
 عن حذيفة أن النفاق كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فأما اليوم فأنما هو الكفر بعد الإيمان . ولعل هذا التكييف
 للنفاق هو الذي حدا بالبخاري رحمه الله إلى الأخذ بظاهر
 الحديث .

المراد بالحديث والحقيقة التي لا شك فيها أنه لم يكن للمنافقين
 علامات مميزة خاصة يتميزون بها وإنما كانت الحوادث والأيام
 تكشف الكثير منهم . ولعل المقصود من الحديث أن الكذب
 والخيانة والاخلال بالعهد من أخص خصائص النفاق وأن

المنافقين يفعلون هذه الأفعال الذميمة وهم يستحلونها
ويستمرئونها ويعتقدون أنها الحكمة واللباقة والكياسة فضلوها
بذلك عن سبيل الله واستحلوا ما حرم الله فكفروا ،
وستروا كفرهم فنافقوا . وأمر الرسول عليه السلام
أصحابه أن يتبعوا عن هذه الخلل حتى لا يكونوا موضعاً
للشك ، وحتى يتباعدوا عن صفات يدرع بها المنافقون ويعتمدون
عليها .

خطر الكذب والحيانة والاخلال بالوعود على العقيدة على أنى أرى

من خلال هذا الحديث الكريم معنى سامياً يرجع إلى أصل من
الأصول الأساسية في علم النفس وهو أن تكوين العقيدة والعادة
يرجع إلى كثير مما يقوم به الإنسان من الأعمال ومما يتوارد
عليه من الخواطر ومما ترتببه النفس من الرغائب ومما تنزع إليه
من الشهوات ومما تضطرب فيه من العواطف والأحاسيس وأن
كل ذلك يشترك في تكوين شخصية الفرد ويذهب به إلى الخير
أو إلى الشر فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتباعد المؤمنون

عن الكذب والخيانة والاخلال بالوعد لأن هذه الصفات
المرذولة من أخطر الأشياء على النفس إذ تعودها على الجرائم
وتدفع بها إلى الهلكة وتمشى بها ولو رويدا إلى ما يخشى منه على
العقيدة - قال الله تعالى في شأن مخاني الوعد (فأعابهم نفاقا
في قلوبهم إلى يوم ياقونه بما أخلفوا الله ما وعدهوه وبما
كانوا يكذبون) وظاهر من هذه الآية أن نقض العهد
وخلف الوعد والكذب يورث النفاق فيجب على المسلم أن يبالغ
في الاحتراز عنه وأنه إذا عاهد الله في أمر فعليه أن يجتهد في الوفاء
به . وقد نزلت هذه الآية الكريمة في شأن رجل عاهد الله إذا
أثرى أن يؤدي الزكاة ، فلما أثرى امتنع عن أدائها وعن أداء
الصلاة ثم اندفع إلى النفاق وهو رجل من الأوس كان يدعى ثعلبة
ابن حاطب . ونظرا لما في قصته من العبرة والعظة فانا نورد هنا

قصة ثعلبة بن حاطب وقد كان من أمره أنه قال للنبي صلى
الله عليه وسلم يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال عليه

السلام ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه
فراجعه وقل والذي بعثك بالحق إني رزقني الله ما لا لأعطين كل
ذي حق حقه . فدعا له فاتخذ غنما فمتم كما ينمو الدود حتى
ضاق بهم المدينة فتنحى ونزل وادياً من أوديتها فجعل يصلي
الظهر والعصر ويترك ما سواهما ثم نمت وكثرت حتى ترك
الصلوات إلا الجمعة ثم ترك الجمعة وعلق يتلقى الركبان يسأل عن
الأخبار . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فأخبر بخبره
فقال يا ويح ثعلبة فنزل قول الله تعالى « خذ من أموالهم
صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها » (براءة ١٠٣) فبعث إليه
رجلين وقال لهما مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بني سليم -
فخذوا صدقاتهما فأتيا ثعلبة فقال لهما ما هذه إلا أخت الجزية
ولم يدفع الصدقة فانزل الله تعالى « ومنهم من عاهد الله ...
الآية » (براءة ٧٥ وما بعدها) فقليل له قد أنزل الله فيك كذا
وكذا فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله أن يقبل صدقته
فقال إن الله منعه من قبول ذلك ، فجعل يحثى التراب على رأسه

فقال عليه الصلاة والسلام قد قلت لك فما أظعنى . ولما انتقل
الرسول عليه السلام الى الرفيق الأعلى أتى ثعلبة أبا بكر
بصدقة فلم يقبلها اقتداء بالرسول عليه السلام ثم لم يقبلها
عمر اقتداء بابي بكر ثم لم يقبلها عثمان وهلك ثعلبة في
خلافة عثمان .

قد يكون فيما فعله ثعلبة من عرض الصدقة على النبي صلى
الله عليه وسلم بعد سبق امتناعه من أدائها ثم عرضها على خلفائه
ما يدل على التوبة ، وقد يكون في رفضها معنى الإهانة له ليعتبر
غيره به فلا يمتنع عن الصدقات ، وقد يكون إتيانه بالصدقة
كان على وجه الرياء لا على وجه الإخلاص ولذلك لم يقبلها
النبي عليه السلام ، ولكن الذي لا مربة فيه أن الله تعالى قال في
شأنه « فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقىونه بما أخلفوا
الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » . وهذا يدل على مبلغ
الخطر الذي يحيط بالشخص المستهتر الذي يسدر في جهالات

الكذب ونقض العهد وغير ذلك من الصفات الذميمة إذ يوشك
أن تمتد في نفسه جذور الاثم وتعقب في قلبه أدران
النفاق .

الارتباط بين الظاهر والباطن وأهمية حال القلب والارتباط بين
الباطن والظاهر أمر لا شك فيه ؛ ولهذا شرعت العبادات أدوات
تقوم فيها الجوارح بأعمال معينة فينصلح بأدائها حال القلب .
والواقع أن القلب يتأثر بجميع الأعمال التي تأتينا الجوارح من
خير أو شر . وفي ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن
الرجل ليصدق فتنتك في قلبه نكته بيضاء ، وإن الرجل ليكذب
الكذبة فيسود قلبه » وعن أبي هريرة رضى الله عنه « إن الرجل
ليصيب الذنب فيسود قلبه فإن هو تاب صقل قلبه ، وهذا هو
الربن الذي ذكره الله في القرآن في قوله تعالى « كلا بل ران علي
قلوبهم ما كانوا يكسبون » وقال صلى الله عليه وسلم
« ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا
فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » . - وروى الإمام أحمد

عن مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : القلوب أربعة : قلب أجرد مثل السراج
يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ،
وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فيه نوره .
وأما القلب الأغلف فقلب الكافرين . وأما القلب المنكوس
فقلب المنافق عرف ثم أنكر . وأما القلب المصفح فقلب فيه
إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ،
ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم ، فأى المادتين
غلب على الأخرى غلب عليه .

كذلك روى عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تعرض الفتن على
القلوب كعرض الحصى عوداً عوداً . فأى قلب أشربها
نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه
نكتة بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين قلب أسود مر باداً
كالكون مجنحاً لا يعرف معروفه ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب

من هواه ، وقلب أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دام
السموات والأرض (٥)

هودا عودا : — أى تمام وتكرر . وردت عودا عودا ومعناها —
الاستعاذة منها

كالصبر : — كما يشج الحصير هودا عودا — فشيء عرض القن على القلوب
واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصار على صانعيها واحدا
بعد واحد

أشرب : — دخلت فيه دخولا تاما وحلت منه محل العراب

نكتت نكتة : — نطقت نقطة — وكل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نكتة

مرباد : — وفي لغة أخرى مرشد ويقال أرباد ومرشد والريده شيء من

بياض يضر بخاط السواد

كالكوز مجخبا : — لما لا أى قلب نكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة أى

كالكوز المنعرج الذى لا يثبت الماء فيه

وقد ذهب علماء الغرب الى أنهم وصلوا في أبحاثهم الواسعة
عن أعماق النفس الانسانية الى معرفة الكثير من كنهها فكان
ما وصلوا اليه جزءاً صغيراً من هذا الهدى النبوى الكريم
فقالوا إن النشاط النفساني يتكون في الانسان من عنصرين :
أحدهما خارجي Objective ارادى يعمل دائماً باحتياط
والثاني ذاتي subjective . وأطلقوا على الأول اسم الشعور
أو العقل الواعي وعلى الثاني اللاشعور أو العقل الباطن وأدرجوا
تحت الأول قوى التمييز والحكم والتفكير وهي التي بواسطتها
نحس بوجود أنفسنا وبأننا كائنات وأشياء . كما قالوا أن الثاني
وهو العقل الباطن يعمل ولا نشعر بوجوده وأن من مظاهره
الذاكرة والعاطفة والمخيلة . وقالوا إن اللاشعور يجمع الاحاسيس
التي نحس بها ويسجل الأفكار التي تتوارد علينا ودقائق ما نشعر
به كل الى ما يشبهه ثم هو لا يكتفى بالاحتفاظ بها ولكنه

يدكرنا بها تحت تأثير الأفكار المشابهة أو المقارنة كما ينضج في أعماقه الأهواء والميول والدوافع وكما تفتزن فيه الصور والأفكار والعواطف والانفعالات على الأيام والشهور والسنين حتى تتكون منها عقد نفسية تدفع الى التماسي أو الى الانكفاء .

وقد ابتدعوا عن طريق هذه الأبحاث المستفيضة طرائق لتربية النفس وتقوية العوامل التي يمكن للإنسان أن يستعملها عمداً للتأثير على نفسه أو على غيره أو على الحوادث التي تهمة ابتغاء الوصول لأغراض معينة منها (١) تنظيم قوى الانفعال والحساسية والعاطفة والاندفاع والتخيّل والذاكرة وجميع المظاهر اللاشعورية ووضعها تحت رقابة قوى التمييز والحكم والارادة . و (٢) للقدرة على التأثير على الغير أو التخلص من التأثير عليه (٣) وللحصول على أكبر قسط من النجاح وتوسيع مدى الإدراك والذكاء .

وللوصول الى هذه الأغراض رتبنا طرائق معينة من
أهمها الاستهواء وضبط النفس ووضعنا لذلك قوانين دقيقة
أساسها أن كل فكرة يطول تدبرها ينشأ عنها في النفس تصور
معين ينطبق عليه قانون ارتباط المعنوية بالمادية وهذه تعمل في
الإنسان تبعاً لقانون التسلسل الفكري وتحدث تغييراً كبيراً أو
صغيراً في الميول والرغبات ينطبع في اللاشعور وبذلك يمكن
إدخال الفكرة اللازمة لآحداث التغيير الذي يراد إحداثه
وهذا يدعو الى الجمع بين فكرة إمكان إحداث التغيير المرغوب
وفكرة ضرورة بذل الجهد لآحداثه وفكرة آداثه فـعـلاً
وبهذا تكون الفكرة في جميع الأحوال من أعظم القوى .
وقد وجد علماء الفسيولوجيا (وظائف الأعضاء) برهاناً عملياً
على قوة الفكر في مسائل التنويم المغناطيسي وخاصة في إحداث
الجروح بمجرد الإيماء وتغيير تكوين الدم بالانفعالات الشديدة
وهكذا يقرر رجال علم النفس أهمية الدور الذي تقوم به
الأفكار وهو يطابق ما يقرره رجال التصوف وأصحاب مذاهب

التجرد المنتشرين في الهند والتبت والصين وغيرها كالراجايوجا
واللاميين والشيوصوفيين وجميعها تثبت وجود التضامن الدقيق
بين المادية والمعنوية - وقد رتبوا على هذا التضامن نتائج
عديدة منها أن التغذية المفرطة معناها تقييد القوة العامة العضوية
لأنها تتطلب نشاطاً زائداً من القوة العصبية للجهاز المضمي أى
انهاك هذه القوة وبالتالي يزدحم الجسم بالسموم والفضلات
وهذا من شأنه الاخلال بنظام الجسم فكان من معجزات الرسول
الكريم صلى الله عليه وسلم أن رفض الطبيب قائلاً إنا قوم
لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع . ومن ذلك أيضاً أنهم
قرروا وجوب تغليب القوة العاقلة على غيرها ليتمكن الانتفاع
بذلك عن طريق مطابقة التوازن بين قوى النفس الارادية
وبين الجسم وتنظيم الوظائف المادية المعتمدة مباشرة على الارادة
وقد ثبت بطريق القطع أن الاستهواء الذاتي له أثر كبير على
القوة النفسية وأن له السيطرة الكبرى على النفس . وإن الباحث

أنواع القلوب وقد ورد في القرآن ما يعيد تقسيم القلوب الى ثلاثة أقسام : (١) قلب سليم وهو القلب الذى سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه قال تعالى «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» (الشعراء ٨٨، ٨٩) (٢) وقلب ميت وهو الذى لا يعرف ربه ولا يعبد ربه ولا يبالى اذا فاز بشهواته وحظوظه رضى ربه أو سخط (٣) وقلب مريض وهو القلب الذى له حياة وبه علة . ففيه من محبة الله تعالى والايمان به والاخلاص له ما هو مادة حياته وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها كالحسد والكبر وحب العلو والفساد والرئاسة ما هو مادة هلاكه . وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذه القلوب الثلاثة في قوله تعالى «وما أرسلنا

المدقق ليرى فى العبادات وخاصة فى الصلاة والصوم مجموعة منظمة أبدع نظام لطرائق تهذيب النفس وتربيتها مقدرة أعظم تقدير للقوى المادية وعلاقتها بالقوى غير المادية الكائنة فى الانسان هذا العالم الا صغر ذلك تقدير العزيز العليم .

من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا نعى ألقى الشيطان في
أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته
والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في
قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق
بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا
به فتخبث له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط

مستقيم » (الحج ٥٢، ٥٣، ٥٤)

مرض القلب وعلامة ذلك في القرآن وقد وصف المنافقون
مراراً في القرآن بمرض القلب على اعتبار أن هذا الوصف كما
يشمل المنافقين فإنه يشمل من المؤمنين من يترددون بين الطاعة
والمعصية . ويستفاد ذلك من إضافتهم إلى المنافقين في مواضع
كثيرة قال تعالى « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم
مرض غر هؤلاء دينهم » (الانفال ٤٩) « لن يفته المنافقون

والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة المنغرينك
 بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » (الأحزاب ٦٠، ٦١)
 « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا
 الله ورسوله إلا غرورا » (الأحزاب ١٢) على أنه ورد ذكر
 مرض القلب في آيات أخرى للدلالة على المنافقين وحدهم وذلك
 كما في قوله تعالى في وصف المنافقين « في قلوبهم مرض
 فزادهم الله مرضا » (البقرة ١٠) « وأما الذين في قلوبهم
 مرض فزادهم رجسا إلى رجسهم » (براءة ١٢٥) (أنى
 قلوبهم مرض أم ارتابوا) (النور ٥٠) (أم حسب الذين
 في قلوبهم مرض أن يخرج الله أضغانهم) (القتال ٢٩)
 على أنه مهما يكن مدلول مرض القلب فإن القلب هو مناط
 النفاق كما هو مناط الايمان وهو سر من الاسرار التي لا يعلم
 حقيقتها ولا يحيط بمكنونها إلا الله تعالى . وهو الى جانب ذلك

شديد القلب والتغير تتردد عليه الخواطر وتتوارد عليه النزعات
روى ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري قال : مثل القلب ريشة
تقلبها الرياح بفلاة ، ولهذا المعنى قال الله تعالى « واعلموا أن
الله يحول بين المرء وقلبه » ، (الانفال ٢٤) ولهذا أيضاً كان
النبي صلى الله عليه وسلم يقول في صلاته : اللهم يا مقلب القلوب
وبت قلوبنا على طاعتك ، ولهذا كان تمييز المنافقين على وجه القطع
ومعاملتهم والحكم عليهم أمراً غير ميسور ولا مستطاع فترك
الأمر بمعاملتهم بمقتضى الظاهر . كما تركت لهم الفرصة لاصلاح
شأنهم - وصاروا أمثلة حية تقضى بضرورة التباعد عن مزلق
النفاق ومواطن الريبة .

والقلب وإن دل على ذلك العضو من البدن الذي يقبض
الدم من الاوردة فينشره على الرئتين لتطهيره ثم يقبضه من الرئتين
بعد تطهيره فيبسطه في الشرايين الى كافة البدن إلا أنه يدل أيضاً
على لطيفة غير متجسمة هي عنصر الحياة الاول وإليها ترجع كل

عمائد الانسان وما يفعله من خير أو شر . وفي علاقة القلب مع العقل والنفس والروح وتعريف كل منها وتمييزه استغرق الفلاسفة والعلماء منذ الازمان السحيقة في القدم في التفكير وتشعبت نظرياتهم - كما ذكر أصحاب العلوم الظلمانية في تفصيل تكوين الانسان من حيث عناصره المادية وغير المادية تفصيلات كثيرة وأسماء عديدة ذكر بعضهم منها القاب كما ذكر بعضهم أسماء أخرى . وليس هنا مجال تفصيل لذلك وإنما نذكر أن القرآن الكريم نسب الى القلب الاعمال الصالحة والفسادة كما نسب اليه الكفر ووصف القلب قارة بالسلام وأخرى بالقسوة والموت وطورا بالمرض .

ولا شك أن الكذب والنفاق والخيانة أشد الاخطار على النفس الانسانية ، وأعسر أمراضها علاجاً ، قال تعالى : (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) وروى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الصدق يهدي الى البر ، وإن البر يهدي الى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى

يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي الى الفجور ، وإن
الفجور يهدي الى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند
الله كذاباً .

انتشار الكذب ومع ذلك فانا لنرى الآن بأعيننا ونسمع
بآذاننا سطوة الكذب وشهرته حتى لم يترك طبقة ولا صنعة إلا
وذاع فيها أمره ، وطرق البيوت وتشعب بين أفراد الأسرة كما
تفشي بين الجماعات وإن الأب والام ليداعبان أطفالهما
بالكذب فكاهة وملاحة - ثم اعتبر الكذب فوق ذلك من
ضروريات الحياة ، فالتاجر والصانع يرون أن بضاعتهم تكسدهم
إذا لم تروجها الايمان الكاذبة وغيرهم يدسون الكذب أفانين
ويعتبرون تارك الكذب من أصحاب الغفلة ويقيسون مقدار
الذكاء بدقة النفن فيه ولا ينجلون إذا ما انكشف الامر ، وقد
يتعلل البعض بأقوال من إحياء الشيطان أيسرها أن الكذب
للمصلحة جائز . ولم ينبج من هذا المرض غنى ولا فقير ولا عظيم
ولا حقير : يستعمل الغنى والوجيه الكذب للتهديد والتحويل

ويستعمله الفقير والصغير للسكر والخداع والتماص من جبروت
 الأغنياء والزعماء وخاصة الاطناب في المدح والاعراق في الاشادة
 بفضل من لا يستحق إلا الالهانة واللعن - وغير ذلك في هذا
 الشأن كثير متشعب الاطراف . وليس نصيب الامانة بأحسن
 من نصيب الكذب . فقد أخذت الخيانة بالقلوب والعقول
 وتفتقت لها الازهان والحيل وكل ذلك أزاح الايمان عن موضعه
 وأشغله محله . وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤيد
 بالمعجزات كان ينظر من وراء الغيب الى ما نحن فيه قال صاحب
 سره حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فيما يرويه مسلم حدثنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا
 أنتظر الآخر : حدثنا أن الامانة نزلت في جذر قلوب الرجال
 ثم نزل القرآن فعملوا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا
 عن رفع الامانة قال : ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه
 فيظل أثرها مثل الوكت (الاثر اليسير) ثم ينام النومة فتقبض
 الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل الحجل (أن يكون بين الجمل
 واللحم ماء) كجمر دحرجه على رجله فنقط فتراه منبتر

(مرتفعاً) وليس فيه شيء - ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله -
 فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن
 في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه
 ما أعقله وما في قلبه منقال حبة من خردل من إيمان - ولقد أتى
 على زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردن على دينه ،
 ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، وأما اليوم فما
 كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً .

وهكذا أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يبعد أمته عن أشد
 الأمراض الاجتماعية خطراً على المجتمع وعلى النفس إذ تهوى
 بها إلى خصائص النفاق .

معرفة كثير من المنافقين أما المنافقون فإن الكثير منهم كان

معروفاً للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين وكان ينزل على
 الرسول بين آت وآخر ما يفثه بأخبارهم . قال أبو بكر
 الأصم : إن قوماً من المنافقين اصطاحوا على كيد في حق
 الرسول صلى الله عليه وسلم ثم دخلوا عليه لاجل ذلك الغرض

فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره به فقال صلى الله عليه وسلم :
« إن قوماً دخلوا يريدون أمراً لا ينالونه فليقوموا وليستغفروا
الله حتى أستغفر لهم فلم يقوموا فقال ألا تقومون ؟ فلم يفعلوا
فقال صلى الله عليه وسلم قم يا فلان قم يا فلان حتى عدد اثني
عشر رجلاً منهم فقاموا وقالوا كئنا عز منا على ما قلت ونحن
نتوب الى الله من ظلمنا أنفسنا فاستغفر لنا فقال الآن اخرجوا
أنا كنت في بدء الأمر أقرب الى الاستغفار وكان الله أقرب
إلى الإجابة اخرجوا عني فنزل في ذلك قول الله تعالى :
« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله
واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً »

الفاء ٦٤

كذلك عرف النبي عليه السلام عصاة المنافقين الذين
تأمروا عليه ليلة العقبة عند عودته من تبوك واستكتم أمرهم
صاحب سره حذيفة اليمان رضي الله عنه ، حتى قيل إنه علم من
النبي صلى الله عليه وسلم جميع أمر المنافقين وحتى إن عمر بن

الخطاب رضى الله عنه كان يدعو في خلافته حذيفة ابن اليمان
للإشتراك معه في الصلاة على موتى المؤمنين فاذا امتنع حذيفة
من الصلاة علم عمر أن المتوفى منافق فترك الصلاة عليه
عملاً بقول الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا
تقم على قبره) .

وقد روى أكثر من ذلك أن أسماء المنافقين ذكرت في
القرآن ثم حذفت وأرى أن هذه مبالغة من أصحاب هذا القول
لأن نصوص القرآن واضحة وصريحة أن الله تعالى جعل النفاق
موضعاً للاختبار والابتلاء والنظر ، يدل على ذلك قوله تعالى :
« ومن حوّلكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة
مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » (براءة ١٠١)
« ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في
الحن القول » (القتال ٣) وهذا يدل دلالة قاطعة أن الله تعالى لم
يظهر ضمائر المنافقين ولم يبرز أسرارهم لأن مشيئته اقتضت ذلك

تقريراً للمبدأ العام الذي سنه الله في خلقه وهو اختصاصه تعالى
 بالضمائر وأسرار القلوب وهو تعالى لا يكلف النفوس إلا وسعها
 وإنما وضع كثيراً من الطرائق لامتحان القلوب وجعلها محلاً
 للنظر والتدبر واستعمال الفكر واكتساب العلم قال الله تعالى
 (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الله الخبيث
 من الطيب وما كان الله ليظلمكم على الغيب) كذلك ترك السبيل
 مفتوحاً للمنافق أن يصلح سيرته ويصدق في إيمانه قبل أن
 تنبتك أسرارته ويفتح أمره - وما كان المنافقون يخلون في أكثر
 أوقاتهم من تهتك أستار البعض منهم وكشف أسرارهم . وقد
 توعدهم الله في القرآن بذلك فقال : « يحذر المنافقون أن
 تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، قل استهزؤا ،
 إن الله مخرج ما تحذرون » (براءة : ٦٤) (أولاً يرون
 أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا
 هم يذكرون) (براءة : ١٢٦)

المنافقون لم يكونوا على درجة واحدة في النفاق على أن المنافقين
لم يكونوا على درجة واحدة من النفاق فمنهم من كان أمره مكشوفاً
كعبد الله بن أبي ومعتب بن قشير ، وكانت أعمالهم تتم عن داخل
نفوسهم بسهولة وبدون عناء . ولكن كثيراً منهم كان أعمق
نفساً وأكثر تفناً فاتخذوا النفاق حرفة وصاروا فيه أساتذة
فلم يستطع أحد أن يعلم حقيقة أمرهم حتى الرسول عليه السلام
يدل على ذلك قوله تعالى (لا تعلمهم نحن نعلمهم) (براءة ١٠١)
وقد كان هذا الصنف من أشد الأصناف خطراً حيث كان يعتمد
إلى أفعال الأذى في الخفاء يقصد بها النبي صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين ، وحيث كان يمتحن أخطر أنواع الجاسوسية وينقل
أخبار المسلمين إلى أعدائهم . وأغرامهم ما كان يعاملهم به رسول
الله صلى الله عليه وسلم حيث كان يجري أمرهم على الظاهر ولا
يسالغ في التفتيش عن بواطنهم ولا يسعى في هتك أسرارهم ،
فادعوا أن الرسول عليه السلام أذن وقالوا ما هذا الرجل إلا
أذن من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له . وقد روى عن ابن

عباس رضى الله عنهما أن جماعة من المنافقين ذكروا النبي صلى الله عليه وسلم بما لا ينبغي من القول فقال بعضهم لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ما نقول فقال الجلاس بن سويد بل نقول ما شئنا ثم فذهب إليه ونحلف أنا ما قلنا فيقبل قولنا وإنما محمد أذن سامعة . كذلك أورد ابن هشام والحلي أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عن رجل من بني عمرو بن عوف من الخزرج يدعى نبشل بن الحرث ، يجلس إليك رجل أدلم ثائر شعر الرأس أسفع الخدين أحمر العينين كأنهما قدران من صفر ، كبده أغلظ من كبده الحمار ، ينقل حديثك إلى المنافقين فاحذره ، (*) وقد أنزل الله تعالى في هذا الشأن

(*) الأدلم : الأسود الطويل أو السترخى الشفتين

ثائر شعر الرأس : أى مرتفعه منتشره

السفعة : حمرة تضرب للسواد

(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ، قل أذن
خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا
منكم والمذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) .
(براءة ٦١)

على أن هذا لا يمنع أن كثيراً من المنافقين لم يعلم عنهم شيء
لأنهم اكتفوا باظهار الإيمان تقية من القتل ولم يقوموا بأى
عمل إيجابى ضد المسلمين .

الباب الثالث

معاملة المنافقين

أهمية البحث قد تكون معاملة المنافقين من أهم الموضوعات التي تتعلق بهذا البحث . فالنفاق يتدرج في درجاته وقد يكون تافها قاصراً على الاختفاء بالسريرة تقية من القتل والسكر أوائل الشر تطلب أو آخره فتزداد شرته حتى يكون الجاسوسية الخطرة التي من شأنها قلب الأنظمة والأوضاع وإدخال الفشل وإيقاد الفتنة

الجاسوسية في الحرب والسلام ومقاومتها في العصر الحاضر وإنا نرى الآن بأعيننا ونسمع بأذاننا ما هي طرق الجاسوسية في أعمال الحرب والسلام . ونعلم كثيراً أو قليلاً عما تقوم به ما تسمى أقلام المخابرات السرية بين الدول في الحرب والسلام والوسائل الشاذة

التي تتخذها للوصول إلى أغراضها دون مبالاة بشيء من خلق
أو فضيلة ولا تتوانى عن ارتكاب أفظع الجرائم وأقسى الأفعال
وإلى جانب ذلك تفهمن واسع في ضروب الدعاية حتى انتهى
الامر إلى استمرار الحرب الخفية بين تلك الأقلام لانهاد نارها
ولو وضعت الحرب الظاهرة أوزارها

والواقع أن مقاومة النفاق بصفة عامة والجاسوسية بصفة
خاصة يحتاج إلى شيء كثير من الذكاء والخصافة وحدة الرأي .
والذي نشاهده على وجه العموم أن القاعدة الأساسية في مقاومة
النفاق ليست هي الأخذ بأول الظن وإنما هي التلطف والاستدراج
للإمام بما يدبره العدو وبدقائق كيدته ثم تكون المقاومة منصبة
على إفساد التدبير وإحباط الكيد وفي هذا ما فيه من إنهاك
الروح المعنوية

أما إذا انكشف أمر الجاسوس وظهر خطره سافراً إلى
الغيان فإن الموقف يتغير كل التغير ولا يبقى هناك محل للتلطف
والاستدراج وإنما جزاءه القتل أو العقوبة الشديدة التي تقيده
وتجرده من القدرة على أي عمل

علاج النفاق ذلك ما يحرى عليه العمل الآن بين الدول
والحكومات وهو علاج النفاق بالنفاق ثم هو عداوة سافرة
وعقوبة لارحمة فيها إذا انكشف الأمر فأما في عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقد اختلف الأمر عن ذلك اختلافاً كبيراً
فالرسول الكريم كان أبعد الناس عن حب الانتقام والأخذ
بالثأر وهو الذى صبر أكبر الصبر على أذى المشركين وأعوانهم
واشتد الأذى حتى أغروا به السفهاء والعبيد يسبونونه ويصيحون
به وقذفوه بالحجارة حتى دमित قدماه فدعا الله أن يهديهم
وقال اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . ووصفه الله تعالى في كتابه
العزیز فقال « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم
حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ولهذا لم يعالج الرسول
عليه الصلاة والسلام النفاق بالنفاق . فالنفاق خلق ذميم ، وهو
أشد ما يكون بعداً عن الرسول الكريم . وكان الى جانب ذلك
أشد الناس ذكاء وحصافة مؤيداً بالمعجزات وتجلت صفاته
الباهرة فى معاملته لهذا الصنف من الناس

أقسام الناس حسب ظاهر العقيدة ولقد انقسم الناس حسب

العقيدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أربعة أقسام
«١» مؤمنون «٢» وكفار محاربون «٣» ومؤمنون من غير عقد
الجزية أى أن النبي صلى الله عليه وسلم صالحهم ووادعهم على
الآ محاربوه ولا يظاهروا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون على
أنفسهم وأموالهم «٤» وأهل ذمة وهم الذين عقدت
لهم الجزية

أما انقسامهم حسب باطن عقيدتهم ، فهو التقسيم الذى
أورده الله تعالى فى أول التنزيل ، أى الى مؤمنين و ~~ك~~فار
ومنافقين .

القاعدة الأساسية فى معاملة المنافقين والقاعدة الأساسية التى
اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع شأن المنافقين
وأحوالهم كانت تتلخص فى معاملتهم حسب ظاهرهم فكان
يجرى أمرهم على هذا الظاهر ولا يبالغ فى التفتيش عن بواطنهم
ولا يسعى فى هتك أستارهم ، وكان يقول إن الله تعالى يتولى
السرائر . وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد تولى الله

تلك السرائر المريضة فأخرج أضغانها وأهلكتها أحقادها. وكان ذلك سبباً أن آمنوا في النفاق ورموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أذن أنه ليس له ذكاء ولا بعد غور ، وأنه سريع الاغترار بكل ما يسمع ، وصحح الله الوصف بقوله تعالى « قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم » .

ولقد انكشف أمر كثير من المنافقين في الحروب وغير الحروب وخاصة فيما قام به ابن أبي من القبائح في غزوة أحد وبني المصطلق وتبوك ونزل في شأنه كثير من الآيات التي فضحت أعماله حتى عرض ابنه على النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل أباه فأبى ذلك ماضياً في الطريق التي ارتسمها معه ومع أمثاله المنافقين دون أن يخصص أو يحمند لهم فرقة لمقاومتهم والتجسس عليهم واتخاذ النفاق لكشف أستارهم

هذه القاعدة الأساسية التي عومل بها المنافقون هي القاعدة التي لا مناص من الأخذ بها في هذا الموضوع لأنها القاعدة

الوحيدة التي تتفق مع العقل والمنطق السليم . ومناطها ان العلم
بحقيقة السرائر يستحيل على العقل البشرى الجزم به . وانما العلم
بها على حقيقتها عند الله وحده . ولهذا السبب لا يمكن أن يترتب
على مجرد الظن حكم شرعى . صحيح أن بعض الأحداث قد تكشف
الكثير من مكنونات القلوب ويتميز بها الخبيث من الطيب ،
ولكنها لا تؤدي الى القطع بمكنون النفس ، وخاصة فيما يتعلق
بالحكم على انسان بالإيمان أو الكفر الا اذا كانت الأحداث
في ذاتها بما يترتب عليه حكم من الأحكام

النهي عن الحكم بالظن وقد ورد في كتاب الله وهدى رسوله
زجر شديد لمن رأى أن يرتب الأحكام على الظن . فقد روى
البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان رجل في غنيمة
له فلحقه المسلمون فقال « السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غنيمة
فأنزل الله في ذلك (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل
الله فمبينةوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا
فتمتعون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك

كنتم من قبل فن الله عليكم فتبينوا ، إن الله كان بآعمالكم

(خيرا ...) (النساء ٩٤)

فحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم دينه الى أهله ورد عليه غنياته — وقد روى أكثر كتاب السير أن القاتل كان محمداً بن حنيفة وأن المقتول عامر بن الأضبط وأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على محمداً فما عاش بعد ذلك إلا سبعة أيام ثم دفن فلم تقبله الأرض ثم دفن فلم تقبله ثم دفن ثالثاً فلم تقبله ، فلما رأوا أن الأرض لا تقبله ألقيوه في بعض تلك الشعاب ، وقال النبي عليه السلام إن الأرض لتقبل من هو شر منه وفسر الحسن البصري بأن عدم قبول الأرض له كان وعظماً للقوم حتى لا يعودوا لمثل ذلك .

وروى ابن ماجه عن عمران بن حصين قال : بعث رسول الله

صلى الله عليه وسلم من المسلمين الى المشركين فقاتلوهم قتالاً شديداً فنهضوا أكتافهم فحمل رجل من لخمى على رجل من المشركين بالرماح فلما غشيه قال أشهد ألا إله إلا الله إني مسلم فطعنه فقتله

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت
قال وما الذى صنعت مرة أو مرتين فأخبره بالذى صنع فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلا شققت عن بطنه فعلمت
ما فى قلبه فقال يا رسول الله لو شققت عن بطنه أ كنت أعلم ما
فى قلبه قال لا فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما فى
قلبه . ثم سكنت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يلبث
يسيراً حتى مات فدفناه فأصبح على وجه الأرض فقلنا لعل عدواً
نبشه فدفناه ثم أمرنا غلماننا يحرسونه فأصبح على ظهر الأرض
فقلنا لعل الغلمان نعسوا فدفناه ثم حرسناه بأنفسنا فأصبح على
ظهر الأرض فالقيناها فى بعض تلك الشعاب

ويتضح من هذه القصة فى جلاء لا يتطرق اليه الشك أن
القلوب أمرها مغلق لا يعلمه إلا الله ، وكان فى تعبير الرسول
الكريم عن استحالة الاطلاع على القلوب أكبر العظة والعبرة .

السبب فى عدم قتل المنافقين وآراء الأئمة فى ذلك وقد نشأ بين الفقهاء

فى هذا الصدد مسألة علمية فقهية كانت موضعاً لكثير من النقاش
والجدل بين الأئمة وهذه المسألة هى تفصيل السبب الذى من أجله

مسك النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه
بنفاقهم .

قال الإمام مالك رحمه الله : النفاق في عهد رسول الله صلى
الله عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم فيقتل الزنديق إذا شهد
عليه دون استتابة وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
قتل المنافقين ليبين لامته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذا لم يشهد أحد
على المنافقين — وقد نقل في ذلك أنه لم يشهد على عبد الله بن
أبي إلا زيد بن أرقم وحده ، ولا على الجلاس بن سويد إلا
عمير بن سعد ربيبه ، ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره
ونفاقه لقتل . وقد رد على ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام
حكم بقتل الحارث بن سويد لأنه قتل المجذر بن زياد غيلة في
موقعة أحد أخذاً بالشار لأن المجذر قتل أباه سويدا يوم بعاث .
وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الاغتيال أعلمه به جبريل
عليه السلام وقضى بقتل الحارث لهذا العلم . كذلك رد عليه بأن
قاعدة أن القاضي لا يحكم بعلمه إنما يستند على الإجماع ، والإجماع
لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد النبي صلى الله عليه وسلم وانقطاع

الوحي ، وإذن فلم يكن هذا سببا في امتناعه صلى الله عليه وسلم
من قتلهم وخاصة أنه قال في صراحة واضحة لا تحتمل التأويل
إنه إنما يحكم بالظاهر وأن الله تعالى يتولى السرائر . وقد عرض
عمر رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأذن في قتل
ابن أبي فركان رده وترعد له إذن أنف كثيرة بيثرب ، ثم كيف
إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه . كذلك عرض أسيد
ابن حضير رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل
المتأمرين عليه في العقبة عند عودتهم من تبوك فقال صلى الله
عليه وسلم اني أكره أن يقول الناس ان محمداً قاتل بقوم حتى
إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم . فقال يا رسول الله
هؤلاء ليسوا بأصحاب فقال رسول الله أليس يظهرون الشهادة ؟
وهذا يدل دلالة واضحة أن الامتناع عن قتلهم كان سياسة
حكيمه أطفأت نار الفتنة كلما حاولت أن تستعر

وللشافعي رأيان الأول موافق لرأي الامام مالك والثاني هو
أن من شهد عليه بالزندقة فجحد وأعلن الإيمان وتبرأ من كل دين
سوى الاسلام أن ذلك يمنع من اراقة دمه . وقد وافقه على

هذا رأى الامام أبو حنيفة وأصحابه والامام احمد بن حنبل ،
وقال الطبرى فى الموافقة على هذا رأى أن الله تعالى جعل
الاحكام بين عباده على الظاهر وتولى الحكم فى سرائرهم دون أحد
من خلقه فليس لأحد أن يحكم بخلاف ماظهر لأنه حكم بالظنون
ولو كان ذلك لأحد لكان أولى الناس به رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا
ووكّل سرائرهم الى الله . وقد كذب الله ظاهرهم بقوله « والله
يشهد إن المنافقين لكاذبون ، وانما يلاحظ أن الآية الكريمة
لم تعين أشخاص المنافقين وجاءت بحكم عام فيه توييح لكل
مغموص عليه بالنفاق وبقى لكل واحد منهم أن يقول انى لست
المقصود منها وما أنا إلا مؤمن .

وهناك رأى لأصحاب الشافعى وهو أن النبى صلى الله عليه
وسلم لم يقتل المنافقين لأن الزنديق الذى يسر الكفر ويظهر
الإيمان يستتاب ولا يقتل - وقد رد على ذلك أن النبى عليه الصلاة
والسلام لم يستتبهم بل كان معرضاً عنهم مع علمه بهم وليس

استتابة الزنديق واجبة . والواقع أن هذا الرأي لا يؤدي الى
أى نتيجة لأن الاستتابة على فرض حصولها لا ينتهى أمرها
إلا إلى أمر واحد وهو إظهار التوبة إمعاناً فى النفاق
والتضليل .

معنى الزندقة والملاحظ من مراجعة هذه الأقوال أن الفقهاء
قد استعملوا فى هذا الصدد لفظ الزندقة وجاء لونها
مرادف النفاق . واعتبر الإمام مالك رحمه الله أن النفاق كان فى
عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط وأن الذى يقابله بعد
ذلك العهد هو الزندقة وإذا رجعنا إلى هذا اللفظ ومدلوله وجدناه
لفظاً عاماً يدل على ضروب كثيرة من الكفر منها النفاق ولم
يستعمل هذا اللفظ إلا بعد فتح بلاد فارس والروم والهند
واقصال المسلمين بأصحاب هذه البلاد وأهلها . وقد كان بهذه
البلاد ديانات عديدة شملت عقائد مختلفة أسست على قواعد
راسخة من الخيال والميثولوجيا (الخرافات) لا تمت إلى الحقائق
بسبب وليس فيها من الحق إلا النزر النادر اليسير . ومثال ذلك

الديانات الثنوية والمجوسية والبرهمية والمناوية والمزدكية والصابئة (*).

(*) الديانات الثنوية فرق من الكفار يزعمون أن للعالم إلهين إله للنور اسمه بردان وإله الظلمه واسمه أهرمن وأن الأول إله الخير والثاني إله الشر — وهذه الديانات فرق وطوائف منها المناوية والمزدكية والزرادشتية ثم المامونية والديسانية — وكلها ديانات وثنية مليئة بالعقائد الخرافية زعم أصحابها أن المعبودات قسمان منبثقان من أصلين أزليين أحدهما فاعل للخير، والثاني فاعل للشر وزعموا أن فاعل الخير أدنى من فاعل الشر وإن الأول سيتنصر على الثاني انتصاراً تاماً. ويلاحظ أن هذا المذهب الخرافي انتقل الى كثير من البلاد بصور مختلفة بين الأمم القديمة حتى أن فلاسفة اليونان كرروا ذلك وقالوا أن المقصود هو تقرير الشر وايضاج تركيب العالم وبقائه وان الاصلين هما الروح والعقل وان الروح هي المبدأ للفاعل وأنه لولا المساده لم يكن لهذا الروح ان يخلق العالم كما ذهب أفلاطون وأصحاب مذهب الرواقين أن

دوام المادة هو سبب الشر .

اما البراهمة فديانة منسوبة الى برهم معبود الهند الاول وهو
عندهم أصل الموجودات وانه واحد ازلى مطلق غير متغير ولا
مدرك ، سابق لكل مخلوق خلق العالم كله بمجرد ما أراد دفعة واحدة
بقوله أوم أى كن — وقالوا ان برهم هذا عبارة عن تشخيص
لجميع القوى الباطنة والظاهرة فى الانسان وفى جميع العالم مجتمعة
فى فرد مستمر زمناً طويلاً على حالة واحدة ثم يجعلون من هذا
الفرد اسماً للاقانيم الثلاثة التى يتألف منها ثلاث الهنود وهى برهما
ووشنو وسيوا ويزعمون ان الكائنات الاولى ولدت من اتحاد النور
الذى تولد من برهم المسمى مارتشى الذى اتحد مع الخلاء المسمى
فاسيابا — ولأصحاب هذه الديانة تفاصيل كثيرة عن برهما وكيف
ينبثق فى نفسه فى الاقانيم الثلاثة ثم يروون قصصاً طويلة عن عجبه
وكبريائه وزواجه ومساعديه وأولاده وغضبه وخصامه مع اولاده
ونسله وكلها على طولها وتشعبها منشورة فى كتبهم وخصوصاً
كتابهم المقدس المسمى فيداس وهو لا يزيد فى هذا الشأن عن خرافات
مستغرقة فى الخيال والكفر .

وكلمة زنديق فارسية معربة تختلف في أصلها فقييل (١)، إنها معربة عن زنده نسبة إلى زند وهو كتاب أظهره مزدك صاحب الديانة المزدكية وهي إحدى الديانات الثنوية في زمن كسرى قباد ففسب إليها أصحابه وهي ديانة تشبه في مبادئها ما يسمى بالشيوعية في العصر الحاضر إذ أنه يبيح الاشتراك في المال والنساء كاشتراك الناس في الماء والكلاء. وقيل (٢)، إنه معرب عن زندا وهو دين المجوس. وقيل (٣)، أنه معرب عن الكلمة الفارسية زين دين أي صاحب الدين إشارة إلى من يعتقد بديانة زراوشت.

وقد اختلف في تعريف الزنديق فقييل (١)، إنه الثنوي القائل بوجود خالقين إله النور بردان وإله الظلمة أهرمن وأن الأول إله الخير؛ والثاني إله الشر. وقيل (٢)، إن الزنديق من لا يؤمن بالله والربوبية وينسكرو وجود الباري. جل شأنه، أو

من يدعى أن له شريكاً أو ينكر حكمته — قال ابن الراوندى :

كم عاقل عاقل أعيت مذهبها

وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

هذا الذى ترك الأوهام حائرة

وصير العالم النحرير زنديقاً

وقيل أيضاً ٣٠، إن الزنديق هو من يبطن الكفر ويظهر

الإيمان . وفى هذا قيل :

بغداد دار لأهل المال طيبة

وللهفليس دار الضنك والضيق

ظلت حيران أمشى فى أزقتها

كأننى مصحف فى بيت زنديق

وقيل أيضاً ٤٠، إن الزنديق من لا يتدين بدين أصلاً . ومن

هذا يضح أن كلمة زنديق استعملت استعمالاً واسعاً بحيث شملت

الكافر المجاهر بالكفر كما شملت المنافق . وقد قسم الفقهاء الحكم

على الزنديق بصفة عامة إلى وجهين أولهما أن يكون كافراً في الأصل وحكمه أن يترك على كفره إلا إن كان محارباً . والثاني أن يكون مسلماً فتزندق فإنه يعتبر مرتدأ ويقتل على التفصيل السابق إirاده . وقد ألحق بالزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان .

تشعب الفرق والزندقة وهذا الوضع إنما أتى من الاشكالات المتشعبة التي عرضت للمسلمين بعد أن فتحوا بلاد فارس والروم والهند فقد كان أصحاب هذه البلاد يدينون بديانات مختلفة معتمدة على الخرافات ولكن وضع لها أوضاع فلسفية منمقة يسهل بها إدخال الفتن على ضعاف العقول ، ويضاف إلى ذلك أن كثيراً من أهل تلك البلاد دخلوا في دين الاسلام إن صدقا وإن كذباً ، وما زالت العقائد التي كانوا يدينون بها محتشدة في رؤوسهم . فعمد بعضهم إلى اعتناق الدين الاسلامي ، ولكنه لم يستطع أن يذبذ جميع عقائد الكفر وحاول أن يدخلها على الاسلام أو يوفق بينها وبين مبادئه . كما أن البعض الآخر لم

يدخل في الاسلام إلا رياء وتضليلة ، وعمد الى إدخال الزيف على العقائد الاسلامية وصبغ الزيف بالأوضاع الفلسفية المزيفة المعقدة ، ونتج عن ذلك أن تكون عدد كبير من الفرق واشتغل العلماء والفقهاء في جميع العصور التي تلت ذلك يبحث هذه العقائد وتمحيصها ونقي الزيف منها وتفنيد فلسفاتها ، وأطلق لفظ الزندقة على جميع المذاهب والفرق التي تتعارض مع أصول الدين الاسلامي ، وألحق بها من يطن الكفر ويظهر الايمان .

أشكال النفاق بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والواقع أن النفاق
قد افتتح بعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم صحفاً جديدة واتخذ أشكالاً واسعة ، وقد كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم محصوراً في جزيرة العرب بل في المدينة والبوادي التي حولها . فما إن اتسعت رقعة الاسلام بالفتوحات حتى اتسعت دوائر النفاق وتكاثرت شياطينه في كل مكان ، واتخذ من الصور أشكالاً لا يبعدها الحصر ، ودخل في الخلافة والسياسة والحروب ، كما دخل في العقائد والفقه والنشرية وغير ذلك ، وتعمق أصحابه

في التفتن والابتداع حتى وضعوا الأحاديث المسكوبة ونسبوا
 للنبي صلى الله عليه وسلم وأدخلوا في الدين ما ليس منه ، ولا
 تزال آثار هذا النفاق تملأ الكتب كما تملأ النفوس . وتفصيل
 ذلك خارج عن موضوع هذا الكتاب . وإنما يهمنا هنا أن نشير
 فقط أن الزندقة كما تشمل النفاق فإنها تشمل ضروباً أخرى من
 الكفر ، وليس هناك ما يلزم قصر النفاق على عهد رسول الله
 عليه السلام . وقد اتخذ عمر رضى الله عنه في معاملة المنافقين
 إبان خلافته بقواه : أيها الناس إن الوحي قد انقطع ، وإنما
 نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فن أظهر خيراً
 أمناه وقربناه ، وليس لنا من سريرته ، الله يحاسبه في سريرته
 ومن أظهر سوءاً لم تؤمنه ولم تصدقه ، وإن قال إن سريرته
 حسنة .

ملخص آراء الأئمة وإذا راجعنا آراء الأئمة الأربعة فيما

يتعلق بالحكم على المنافق أو كما أطلق عليه اسم الزنديق فرى أن
 حكم الأئمة الثلاثة أبو حنيفة والشافعي وأحمد يقول إلى عدم

قبل المنافق والاعراض عنه وهو ما جرى عليه الأمر على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يقتضى أن الحكم إنما يكون
طبقاً للظاهر وأن الله تعالى هو الذى يتولى السرائر . ولقد
حاول ابن أبى محولات كثيرة للقضاء على النبي عليه السلام وعلى
المسلمين وانكشف أمره فى أغلب محاولاته ، وأذى النبي عليه
السلام إيذاء بالغاً وصل إلى حد الطعن فى عرض زوجته المكرمة
فما عمد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الانتقام ومررت الزواجر التى
أثارها ابن أبى بالسلام والظفر للمؤمنين ، وأثبتت الأيام أن
تلك السياسة هى التى قضت على المنافقين . ولو أن النبي صلى الله
عليه وسلم اتخذ سياسة أخرى وهاجم من ثبت عليهم النفاق فقتلهم
لوجد رؤساء القبائل من ذلك ذرائع لا يغار الصدور ولا تفتح
باب الأخذ بالظن على مصراعيه ، ويضاف إلى ذلك أنه كان بين
المنافقين من يتردد ولا يقطع بتكذيب النبي عليه السلام ولا
يصدق كما كان فيهم من يعرف صدقه ويعانده .

هدم النفاق عن شأن المنافقين وجهادهم ولا يتطرق إلى الذهن

أن المقصود بسياسة ترك المنافقين وعدم محاسنتهم هو التغافل
عن شئونهم ومكانتهم فإن ذلك ليس من الحزم في شيء، بل إن
من شأنه أن يمكنهم من تحقيق ما يكيدونه ونشر الفساد الذي
يبيغونه. والقرآن لم ترد نصوصه في هذا الشأن على وتيرة واحدة
فقد أمر الله تعالى رسوله الكريم مراراً بالأعراض عنهم
فقال تعالى « والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل
على الله، وكفى بالله وكيلاً » (النساء ٨١) « يحلفون بالله
لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم، فأعرضوا عنهم
إنهم رجس » (براءة ٩٥) وإلى جانب ذلك يأمر الله تعالى
بجهادهم في قوله : « يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلاظ
عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » (براءة ٧٣، التحريم ٩)
ولا شك أن المراد بمجاهدة المنافقين في هذه الآية ليست محاربتهم
بالسيف كمحاربة الكفار لأنهم كانوا يظهرون الإسلام
وينكرون الكفر، فجهادهم كان من نوع آخر لأنه في حد ذاته

عبارة عن بذل الجهد ، والآية الكريمة لم تحدد هذا الجهد فهو
يقتل على طرق لا حصر لها من إظهار الحجة والدعاية الحسنة
والأخذ باللين أو بالشدّة حسب الظروف الملائمة . وفي هذا
أبلغ الإعجاز إذ يترك الباب مفتوحاً للذكاء أن يتخذ ما يستطيعه
من الوسائل لأحياء كيد النفاق في حدود ما أحل الله دون
اقتحام لأبواب الآثام والمنكرات .

ويستفاد من النصوص القرآنية أن النبي صلى الله عليه وسلم
كان شديد الرأفة والحرص على الناس ، ويفسح لهم من صدره
الشريف أكبر الانساح ، وعاتبه الله تعالى في بعض ذلك ،
كما حدث في قبوله استئذان المنافقين للتخلف عن غزوة
تبوك وغيرها ، كما أمره بعدم الحزن عليهم بقوله :
« يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ
الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ »
(البقرة ١٧٧)

ومع ذلك فقد أنزل الله تعالى كثيراً من التعليلات التي من شأنها انتقاء شرور المنافقين كان من أهمها عدم موالاتهم والاختلاط بهم والتنبية إلى صفاتهم وأحوالهم ومكانتهم .
وسنفرد فيما يلي شيئاً مما ورد عن ذلك .

النهي عن موالاة المنافقين

ورد النهي في الأصل عن اختلاط المؤمنين بالكفار من أهل الكتاب والمشركون ، أو ربط أو اصر الصداقة والوفاء معهم أو موالاتهم ، وذلك في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . » فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتنة أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ، (السائدة ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣) ولهذا كان الانضمام إلى الكفار وموالاتهم مخالفة صريحة للقرآن ، وكان من أعظم الدلالات على النفاق ، ومن أخص خصائص المنافقين الذين

كانوا يوالون الكفار ويعاهدونهم في السر وأحياناً في العلن .
وقد سبق القول أن الحوادث قد كشفت وجود عهد سرية
مستورة بين عبد الله بن أبي وبين يهود المدينة ، وأنهم كانوا
يعقدون اجتماعات كثيرة للتآمر ، وأن الكفر والضغن كانا
يجمعان بين قلوبهم : يقول بعضهم لبعض إن أمر محمد لن يتم فيقول
اليهود إن العزة والمنعة لهم ، أي الكفار الأوس والخزرج
من الوثنيين المنافقين الذين راحوا لليهود يستجدون منهم
الإشادة بذكر عزة ومنعة لا وجود لهما إلا في رؤوسهم
الخاوية .

اشتراك اليهود في النفاق وقد ساعد على وجود التآمر عن
طريق الموالاة أن بعض اليهود اشتركوا في النفاق ، وكان منهم
منافقون أمثال أوس بن قبيط وشاس بن قيس وزيد بن اللصيت
ومشوا في النفاق على سنن ابن أبي وأحزابهم . وقال الله تعالى في
شأنهم (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل
على الذين آمنوا وجه النمرار واكفروا آخره لعالمهم

يرجعون) (٣٧ مرات ٧٢) (وإذا جاءكم قالوا آمنا
وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما
كانوا يكتُمون) (المائدة ٦١)

وكان المشركون في مكة يخوضون في مجالسهم في ذكر القرآن
ويستهزئون به ، فأنزل الله تعالى : « وإذا رأيت الذين
يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث
غيره ، وإما ينسى فك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع
القوم الظالمين » (الأنعام ٦٨) فلما هاجر النبي صلى الله عليه
وسلم إلى المدينة فعل أجبار اليهود مثل فعل المشركين من
الاستهزاء ووافقهم المشركون كما وافقهم المنافقون . فساوى
الله تعالى بين المنافقين وأولئك الأجبار في الكفر ، ونهى عن
مواالاتهم والاختلاط بهم . وفي ذلك يقول الله تعالى :
(بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون

الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتنفون عندكم العزة ،
فإن العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا
ممنكم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى
يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذن متلهم ، إن الله جامع
المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) (النساء ١٣٨ وما بعدها)

ولم يقف التآمر بين المنافقين والكافرين من المشركين
وأهل الكتاب على أمكنة معينة ، بل كانوا يتآمرون حينما
سنت لهم الفرصة ، حتى لقد وصل اللؤم بالمنافقين أن
يتخذوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم موطناً
لتآمرهم .

منافقون يتآمرون بالمسجد وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم باخراجهم

وقد ورد في الاخبار أن المنافقين كانوا إذ يحضرون المسجد
يستمعون أحاديث المسلمين ، ويسخرون ويستهمزون بدينهم ،

فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس ، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً ، فقام أبو أيوب ، خالد بن زيد بن كليب إلى عمرو بن قيس أحد بني غنم بن مالك بن النجار ، وكان صاحب ألهمهم في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد وهو يقول : د أنخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة . ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وديعة أحد بني النجار فلبسه بردائه ثم فتره (جذبه) فترأ شديداً ولطم وجهه ثم أخرجه من المسجد ، وأبو أيوب يقول له : أف لك منافقاً خبيثاً ! أدراجك (ارجع من الطريق التي جئت منها) يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو وكان رجلاً طويلاً اللحية ، فأخذ بلحيته ففاده بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع عمارة يديه فلامه (ضرب بيطن الكف) بهما في صدره لدمة خر منها وهو يقول خدشتني يا عمارة قال أبعذك الله يا منافق ، فما أعد الله لك

من العذاب أشد من ذلك . فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام أبو محمد مسعود بن أوس بن يزيد من بني غنم ابن مالك بن النجار الى قيس بن عمرو بن سهل ، وكان قيس غلاماً شاباً ، وكان لا يعرف في المنافقين شاب غيره ، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد . وقام رجل من بلخدره بن الخزرج ، ربط أبي سعد الحدرى يقال له عبد بن الحارث الى رجل يقال له الحارث بن عمرو ، وكان ذا جمعة ، فأخذ بحمته فمسجه بها سحياً عنيفاً على ما مر به من الأرض حتى أخرجه من المسجد والمنافق يقول لقد أغلظت يا ابن الحارث فقال له إنك أهل لذلك أى عذر الله ، لما أنزل الله فيك ، فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنك نجس . وقام رجل من بني عمرو بن هوف الى أخيه زوى بن الحارث ، فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً وألف منه وهو يقول له غلب عليك الشيطان وأمره .

سبب النهي ومهما يكن من الأمر فإن كثيراً من المؤمنين كان يغتر بظاهر أقوال المنافقين وأحوالهم ويظنون فيهم

الصدق فيفشون اليهم الأسرار ، ويطلعونهم على الأحوال الخفية
 وخاصة لما كان بينهم من المحبة والعلاقة بسبب النسب والمصاهرة
 والرضاع ، ولكن الله تعالى منع المؤمنين من ذلك وأفهمهم أن
 تلك القلوب كانت مليئة بالغیظ والحقد يسبب ما رأوه من اتلاف
 المؤمنين واجتماع كلمتهم وازدياد قوة الاسلام قال تعالى :
 (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم
 خبائلا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما
 تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم
 تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون
 بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا
 عليكم إلا نامل من الغیظ ، قل موتوا بغيظكم ، إن الله
 عليم بذات الصدور) (آل عمران ١١٨، ١١٩)

الباب الرابع

أحوال المنافقين وصفاتهم

النفاق جامع لجميع الآفات والحصل الذميمة النفاق جامع لجميع الآفات والحصل الذميمة في الدين والدنيا ، وخطره أشد الأخطار على العقائد والنفوس وعلى الهيئة الاجتماعية . ولذلك عني القرآن بتفصيل أحوالهم وبيان قبائح أفعالهم وفضائح أعمالهم وصب عليهم أسوأ طأ متوالية من العذاب والبلاء والمحن . وسبق أن ذكرنا الكثير من أحوالهم في الحروب وطرفا من أحوالهم في مواقف أخرى ، وقبل أن نحاول استجماع ما ورد في كتب السير والتاريخ عن تلك الأحوال نقول إن جميع أحوالهم وأعمالهم يشترك فيها عامل واحد تصدر جميعها عنه وتختلط به ،

وهذا العامل هو الحيرة وما يتبع الحيرة وينجم عنها من
الاضطراب والقلق والحياة في الظلام وشدة التردى في الأخطاء
وصفات الجبن والنذالة والبخل وما إليها .

عامل الحيرة يشترك في جميع أحوال المنافقين وصفاتهم وقد ورد
في أول القرآن بعض صفات المنافقين ، كما سبق ذكره ، ثم
شرحت إجمالاً في سورة المنافقين وفصل كثير منها في مواضع
متفرقة شمل بعضها عدداً كبيراً من الآيات كما في سورة النساء
ولو ضمت الآيات التي نزلت في شأن المنافقين بعضها إلى بعض
لمبلغت ما يقرب من عشر القرآن . وإلى جانب ذلك آيات
أخرى تنص على أمور عامة يمكن أن تشمل المنافقين
وغيرهم .

مثالات عن الحيرة من القرآن وقد مثل الله تعالى لهذه الحيرة
مثالين مركبين في أوائل سورة البقرة عقب ذكر صفات المنافقين
العامة أودع فيهما أسرار النفاق مفصلة أبداع التفصيل وأدفع
وجعل فيهما الكلمة الجامعة المانعة قال تعالى :

• (١) مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .
• هم بكم عمى فهم لا يرجعون (٢) أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير .

وقبل أن نستطرد في ذكر أحوال المنافقين وصفاتهم نرى لزماً علينا أن نتفهم كيف كانت الحيرة والاضطراب اللذين مثل لهما هذان المثالان .

وبلاحظ أولاً أن الأمثال وردت كثيراً في القرآن الكريم يقول الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم

يتفكرون » (الحفر ٢١) « وتلك الامثال نضربها
 للناس وما يعقلها إلا العالمون » (المكبوت ٤٣)
 « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم
 يتذكرون » (الزمر ٢٧) « إن الله لا يستحي أن يضرب
 مثلاً ما بعوضة فما فوقها » (البقرة ٢٦) والواقع أن الامثال
 من أقوى الاساليب التي تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف
 للشيء في نفسه لأن الغرض منه تشبيه الامر الخفي بالشيء الجلي
 والغائب بالحاضر فيتأكد الوقوف على ماهيته ويتجسد معناه
 ويصير بذلك الحس مطابقاً للعقل ، وذلك نهاية الايضاح ومثاله
 تشبيه الايمان بالنور والكفر بالظلمة ، فالترغيب في الايمان
 مجرداً عن ضرب المثل يتأكد وقوعه في القلب إذا مثل بالنور
 كما يتأكد النور من الكفر إذا مثل بالظلمة ، وكتأكيد الضعف
 عند تمثيله بنسج العنكبوت .

المثل الاول يشبه الله تعالى حيرة المنافقين في الدنيا والاخرة .

في المثل الاول بحيرة من أعطى نوراً ثم سلب منه ولم ينتفع به ،
ويشبههم في المثل الثاني بمن أخذته السماء في ليلة حالكة الظلمة
بمطر هطال غزير يشتد فيه لمعان البرق وقصف الرعد ؛
وهو يتوقى الموت بما لا يفيد فيضع أصابعه في
أذانه .

وقد ذهب المفسرون في تفسير هذين المثلين مذاهب شتى :
فأما عن المثل الاول فقال بعضهم إن وجه التشبيه أن مستوقد
النار لما زال عنه النور تحير ؛ وحيرة من كان في نور ثم زال
عنه أشد من حيرة السالك في ظلمة مستمرة . ولا شك أن المنافق
كان يحيط به نور المؤمنين من كل ناحية ويسمع هدى النبي
صلى الله عليه وسلم ولا ينتفع به .

وقال بعضهم إن استبقاء النار هو إظهار المنافق كلمة الايمان
وهو يزين ظاهره بهذا النور ، ثم يذهب الله ذلك النور بهتك ستر
المنافق فينكشف أمره للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين وهو
في كلا الحالين يتردد في الحيرة .

وقال الحسن البصري إن المنافقين لما أظهروا الاسلام
ظفروا بحقن دماثهم وسلامة أموالهم عن الغنيمة وأولادهم
عن السبي ، كما ظفروا بغنائم الجهاد وسائر أحكام المسلمين ،
فكان ذلك نوراً من نور الايمان ، ولما كان ما ظفروا به
بدون حق قليلا بالنسبة الى العذاب الاليم شبههم بمستوقد
النار الذي انتفع بضوئها قليلا ثم سلب منه فدامت حيرته
وحسرتة للظلمة التي جاءت في أعقاب النور ، فكان يسير
انتفاعهم في الدنيا يشبه النور ، وعظيم عذابهم في الآخرة يشبه
الظلمة .

وقال بعض المفسرين ان المقصود من التشبيه هو أن الهدى
الذي باعوه كالنار المضئية حول مستوقد النار ، وأن الضلالة
التي اشتروها أذهب الله بها ذلك النور وتركهم في
الظلام .

المثل الثاني وأما عن المثل الثاني فقد شبه الله المنافقين في
حيرتهم وجهلهم بالذين يسرون في ظلمات ثلاث ، ظلمة الليل

وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، يصحب ذلك رعد و برق
وصواعق : فالصواعق تدفعهم أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم
حذر الموت ، والبرق يكاد يعمي أعينهم ، ويخطف أبصارهم ، فإذا
أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا ذهب عنهم بقوا في ظلمة كثيفة
وعاودتهم الحيرة ، لأن من أصابه البرق في هذه الظلمات
الثلاث ، ثم ذهب عنه تشدد حيرته وتعظم الظلمة في عينيه ،
وتكون له سبباً في اشتداد الحيرة ، بخلاف من لم يزل في
الظلمة . وهذا يشير الى نهاية الحيرة في الدين ونهاية الخوف
في الدنيا . والمثل الثاني أدل على فرط الحيرة وشدة
الآخطاء .

ولعلماء البيان في المثل الثاني رأيان أولهما أنه تشبيه مفرق وهو
أن يكون المثل مركباً من أمور ، والمثل يكون أيضاً من أمور
ويكون كل واحد من المثل شيئاً بكل واحد من الممثل . فها هنا
شبه دين الاسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض
بالمطر . وشبه ما يتعلق به من شبهات الكفار بالظلمات ، وما

فيه من الوعد والوعيد بالبرق والرعد . وما يصيب الكفرة من
الفتن من جهة الاسلام بالصواعق ، ويكون معنى المثل
أن المنافقين مثلهم كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه
الصفة .

والرأى الثانى أنه تشبيهه مركب . وهو الذى يشبه فيه مدلول
إحدى الجملتين بمدلول الأخرى بصفة إجمالية فى أمر من الأمور
وإن لم تكن آحاد إحدى الجملتين شبيهة بآحاد الجملة الأخرى .
فها هنا شبهت حيرة المنافقين بحيرة من أخذته السماء فى الليلة
المظلمة مع الرعد والبرق - وهو أيضاً التشبيه الذى ينطبق على
المثل الأول فى تشبيه حيرة المنافقين فى أمور الدنيا والدين بحيرة
من انطفأت ناره بعد إيقادها .

وذهب بعض المفسرين الى اعتبار آخر : وهو أن الظلمات
والرعد والبرق يقصد بها الأشياء الشاقة على المنافقين ، وهى
التكاليف كالصلاة والصوم وترك الرياضات والجهاد مع الآباء
والأمهات ، وترك الأديان القديمة والانقياد لمحمد صلى الله عليه

وسلم مع شدة استنكافهم من الانقياد له . وأنه كما أن
الانسان يبالي في الاحتراز عن المطر الصيب الذي هو أشد
الاشياء نفعا له بسبب هذه الامور المقارنة ، فكذلك المنافقون
يحترزون عن الإيمان والقرآن بسبب هذه الامور المقارنة فكما
حصل لهم شيء من المنافع كعصمة أموالهم ودمائهم وحصول
الغنائم لهم فانهم يرغبون في الدين ، فاذا لم يجدوا من تلك المنافع
شيئاً يكرهون الإيمان .

تجسد المثلين في جميع أحوال المنافقين ثم في الدار الآخرة ومهما يكن
من الأمر فإن الباحث المدقق ليرى هذين المثلين كأنهما يتجسدان
في صورة حية في جميع أحوال المنافقين وصفاتهم وتفصيلات
أموالهم في الحرب والسلم . وتظل هذه الصور في ملازمتها لهم
حتى تلاحقهم في الدار الآخرة — قال الحسن البصري أن كلا
من المؤمنين والمنافقين يعطى نوراً يوم القيامة ، فيفرح المنافقون
ويظنون أنهم قد نجوا ، ثم يؤخذ من حر جهنم وما فيها من
الكلايب والحسك ويلقى على الطريق ، فتضي زمرة من المؤمنين

وجوههم كالقمر ليلة البدر ، ثم تمضي زمرة أخرى كأضواء
الكواكب في السماء ، ثم تغشاهم ظلمة فتطفىء نور المنافقين
فيلتمسون النور من وراءهم فلا يجدون شيئاً . وقد وصف الله
تعالى هذا المشهد بقوله : (يوم يقول المنافقون والمنافقات
للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا
وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرَبَ بينهم بمرسور له باب ،
باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم
ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم
وإرتبتم وغرتكم الأُماني حتى جاء أمر الله ، وغرتكم بالله
الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين
كفروا مأواكم النار هي . ولاكم وبش المصير)

(الحديد ١٥ ، ١٦ ، ١٧)

وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إذا دخل

المؤمنون الجنة والكافرون النار فتح الله من الجنة بابا على الجحيم
في الموضع الذي هو مسكن المنافقين . فاذا رأى المنافقون الباب
مفتوحاً أخذوا يخرجون من الجحيم ويتوجهون الى الجنة وأهل
الجنة ينظرون إليهم فاذا وصلوا الى باب الجنة فهناك يغلق
دونهم الباب .

وقد وصف الله حيرة المنافقين ، في موضع آخر أنهم على
طرف من الدين لا في وسطه وقلبه يعمهم القلق والاضطراب
بدل السكون والطمأنينة فقال تعالى : ومن الناس من يعبد
الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به . وإن أصابته
فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والاخرة ، ذلك هو
الخسران المبين . يدعو من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه
ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ،
لبئس المولى ولبئس المشير ، (الحج ١١ ، ١٢ ، ١٣) وهو تفصيل
لحالة القلق والاضطراب والحيرة لأن الثبات في الدين إنما يكون

في طاعة الله والخوف من عقابه في حالتي السراء والضراء . أما
إظهار الدين في السراء والرجوع عنه عند الضراء فلا يكون
صاحبه إلا منافقاً . قال السكبي إن هذه الآية نزلت في أعراب
كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة مهاجرين
من باديتهم ، فكان أحدهم اذا صبح بها جسمه وتجت فرسه مهرأ
حسناً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله وماشيته رضى به واطمأن
اليه ، وان أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه
وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة ، أتاه الشيطان وقال له
ما أتتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه .

واتخذت حيرة المنافقين أشكالا عديدة وألبستهم صفات من
نفسها وأصباغها نذكر بعضها فيما يلي :

١ - حالة التربص

شرح النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحالة في قوله : « مثل المنافق مثل الشاة العابرة بين الغنمين - أى المترددة بينهما - تعبر الى هذه مرة والى هذه مرة ، وذلك أنهم كانوا ينتظرون ما يحدث للمؤمنين من خير أو شر ، فان ظهر المؤمنون على اليهود أو الكفار قالوا للمؤمنين ألم نكن معكم فاعطونا قسما من الغنيمة وإن ظهر الكفار قالوا للكفار ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم بأن ثبطنا عنكم الهمم وأدخلنا عليهم ما ضعفت به قلوبهم وتوانينا في مظاهرتهم عليكم فها توالنا نصيباً مما أصبتم ، يقول الله تعالى : « وإن منكم من ليبطئن ، فان أصابكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ، يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ، (النساء ٧٢ و٧٣)

والظاهر أن المنافقين كانوا قد نصبوا أنفسهم عيوناً على من
تميل نفسه إلى الإسلام من الكفار واليهود يحذرونهم وينذرونهم
ويردون من آمن منهم ويطعمونهم أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم
سيضعف وأن أمرهم سيقوى . فإذا اتفقت لهم صولة على المسلمين
قال المنافقون ألسنا غلبناكم على رأيكم في الدخول في الإسلام
ومنعناكم منه ، وقلنا لكم إنه سيضعف أمره وسيقوى أمركم ، فليأ
شاهدتم صدق قولنا فادفعوا إلينا نصيباً مما وجدتم ، وبهذه
الطريقة يمنون على الكافرين . وقد تأكد هذا الوصف وفصل
تفصيلاً حاسماً في قوله تعالى : « الذين يترصدون بكم ، فإن
كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين
نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ،
فأله يحكم بينكم يوم القيامة ، وإن يجعل الله للكافرين على
المؤمنين سبيلاً » (النساء ١٤١) ثم قال (مذهب بين بين ذلك

لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له
مسبيلا (النساء ١٤٣)

٢ - حالة الخوف

وصف الله حالة الخوف الشديد التي لازمت المنافقين
فقال تعالى : « ويحملون بالله إنهم لنكم ، وما هم منكم ،
ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون مائجا أو مغارات
أو مدخلا لوأوا إليه وهم يجمعون » (براءة ٥٦ ، ٥٧)
وقال أيضا : (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ،
وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال
إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ،
وقالوا ربنا لم كتببت علينا القتال ، لوأا آخرتنا إلى أجل
قريب ، قل متاع الدنيا قليل ، والاخرة خير لمن اتقى ولا

تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم
في بروج مشيدة ، وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند
الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من
عند الله . فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثنا .
(النساء ٧٧ وما بعدها)

والسبب في هذا الخوف أنهم كانوا يشاهدون دولة الاسلام
ترقى وتعالو وتزايد ، وكلما رقت واستعلت ، اشتد خوفهم على
أنفسهم وأولادهم وأموالهم من اقتضاح أمرهم ، كذلك
كانوا يخشون الناس وفنتهم ويفضلون أن يتحاشوها ، ويقعوا
في عذاب الله الأليم الدائم ، وقالوا إن آمنا نتعرض للأذى من
أهلنا وعشائرننا ، وإن تركنا الايمان نتعرض لما توعدنا به محمد
صلى الله عليه وسلم فاخترأوا الاحتراز من الأذى العاجل ،
وفي ذلك يقول الله تعالى : ومن الناس من يقول آمنا بالله ،
فاذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن

جاء نصر من ربك لبقولن إنا كنا معكم ، أوليس الله
بأعلم بما في صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا
وليعلمن المنافقين » (النكوت ١١٠ و ١١١)

٣ - المنافقون في الصلاة

كانت التكاليف الشرعية الظاهرة ، وعلى رأسها الصلاة من
الأمور الثقيلة على المنافقين ، لأنهم يصلون ولا عقيدة لهم فيها ،
لذلك كانوا يتشاقلون عنها ويتحايلون للتماس من أدائها —
يقول الله تعالى (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى)
(براءة ٥٤) « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » (النساء ١٤٢)
وقد كانوا يضطرون إلى هذه الصلاة اضطراراً لأنها من شعائر
الاسلام الظاهرة القائمة فيصلا ويميزاً للمؤمنين عن الكافرين .
فإذا أدوا الصلاة أدوها مرأمة وهم متكاسلون متشاقلون لأنهم

لا يرجون من أدائها ثواباً ولا يعتقدون في تركها عقاباً .
وقد ورد في صحيح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال : إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة والصبح ، فإن العتمة
تأتى وقد أتعبهم عمل النهار فيثقل عليهم القيام بها ، وصلاة الصبح
تأتى والنوم أحب اليهم من مفروح به ولو لا السيف ما قاموا -
وقال صلى الله عليه وسلم ذاماً لمن أخر الصلاة : تلك صلاة المنافقين
- ثلاثاً - يجلس أحدهم يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني
الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً - كذلك
روى البخارى ومسلم في شأن قوم منافقين يتخلفون عن الجماعة
ولا يصلون أصلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أثقل
للصلاة على المنافقين العشاء والفجر أى جماعتهما ولو يعلمون ما فيهما
لا توها ولو حبوا ، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ثم أمر
رجالاً فيصلى بالناس ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب
الى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق بيوتهم بالنار .

٤ - المنافقون في الصدقات والانفاق

في سبيل الله

أخذت الحيرة بخناق المنافقين وتلا يلبيهم في شئون المال ،
سواء في نفقات الحرب والانفاق في سبيل الله بوجه عام ، أو في
إداء الزكاة ودفع الصدقات وتوزيعها . والمال بطبيعته أمره عزيز
على النفوس المريضة ومناط لخبرة الإيمان وبلاء القلوب . والأصل
أن من طلب الدنيا بالحرص والشره والتكالب آل أمره في الدين
إلى النفاق ، وأن من طلب الدنيا بقدر ما أذن الله له فيه ، وكان
عزمه منها أن يتوسل إلى مصالح الدين ، فهذا هو الطريق الحق
ويرجع ذلك إلى الرضاء بقضاء الله ، وأن يظهر أثر هذا الرضاء
على اللسان فيقول إن حسبه الله ويرغب فيما عند الله مما يعطى له .
وذلك بعيد على من كان قلبه مليئاً بالنفاق .

الفقه والحروب كان المنافقون يضطرون للانفاق من أموالهم
على وجوه لا يعتقدون مسحة أمرها ، وخاصة في الحروب ،

كما كانوا يرسلون أولادهم كرهاً للجهاد ويعرضونهم للقتل ،
وكانوا يبغضون محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويعيشون في نار هذا
البغض ترعى قلوبهم ، وإنما يضطرون الى ذلك البذل خوفاً أن
يفتضح أمرهم ويظهر نفاقهم وكفرهم ظهوراً تاماً ، فينطبق عليهم
حكم سائر أهل الحرب من الكفار ، ويتعرضون للقتل وسبي
الأولاد ونهب الأموال . وقد بكتهم الله بذلك في سخرية قوية
بقوله عز وجل : « قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم
إنكم كنتم قوماً فاسقين . وما منعهم أن تقبل منكم
نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ، ولا يأتون الصلاة
إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون »
(براءة ٥٤ و ٥٣)

في الصدقات فأما في الصدقات فكانوا يقفون فيها موقفين

مخزيين ، أحدهما في دفعها والآخر في توزيعها .

في نقد البذل الصدقة أما الأول فكانوا ينتقدون بأذن الصدقة

سواء أكثر بذلة ، أم قل ، ويحاولون الخط من شأنه .

وقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم ذات يوم وحث على أن يجمعوا الصدقات فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لى ثمانية آلاف درهم فأمسكت لنفسى وعيالى أربعة ، وهذه الأربعة أقرضتها ربى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أمسكت ، وجاء عمر بن الخطاب بنحو ذلك ، وجاء عاصم بن عدى الانصارى بسبعين وسقاً من التمر ، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة فقال قوم من المنافقين ما أعظم رباهم . وروى أحد الصحابة أبو مسعود رضى الله عنه قال أمرنا بالصدقة وكنا نحامل (نحمل بالأجرة) على ظهورنا ، فجاء أبو عقيل بصاع من تمر وقال أجرت الليلة الماضية نفسى من رجل لإرسال الماء الى نخيله ، فأخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالى وأقرضت الآخر ربى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه فى الصدقات ، فقال المنافقون ما جاءوا

بصدقائهم إلا رياء وسمعة ، وأما أبو عقيل فأنما جاء بصاعه ليذكر
 مع سائر الأكابر والله عني عن صاعه ، فنزل في جميع ذلك قوله
 تعالى (الذين يلزمون الطوعين من المؤمنين في الصدقات
 والذين لا يجحدون إلا جهم فيهم يخرجون منهم ، سخر
 الله منهم ولهم عذاب أليم ، (براءة ٧٩) وقد بينت الآية في
 صورة جليلة أن المقصود من الأعمال الظاهرة هو النية والدواعي
 والصوارف ، وأن القليل الذي يأتي به الفقير قد يكون أكثر
 موقعا عند الله تعالى من الكثير الذي يأتي به الغني ، ولكن
 المنافقين كانوا غارقين الى أذقانهم في ظلمات الجهل والاضطراب
 ولم يتجاوز نظرهم ظاهر الأمر فعيروا الفقير بصدقته القليلة
 واتهموا الغني في نيته .

تقد توزيع الصدقات وأما الأمر الثاني وهو توزيع
 الصدقات ، فقد كان مشار فتنه شديدة ، وكشف كثيراً من
 أخلاق المنافقين ودناءة طباعهم ، وشدة شراهم في الحصول

على المال . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ما آتاه الله من قليل المال وكثيره ، وكان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله عليه . وأما المنافقون فكانوا إن أعطوا كثيراً فرحوا ، وإن أعطوا قليلاً سخطوا وطعنوا في النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا إنه يؤثر بالصدقات من يشاء من أقاربه وأهل مودته ، وينسبونه إلى الجور في القسم ، مع أنه كان أبعد خلق الله عن الميل إلى الدنيا .

روى الكلبي أن رجلاً من المنافقين كان يدعى أبا الجوارظ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تزعم أن الله أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء والمساكين ، ولم تضعها في رعاء الشاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أبا لك أما كان موسى راعياً ، أما كان داود راعياً ، فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام احذروا هذا وأصحابه فانهم منافقون .

وروى أبو بكر الأحمم في تفسيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه ما علمك بفلان ؟ فقال مالي به علم

إلا أنك تدنيه في المجلس وتجزل له العطاء ، فقال عليه الصلاة والسلام إنه منافق أدارى عن نفاقه وأخاف أن يفسد على غيره فقال لو أعطيت فلاناً بعض ما تعطيه ، فقال عليه الصلاة والسلام إنه مؤمن أكله إلى إيمانه وأما هذا فمنافق أداريه خوف إفساده .

وروى أبو سعيد الخدري قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا إذ جاءه حرقوص بن زهير (أصل الخوارج ويقال له ذو الخويصرة التميمي) فقال اعدل يا رسول الله فقال ويلك من يعدل إذا لم أعدل ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعني يا رسول الله أقتل هذا المنافق فقال معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية . وفي هذا كله يقول الله تعالى ، ومنهم من يalzك في الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم

يسخطون . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا
حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله
راغبون ، إنا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها
والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب والغارمين ، وفي سبيل الله
وابن السبيل ، فربضة من الله ، والله عليم حكيم .
(براءة ٥٨ و ٥٩ و ٦٠)

٥ - حالة المنافقين في القضاء

كان القضاء من أشد الأمور التي ابتلى بها المنافقون والتي
قاموا تحت عبثها . فهم بطبيعة نفاقهم لا يحترمون العدل ، ويحتالون
للباطل ، ويتملصون من الحق ما وسعتهم الحيلة . وأصاب الكثير
منهم في ذلك غير قليل من العناء والمشقة ، فإن المؤمن المخلص
يرضى بقضاء الله ورسوله ولا يجد غضاضة في الخضوع للحق
إذا تجلت آياته ، وأما المنافق فقلبه خلو من الإيمان فهو خلو

من الدافع الذي يدفعه الى الرضا بقضاء الله ورسوله ، وهو
ظالم لنفسه وللناس ، وهذا الظلم يدفعه الى أكل الحقوق ، ولهذا
كانوا يتباعدون من الاحتكام لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ويحاولون التدليس إذا احتكموا اليه ، وكان شأنهم في ذلك
أعجب الشأن ، فقد كان الرسول معروفاً بأنه الأمين وأنه
لا يعدل عن الحق ، ولكن المبطل يخاف الاحتكام للقاضي
العادل .

بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأحد المنافقين روى عن الضحاک
أنه كان بين المغيرة بن وائل وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه
أرض فقاما فوقه إلى علي منها ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة فقال
المغيرة يعني أرضك فباعها إياه وتقابضا ، فقبل للمغيرة أخذت
سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي اقبض أرضك فاني اشتريتها إن
رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء فقال علي بل اشتريتها ورضيتها
وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه إلى أن يخاصمه إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فليست آمنه
عليه السلام .

ولا أحاكم اليه فانه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليّ أنزل
 قول الله تعالى «ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا» ثم
 يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين .
 وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فإن فريق منهم
 معرضون . وإن يكن لهم الحق ياتوا اليه مذعنين . أنى
 قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم
 ورسوله بل أولئك هم الظالمون . إنا كان قول المؤمنين إذا
 دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا
 وأطعنا وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله
 ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » (النور من ٧، إلى ٥٢)

قصة بقر المنافق مع اليهودي وقد حدث مثل ذلك من
 أحد المنافقين يدعى بشر ، وكان الحادث عجيباً ، يدل على أن
 بشر هذا كان عريقاً في النفاق إلى درجة الحق حتى أدى إلى قتله

وهو أنه نازع رجلا من اليهود فقال اليهودى بينى وبينك
أبو القاسم وقال المنافق بينى وبينك كعب بن الأشرف (وهو
أحد طغاة اليهود من أشرفهم وعلماهم) وكان سبب تهرب
المنافق من الرسول عليه السلام أنه كان يعلم أن الرسول كان
يقضى بالحق ولا يلتفت إلى الرشوة، وكعب بن الأشرف كان
شديد الرغبة في الرشوة ومعروفا بتلك الرغبة، واليهودى كان
محققاً، والمنافق كان مبطلاً، فلماذا أراد اليهودى الاحتكام إلى
الرسول عليه السلام، وأراد المنافق الاحتكام إلى كعب بن
الأشرف. ثم أصر اليهودى على قوله فذهبا إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فحكم لليهودى على المنافق، فقال المنافق لا أرضى
انطلق بنا إلى أبي بكر، فحكم أبو بكر رضى الله عنه لليهودى،
فلم يرض المنافق وقال بينى وبينك عمر، فذهبا إلى عمر رضى
الله عنه فأخبره اليهودى أن الرسول عليه الصلاة والسلام وأبا بكر
حكما على المنافق فلم يرض بحكمهما فقال عمر للمنافق هكذا!
فقال نعم قال اصبر ان لى حاجة أدخل فأقضيها وأخرج اليكما
فدخل فأخذ سيفه ثم خرج اليهما فضرب المنافق حتى برد وهرب
اليهودى، فجاء أهل المنافق فشكروا عمر إلى النبي صلى الله عليه

وسلم يطلبون دية القتل ويحلفون ما نريد بطلب دية الا
الإحسان وموافقة الحق . فسأل عمر عن قصته فقال عمر إنه رد
حكمك يا رسول الله ، فجاء جبريل عليه السلام في الحال وقال
انه الفاروق فرق بين الحق والباطل فقال النبي صلى الله عليه وسلم
أنت الفاروق ونزل في ذلك قول الله تعالى : ألم تر إلى الذين
يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون
أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد
الشیطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما
أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا
فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك
يحلفون بالله أن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا . أولئك الذين يعلم
الله ما في قلوبهم هم ناعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم
قولا بليغا . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأذن الله . ولو

أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ
الرَّسُولُ لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا . فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يَكْفُوكَ فِيمَا شِجْرَ بَيْنِهِمْ ثُمَّ لَا يَكْجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا
مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوْا تَسْلِيمًا (النساء من ٦٠ الى ٦٥)

قصة بشر ابن أبيرق كذلك عمد منافق آخر كان
يدعى بشر بن أبيرق الى ارتكاب سرقة ، وكان الى جانب النفاق
لصاً خبيثاً معتاداً على ذلك . وحاول التدليس عند ما عرض أمر
المسقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل القرآن
بوضح حقيقة الأمر ويقرر القواعد الأساسية في مثل هذه
الأمور ، وقد ورد تفصيل ذلك بروايات مختلفة . وانا نورد
هنا ما أخرجه الترمذى في صحيحه حيث أورد القصة بكثير
من الفاظها :

روى الترمذى عن قتادة بن النعمان قال:
كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر ،

وكان بشير رجلا منافقا يقول الشعر يمجو به أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم ثم ينحله بعض العرب ثم يقول قال فلان
كذا وكذا قال فلان كذا وكذا فاذا سمع أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا والله ما يقول هذا الشعر
إلا الخبيث أو كما قال الرجل وقالوا ابن الأبيرق قالها (٥)
قال وكان أهل بيت حاجة وفقر في الجاهلية والإسلام ، وكان
الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير . وكان الرجل إذا كان
له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرهمك ابتاع الرجل منا
فخص بها نفسه ، وأما العيال فأنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت
ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملا من الدرهمك
بشمله في مشربة له ، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف . فعدى

كان بشير يقول :

أو كما قال الرجال قصيدة — أضوا وقالوا ابن الأبيرق قالها

عليه من تحت البيت فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح .
فلما أصبح أتاني عمي رفاعه فقال يا ابن أخي إنه قد عدى علينا
في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا ، قال
فتحسسنا في الدار وسألنا ، فقبل لنا قد رأينا بنو أبيرق استوقدوا
في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم ، قال
وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار والله ما نرى صاحبكم
إلا لبيد بن سهل ، رجل منا له صلاح وإسلام ، فلما سمع
ليبد اخترط سيفه وقال أنا أسرق ! فوالله ليخالطنكم هذا
السيف أو لتبينن هذه السرقة ، قالوا اليك عنها أيها الرجل فما
أنت بصاحبها ، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها .
فقال لي عمي يا ابن أخي لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
فذكرت ذلك له . قال قتادة فأتيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقلت إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي
رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه
فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه . أقبل
النبي صلى الله عليه وسلم سأ نظر في ذلك . فلما سمع بنو أبيرق

أتوا رجلا منهم يقال له أسير بن عروة فكلموه في ذلك، فاجتمع
في ذلك ناس من أهل الدار فقالوا يا رسول الله إن قتادة
ابن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح
يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت قال قتادة فأتيت رسول
الله صلى الله عليه وسلم فكلمته فقال عمدت إلى أهل بيت ذكر
منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة،
قال فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم
رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فأتاني عمي رفاعه فقال
يا ابن أخي ما صنعت فأخبرته بما قال لي رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال الله المستعان فلم يابث أن نزل القرآن «إنا أنزلنا
إليك الكتاب بالحق، لتحكم بين الناس بما أراك الله،
ولا تكن للخائنين خصيما» (*)، واستغفر الله، إن الله كان

(*) أي بني أريق.

غفوراً رحيماً . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ،
إن الله لا يحب من كان خواناً أثمياً . يستخفون من الناس
ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى
من القول ، وكان الله بما يعملون محيطاً . هأنتم هؤلاء
جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة
أم من يكون عليهم وكيلاً . ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه
ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً . ومن يكسب إثماً
فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليماً حكيماً . ومن
يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً
وأثماً مبيناً (*) . ولولا فضل الله عليكم ورحمته لم كنتم
طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم ، وما

(*) أى قوله من ليد

يخبرونك من شيء ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة
وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ،
(النساء من ١٠٥ الى ١١٤)

فلما نزل القرآن أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلاح
فرده الى رفاعه فقال قتادة لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً قد
حسى أو عشى في الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولاً ، فلما
أتته بالسلاح قال يا ابن أخي هو في سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه
كان صحيحاً .

هذه القصة على ما أخرجه الترمذي في صحيحه وقد روى
الطبري صوراً أخرى لها منها :

أن طعمة بن أبيرق كان رجلاً من الأنصار من بني ظفر
سرق درعاً لعمه كانت وديعة عنده ثم قذفها على يهودى كان
يغشاهم يقال له زيد بن السممين فجاء اليهودى الى نبي الله صلى الله
عليه وسلم يهتف فلما رأى ذلك قومه بني ظفر جاءوا الى النبي صلى

الله عليه وسلم ليعذروا صاحبهم وكان النبي قد هم بعذره حتى
أنزل الله في شأنه ما أنزل .

وروى الطبري أيضاً أن نفرأ من الأنصار غزوا مع النبي
صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته فسرق درع لأحدهم فأظن
بها رجلاً من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال إن طعنة بن أبيرق سرق درعي فأتى به رسول
الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فالتقاها
في بيت رجل برى . وقال لنفر من عشيرته إني قد غيبت الدرع
وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده ، فانطلقوا إلى نبي الله صلى
الله عليه وسلم ليلاً فقالوا يا نبي الله إن صاحبنا برى . وإن سارق
الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس
الناس وجادل عنه فانه إن لم يعصمه الله بك يهلك فقام رسول الله
صلى الله عليه وسلم فبرأه وعذره على رؤوس الناس فانزل الله
الآية .

ومهما يكن من الاختلاف في تفاصيل القصة فالواضح منها

جميعاً أن ذلك المنافق كان يجد العناء في نفسه من السرقة ثم العناء
كما يحيط به من الأدلة ثم العناء عما ينزل في حقه من القرآن ظلمات
وحيرة يتخبط في دياجيرها . وقد روى أن ابن أبيرق لما نزلت
هذه الآيات لم يجد بداً من الهرب فهرب إلى مكة ولحق بالمشركين
ونزل على سلافة بنت سعد ، فقال حسان بن ثابت يعرض
بها :

وقد أنزلته بنت سعد وأصبحت
ينازعها جلد استها وتنازعها
ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتمو
وفينا نبي عنده الوحي واضمه

فلما بلغها أخذت رحله فوضعت على رأسها ثم خرجت به
فرمته في الأبطح ثم قالت له إنما أهديت لي شعر حسان ما كنت
تأتينني بخير . ثم لحق بقريش ورجع في دينه ثم عدا على مشربة
للحجاج بن علاط البهري حليف لبني عبد الدار فتقبها فسقط
عليه حجر فلما أصبح أخرجوه من مكة . فهرب إلى خيبر ثم إنه
تقب بها بيتاً ذات ليلة ليسرق فسقط عليه الحائط فأت مرتداً .

٦ - المنافقون في القتال

لعل أشد أنواع الحيرة والاضطراب كانت تغشى المنافقين عند ما كان يصدر أمر النبي صلى الله عليه وسلم بجشد الجيوش للقتال. وقد رأينا فيما سبق كيف لجئوا في أوائل الأمر لمحاولة إدخال الفشل على جيوش المسلمين كما حدث يوم أحد. فلما اشتدت قوة المسلمين واستحال على المنافقين أن يعودوا لتلك المحاولة، كان الأمر بالقتال يقع على أسماعهم وقع الصواعق حتى وصفوا في القرآن بأنهم كانوا ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم كأنهم في غشية الموت ثم يحاولون التملص من القتال باختلاف الأعذار إذ يقولون كيف نقاتل والقتل إفساد، وإنما نقاتل العرب من ذوى أرحامنا وقبائلنا. يقول الله تعالى : (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت، فأولى

لهم طاعة وقول معروف ، فاذا عزم الأمر فلو صدقوا
الله لكان خيراً لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا
في الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله
فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن ، أم
على قلوب أقفالها . (القتال من ٢٠ الى ٢٤)

التخلف والاستئذان على أن القتال كان مجرد المنافقين
من جميع أسلحتهم ويدفع أغلبهم الى التخلف على ما فيه من
انكشاف السريرة ويعمد البعض الى الاستئذان من النبي صلى
الله عليه وسلم ملتصقاً أتفه الأسباب ، ثم إن من لم يتخلف
واندس بين زمر المؤمنين في الجيش كان لا ينفع يأتى بالخيبة
من القول أو العمل ما يفضح نيته .

وقد كان المنافقون يعمدون الى الاستئذان مرة وإلى إغفاله

أخرى حسب ما تمليه عليهم ظروفهم . ففي حفر الخندق امتنأ ذنوا
بمحبة أن ييوتهم عورة وبمحبة المرض والضعف ، كما عمدوا إلى
الاستئذان في التخلف عن غزوة تبوك متشبثين بأعذار واهية
وسخيفة ونزل في تبكيتهم ما مر ذكره من الآيات . ومع
ذلك فإن كثيراً من المنافقين لم يكن ليلجأ إلى الاستئذان
ورأى أن يضرب بهذه الطريقة عرض الحائط ، وزعم في
نفسه أن أحداً سوف لا يشعر بما يخفيه في صدره . سواء في
أمور الحرب أو غيرها . ومثال ذلك أنهم كانوا يتسللون
متوارين عن المسلمين يوم الجمعة أثناء خطبة النبي صلى الله عليه
وسلم ، وخاصة إذا تعرض فيها لبعض أعمالهم ومكائدهم
فينظرون يميناً وشمالاً فإذا لم يرههم أحد انسلوا وخرجوا
ولم يصلوا وإذا أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفاً . فانزل الله
تعالى في جميع ذلك : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله
ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا

حق يستأذنه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين
يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنتكم لبعض شأنهم فأذن
لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم ،

النور ٦٢ و٦٣

الباب الخامس

أعمال المنافقين وأسلحتهم

عرض الله أسلحة المنافقين عرضاً عاماً بقوله تعالى :-
« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأصرون بالمنكر
ويبهمون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم
إن المنافقين هم الفاسقون » (برائة ٦٧)

وقد عمد المنافقون الى جملة أسلحة لمحاربة النبي صلى الله عليه
وسلم والمؤمنين كان من أهمها « ١ » ، البين الكاذبة و « ٢ » ، الخداع
و « ٣ » ، إثارة الخلاف بين المسلمين و « ٤ » ، التنفير منهم و « ٥ » ،
إيصال الأذى إليهم و « ٦ » ، نشر الخوف والإرجاف للتأثير في
ضعاف النفوس بالدعاية السيئة و « ٧ » ، موالاة الكفار و « ٨ » ،
محاولة إدخال الفشل في القتال . وقد ادرع المنافقون بهذه الأسلحة

الدينية وغيرها من الوسائل الحبيثة ليحادوا الله ورسوله فأذله
الله أشد الذلة وأنذرهم بذلك فقال تعالى إن الذين يحادون
الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ، وقد أنزلنا
آيات بينات وللكافرين عذاب مهين . يوم يبهتهم الله جميعاً
فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء
شهيدهم (المجادلة ٥٠) (إن الذين يحادون الله ورسوله أو أئمتكم
في الأذلين) (المجادلة ٢٠)

وسنفصل فيما يلي ما لم يسبق ذكره من تلك الأعمال :

١ - اليمين الكاذبة

ورد شأن هذه اليمين في جملة مواضع من القرآن :

(١) ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم مفكم ولكنهم
قوم يفرقون (براه ٥٦)

(٢) يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق
أن يرضوه إن كانوا مؤمنين (براه ٦٢)

(٣) يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر
وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا (براه ٧٤)

(٤) وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن
قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون
(النور ٥٣)

(٥) ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

ما هم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الله الكذب وهم يعلمون -
أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون -
اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين .
ان تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا
فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسمون أنهم على شيء ألا
إنهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر
الله أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان
هم الخاسرون (المجادلة من ١٤ الى ١٩)

٦) اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم
ساء ما كانوا يعملون (المنافقون ٢)

وفي هذه الآيات ما يدل على أن المنافقين كانوا يكثر من
الايان الكاذبة يطلقون بها السفه بدون مبالاة . ولعلمهم فطنوا

في ذلك الى ما ورد في مثل فرنسي متداول معناه إذا لم تكن صاحب حق فقل الكذب وكرر الكذب وأصر على الكذب ، فإذا لم تفز بالتضليل على الحق فلا أقل من التهويش على خصومك وهي صفة ليست من الايمان في شيء ، وأعل في هذه الآيات أكبر الزجر للذين يجري الحلف على السفتهم بسبب وبدون سبب ، ولا تفعل الأسباب : لا يعقبون إن كان حلفهم على حق أو على باطل وقد نهى الله تعالى عن الحلف الجذاف فكيف باليمين الكاذبة وهي تعقب النفاق في أظلم أشكاله وأرذل سيناته .

٢ - الخُـداع

ورد شأن الخُـداع في موضعين :

(١) يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا

أنفسهم وما يشعرون (البقرة ٩)

(٢) ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم (النساء ١١٢)

والمقصود من الخداع هو عدم مطابقة الظاهر للباطن وهو
أعظم عنصر من عناصر النفاق والركن الأساسي الذي يتكون
منه . وقد عمد المنافقون الى الخداع لأغراض أهمها :

(١) أن يكونوا محل احترام من النبي صلى الله عليه وسلم
ومن المؤمنين .

(٢) أن يقوموا بأدوار الجاسوسية فيطلعوا على أمرار النبي
صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وليتربصوا بهم الدوائر وليبدلوا
الكفار على ما قد ينتفعون به للكيد لهم .

(٣) اتقاء القتل إن هم أظهروا الكفر .

(٤) الطمع في أموال الغنائم .

وقد رد الله خداعهم بأمرين الأول أنهم يخدعون أنفسهم
والثاني أن الله خادعهم . أما خداعهم لأنفسهم فذلك أنهم يظهرون
لأنفسهم طرقة للنجاة ، بيد أنها طرق للهلاك في الدنيا والآخرة
فآل خداعهم للكشف والفضيحة في الدنيا ولعذاب الآخرة
أخرى . وأما أن الله تعالى خادعهم فقد ورد عن ابن عباس في

معنى ذلك أن الله تعالى يعطيهم نوراً يوم القيامة كما يعطي المؤمنين
فاذا وصلوا الى الصراط انطفأ نورهم وبقوا في الظلمة ، والدليل
على ذلك ما سبق أن ذكرناه في المثليين الذين ضرب بهما حال
المنافقين في الحيرة .

وقد وصف الله حال المخادعين في موضع آخر فقال تعالى :
« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله
على مافي قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الارض
ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد .
وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم
ولبئس المهاد » (البقرة : ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦) وقد أورد القرطبي عن
الترمذي أن في بعض كتب الله تعالى « إن من عبادة قوماً
السفتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ؛ يلبسون للناس
جلود الضأن من اللين يشترون الدنيا بالدين يقول الله تعالى أباي
يغترون وعلى يجترئون في حلفت لا تبحن لهم فتنة تدع الحليم
منهم حيران » .

ومن مظاهر خداع المنافقين واستغراقهم في لؤم الطبع أنهم كانوا يحادون الله ورسوله ويأتون بالأعمال المنكرة طوعاً وهدماً ويكذبون الرسول عليه السلام وينهون عن المعروف ويدفعون إلى المنكر ويقبضون أيديهم عن كل خير ويظنون بالله ظن السوء ومع ذلك كانوا إذا قابلوا الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتورعون أن يقولوا له نشهد أنك لرسول الله ويمتدحونه . وتلك طريقة خبيثة يعلمها العريقون في فنون النفاق والكذب .

والخداع بصفة عامة يشترك فيه المنافقون وغيرهم وهو يحمل معنى الغدر . إلا أن خداع المنافقين يتميز بالاستمرار والمطاوله وقد ادعى الاسلام نفر من الكفار واحتالوا بذلك ليغدروا بمن يستطيعون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغدروا بستة منهم وكان خداعهم قاصراً على ذلك الادعاء لم يعدوا في المنافقين وهم أصحاب الرجيع .

التبیه وقد كان من مظاهر خداع المنافقين ومستلزماته
أن طائفة منهم كانوا يسهرون بالليل يتآمرون فيما بينهم على
إحداث الفتن ويتواطئون على أنواع كثيرة من المكر والكيد
ويقبلون أقوال النبي صلى الله عليه وسلم . وقد وصفت هذه
المؤامرات في القرآن بكلمة التبييت وأمر الله تعالى بالاعراض
عن تلك الأقوال حتى لا تشيع الفتن وأطلع نبيه صلى الله عليه
وسلم على كثير من تفصيل تلك الأحوال وبكتهم على سوء
صنيعهم قال الله تعالى : « ويقولون طاعة ، فإذا برزوا من
عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول ، والله يكتب
ما يبيتون ، فأعرض عنهم وتوكل على الله ، وكفى بالله
وكيلا » (النساء ٨١) وأيضا : « يستخفون من الناس
ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيتون ما لا يرضى
من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا » (النساء ١٨٠)

استغفار المنافقين ومن أعجب أنواع خداع المنافقين وأشدّها

دلالة على الصفاقة أنهم كانوا يطلبون الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم إمعاناً في التصنع والرياء . وقد خير النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك باعتبار أنه استغفار لساني لا ينفع وغايته تطيب لقلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر لهم . يقول الله تعالى : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين » .
 على أن قناع ذلك للطلب كثيراً ما كان ينكشف كما حدث عند ما طلب الى ابن أبي عقرب حادث بني المصطلق ونزول تصديق زيد بن أرقم رضى الله عنه أن يذهب للنبي صلى الله عليه وسلم فيحتذر اليه ويطلب أن يستغفر له فما كان من ابن أبي إلا أن خلع ثوب ريائه وأرغى فيه نقي النفاق فقال : أمرتموني أن أو من فأمنت وأمرتموني أن أعطى زكاة أموالى فأعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد ،

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

٣ - إثارة الخلاف بين المسلمين

ومثال ذلك ما فعله ابن أبي عند خروجه الى أحد حتى كان
سيباً في إحداث الخلاف بين بني حارثة وبني سلسة ، فهموا
بالرجوع كما مر ذكره ، وما نزل في شأن ذلك من القرآن .
ويظهر أن المنافقين كانوا كثيراً ما ينتهزون فرص الخلافات
الفردية التافهة لتوسيع شقتها واضرام نار الفتن بين القبائل
وفروعها ، فقد أنزل الله تعالى إيضاحاً للدومنين ألا يختلفوا في
شئون المنافقين وفتنهم فقال « فما لكم في المنافقين فئتين والله
أرأسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن
يضل الله فلن تجد له سبيلاً » (النساء ٨٨ وما بعدها)

وقد اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية فقليل : -
١، إنها نزلت في قوم قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم
مسلمين فأقاموا بالمدينة ما شاء الله ، ثم قالوا يا رسول الله نريد
أن نخرج الى الصحراء فأذن لنا ، فأذن لهم ، فلما خرجوا لم يزوالوا

يرحلون مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين ، فتكلم المؤمنون
فيهم فقال بعضهم لو كانوا مسلمين مثلنا لبقوا معنا وصبروا كما
صبرنا ، وقال قوم هم مسلمون وليس لنا أن ننسبهم الى الكفر
الى أن يظهر أمرهم فعين الله تعالى نفاقهم . « ٢ » . وقال ابن
عباس وقتادة أنها نزلت في قوم أظهروا الاسلام بمكة
وكانوا يعينون المشركين على المسلمين فاختلف المسلمون فيهم
وتشاجروا .

ومهما يكن من الامر فان هذا يدل دلالة واضحة أن المؤمنين
كانوا يختلفون في شأن المنافقين بصفة عامة ، فكانت منهم فئة تبيل اليهم
وتذب عنهم وتواليهم طمعاً أن يدخلوهم في الايمان الصحيح
وترغيباً لهم ، وفرقة تعاديهم وتباينهم . فنهوا عن ذلك
وأمروا أن يكونوا على نهج واحد في التبرؤ والتكفير
والتباين .

في سورة التوبة الآية ١٠٠
في سورة التوبة الآية ١٠١
في سورة التوبة الآية ١٠٢

من هذا النوع . . . التفسير لمن المؤمنين المؤمنين . . .
 واقد اعتمدوا الى هذا التفسير بأوضاع خسيصة كلما سنحت لهم
 الفرض . . . وكان أهم تلك الأوضاع اثنان : الاول ، وهو
 أنهم نسبوا الى النبي صلى الله عليه وسلم التناقض في التشريع
 والثاني السخرية . . .

زعم التناقض أما التناقض في التشريع فقد اغتتموا فرصة
 زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب بنت جحش
 بعد طلاقها من زيد بن حارثة رضى الله عنهما . وأطالوا في ذلك
 القول أيما إطالة وقالوا إن الرسول الكريم تزوج مطلقة ابنه
 بعد أن نهى عن ذلك . فنفى الله هذه المزاعم ورد الأمور الى
 أصولها وقضى أن النبي ليس إلا زوراً وبهتاناً على الطبيعة لا يمت
 الى الحقيقة بشئ . . يقول الله تعالى : (ما جعل الله لرجل
 من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون
 منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم

يأفواهمكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، أم عوهم
 لا بآئهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم
 في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به
 ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحماً .
 الأحزاب ٤٥

كذلك قامت قيامة المنافقين عند تحويل القبلة من المسجد
 الأقصى الى المسجد الحرام وطفقوا يتساءلون أسئلة شتى مليئة
 بالسخرية عن السبب الذي من أجله كان هذا التحويل فرد الله
 عليهم ذلك بقوله « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن
 قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من
 يشاء الى صراط مستقيم » البقرة ١٤٢

السخرية وأما السخرية والاستهزاء فقد كانت رائداً بقود
 المنافقين في كثير من أحوالهم وخاصة عند استماعهم لآيات القرآن
 الكريم يقول الله تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من

يقول أياكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم
إيمانا وهم يستبشرون * (براءة ١٢٤ وما بعدها) ومن غريب
الامر إصرارهم على السخرية رغم الخوف الشديد الذي كان
كان يذنبهم عند ما ينزل من القرآن ما يفضح أمرهم وذلك إذ
ينظر بعضهم الى بعض نظر الرعب يقولون هل يراكم من أحد
إذا تكلمتم بهذا فينقله الى محمد ثم ينصرفون متسللين يقول تعالى
« وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض ، هل
يراكم من أحد ، ثم انصرفوا ، صرف الله قلوبهم بأنهم
قوم لا يفقهون » (براءة ١٢٧) وقد أخبر الله تعالى أن تلك
السخرية لا تفيد ولا تغني من الحق شيئا فقال (يحذر المنافقون
أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، قل استهزئوا
إن الله يخرج ما تكلمون) (براءة ٦٤)

٥ - الدعاية السيئة

أتقن المنافقون هذه الدعاية كأدق ما يتقن الآن رجال السياسة الدعايات المفرضة، وانتهزوا في ذلك ما جبل عليه بعض الناس من الجبن وضعف النفس والقابلية للتأثر، وأيضاً لأن بعض المسلمين من أقارب رؤساء المنافقين كانوا ينظرون إليهم بعين الاجلال والتعظيم.

وكان لهم في هذا الصدد فنون دقيقة من شأنها إدخال الفشل على العقول وتشويش الأمور على ضعفاء المسلمين وإيقاعهم في الحيرة والاضطراب، ومن ذلك إذاعة أخبار الخوف وترهيب الأعداء ونشر الآراجيف بذلك. وواقع الأمر أن النشر سواء كان في جانب الأمن أو في جانب الخوف لم يكن ليدخل من الكذب الكثير، فان كان الكذب في جانب الخوف أضعف القلوب وأدخل إليها الملح، وإن كان في جانب الأمن أدخل الشبهة في قلوب الضعفاء في صدق الرسول عليه السلام.

والارجاف في مسائل الأمن والخوف من الاسباب التي
تستفز البحث الشديد والاستقصاء التام وكلاهما سبب لظهور
الأسرار وهو ما كان يقصده المنافقون ، لأن العداوة الشديدة
كانت قائمة بين المسلمين والكفار ، وكان كل واحد من الفريقين
في إعداد آلات الحرب وفي انتهاز الفرصة فيه ، وأمن أحد الفريقين
خوف للآخر . فان وقع خبر الأمن للمسلمين وحصول العسكر
وآلات الحرب لهم أرجف المنافقون بذلك ووصل الخبر في
أسرع مدة الى الكفار فأخذوا في التحصن من المسلمين وفي
الاحتراز من استيلائهم عليهم . وإن وقع خبر الخوف للمسلمين
بالغوا في ذلك وزادوا فيه فألقوا الرعب في قلوب الضعفاء ،
ولهذا كان الإرجاف سلاحاً ذا وجهين وكان منشأً للفتن والآفات
من كل الوجوه . ولهذا قال الله تعالى : وإذا جاءهم أمر من
الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول وإلى

أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ^{النساء} ٨٣
وكلما جاءهم من الأمر أذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول وإلى

٣١٥ - شمانية المنافقين

منى المنافقون بالفشل في كل تدبير ، فلم يكن لديهم إلا سلاح العجز والذلة ، وهو الشمانية إن كان ذلك مما يعد سلاحاً . قطاروا يفرحون بمصائب المؤمنين ويتربصون بهم الدوائر ، وخاصة إذا لم يكن الفوز في الحرب من نصيب المؤمنين ، مع أن ذلك لم يحدث إلا نادراً . على أن هذه الشمانية لم تقدم في شيء لأنهم لم تخرجهم من دائرة الخوف والحيرة ، وإنما أضفت إلى قلوبهم أضراراً من الخسة والدناءة ، وإلى نفوسهم أفتنة ليستتروا بها من مهانة العجز . وكان المؤمنون ذوي بصائر نافذة ونيات قوية وعزائم ثابتة يعلمون أنه ليس من شرط الأمر كونه حقاً حصول الدولة لهم والسلطان ، وأنه ليس تواتر الفتح والظفر ، يدل على كونه حقاً ، ولا تواتر الانهزام والانكسار يدل على كونه باطلاً قال الله تعالى (إن تصيبك حسنة فسرهم ، وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون) (براه ٥٠ وما بعد ما) (إن تمسكم حسنة فسرهم

وان تصببكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم

كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون محيط (آل عمران ١٢٠)

وقد حدث أثناء بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن مات نقيب بني النجار أسعد بن زرارة إذ أخذته الذبحة أو
الشبهة ، فكانت وفاته سبباً لتقول اليهود والمنافقين حيث قالوا
لو كان نبياً لم يمت صاحبه ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال عن ذلك يقولون لو كان نبياً لم يمت صاحبه ، ولا أملك
النفسي ولا لصاحي من الله شيئاً .

ARABIC UNIVERSITY IN CAIRO

الباب السادس

عرض عام

الآن وقد فصلنا أغلب حوادث المنافقين وصفاتهم وأحوالهم ومكائدهم ، سنحاول أن نأتي في الصفحات التالية بعرض عام لمن وردت أسماؤهم من المنافقين في كتب السير والتاريخ مع ذكر الحوادث التي لم يسبق ذكرها .

ولقد اختلفت الروايات عن عدد المنافقين وأسمائهم ومن عرف أمره منهم ، فقليل إنهم ثلثمائة وقيل سبعون . ولكن من هم ، وما ذا كان من تفصيل أمرهم وأحوالهم وتديبر كيدهم ؟ صحائف غامضة من التاريخ لم تسطر أو تحقق على وجه التحديد .

وأشهر المنافقين الذين وردت أسماؤهم كانوا من الخزرج والأوس وبعض قبائل اليهود ، ولا شك أن كثيراً من الأعراب

دخلوا في هذا المضمار . وبيان ذلك فيما يلي :

(١) عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين

وأخص أتباعه من قومه :

(٢) مالك بن أبي قوئل

(٣) وسويد بن الحارث

(٤) وداعس

(٥) ووديعه بن ثابت وهو أحد الذين اشتركوا في بناء

مسجد الضرار ، وهو الذي قال إنما كنا نخوض ونلعب

ثم باقى بناء مسجد الضرار وهم :

(٦) ثعلبة بن حاطب وسبقت قصته في منع الصدقة

(٧) معتب بن قشير وهو الذى قال يوم أحد لو كان لنا

من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ، وقال يوم الأحزاب

كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا

لا يأمن اليوم أن يذهب الى الغائط . وروى عنه

القرطبي أنه خرج وأصحابه يوم أحد طمعا في الغنيمة

و خوف المؤمنين فلم يغشهم النعاس وجعلوا يتأسفون
على الحضور

« ٨ » أبو حبيبة بن الأزعر

« ٩ » عباد بن حنيفة

« ١٠ » جارية بن عامر بن العطف

« ١١ » جمع بن جارية بن عامر ، وسبق أن ذكرنا أنه

استعذر من عمر رضي الله عنه ، وأنه لم يكن يعلم
ما في نفوسهم

(يراجع أمره في باب مسجد الضرار)

« ١٢ » زيد بن جارية بن عامر

« ١٣ » نبتل بن الحرث ، وهو الجاسوس الذي وصفه

جبريل عليه السلام وحذر منه

« ١٤ » بجاد بن عثمان

« ١٥ » بحزج

« ١٦ » خدام بن خالد ، وهو الذي أخرج مسجد الضرار

من داره وجميع بناء مسجد الضرار من الأوس فيما

عدا وديعه بن ثابت فقد كان من ردهط عبد الله بن أبي
من الخزرج

ونذكر بعد ذلك الذين أمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بإخراجهم من المسجد حينما وجدهم في حالة
التأمر وهم :

- ١٧٠ عمرو بن قيس
- ١٨٠ رافع بن وديعه
- ١٩٠ زيد بن عمرو
- ٢٠٠ قيس بن عمرو بن سهل
- ٢١٠ الحارث بن عمرو
- ٢٢٠ زوى بن الحارث

وجميعهم من الخزرج ، فيما عدا الأخير فكان من
الأوس .

ونذكر بعد ذلك أشخاصاً آخرين ، كما نذكر الأخبار
التي وردت عن بعضهم :

- ٢٣٠ الحارث بن حاطب أخ ثعلبة بن حاطب من الاوس
- ٢٤٠ هب الله بن نبتل من الاوس
- ٢٥٠ عمرو بن خذام من الاوس
- ٢٦٠ رافع بن زيد وأخوه :
- ٢٧٠ بشر بن زيد وكلاهما من بني زيد بن مالك من الاوس
- ٢٨٠ مربع بن قبيط وهو من بني حارثة من الاوس وكان
ضرب البصر . وقد حدث أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال لا تصحابه عند خروجه مع الجيش في
الطريق الى أحد . من رجل يخرج بنا على القوم من
كتب (أى من قرب) من طريق لا يمر بنا عليهم
فقال أبو خزيمة من بني حارثة أنا يا رسول الله ،
فنفد به في حرة بني حارثة ، وبين أموالهم ، حتى
سلك في مال مربع بن قبيط ، فلما سمع حس رسول
الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ، قام
يحمو في وجوههم التراب ويقول « إن كنت رسول
الله فاني لا أحل لك أن تدخل حائطي » . وأخذ في

يده حفنة من تراب ثم قال : والله لو أعلم أني لا أصيب بها
 غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، . فبدر إليه سعد بن زيد من
 بني عبد الأشهل بالقوس فشججه وابتدره القوم ليقتلوه . فقال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى
 القلب أعمى البصيرة ، . وكان هذا سبباً في أن غضب له ناس
 من قومه من بني حارثة كانوا على مثل رأيه منافقين لم
 يرجعوا مع من رجع مع عبد الله بن أبي ، فهم بهم أسيد
 ابن حضير حتى أوما إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بترك
 ذلك .

٢٩٠ أوس بن قبيط وهو أخ مربع بن قبيط وهو الذي
 قال يوم الخندق يا رسول الله إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا
 فلانرجع إليها .

وقد دخل أوس بن قبيط في فتنة دبرها يهودى اسمه شاس
 ابن قيس ، وقد كان من أمرها أن شاس بن قيس كان عظيم
 الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، فر يوما

على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاوس
والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من
المنتمين وجماعتهم ، وصلاحيات بينهم على الاسلام ، بعد الذي
كان بينهم من العداوة في الجاهلية . فقال قد اجتمع ملائكة بني قيلة
بهذه البلاد . لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملوهم بها من قرار ،
فأمر في شاباً من اليهود كان معهم ، فقال : اعمد اليهم فاجلس
معهم ، ثم اذكر يوم بعثت وما كان قبله . وأنشدتم بعض ما كانوا
تقاولوا فيه من الاشعار . ففعل اليهودي ما أمره به شاس .
فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجلان
من الحيين على الركب وهما أوس بن قيطي من الاوس من بني
حارثة ، وجبار بن صخر من الخزرج من بني سلمة ، فتقاولا
ثم قال أحدهما لصاحبه ، إن شئتم رددناها الآن جذعة (أى
رددنا الحرب من أول أمرها) فغضب الفريقان وقالوا قد
فعلنا موعدهم الظاهرة - أى الحرة - السلاح السلاح . فخرجوا
اليها . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج اليهم
فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر

المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن
هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية ،
واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ فعرف القوم
أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال
من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول
الله سامعين مطيعين . قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن
قيس . وأنزل الله تعالى في شاس بن قيس وما صنع :
« قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على
ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله
من آمن ، تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما
تعملون » آل عمران ٩٨ و٩٩ . وأنزل في أوس بن قيطي وجبار
ابن صخر ومن كان معهم من قومهما حيث توائبوا للحرب
بسبب ما أدخل عليهم شاس من أمر الجاهلية (يأيا الذين آمنوا
أن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد

إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات
الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط
مستقيم) آل عمران من ١٠٠ إلى ١٠٥

ودخول أوس بن قيس في الفتنة على النحو الذي حصل
بدل على أنه كان ينتظر أقل إشارة للتمرد على تعاليم الإسلام
التي كان يدعيها ، ومن يدري لعله كان دسيسة أدخلها شاس
بين المسلمين وتأمر معه أوس على استفزاز النفوس لا ذكاء
فان التناحر .

(٣٠) حاطب بن أمية بن رافع من الخزرج من بني ظفر ،
وكان شيخاً جسيماً قد غشا (كبر وضمف) في جاهليته ، وكان
له ابن من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب ، أصيب يوم
أحد إصابات بليغة حتى أثبتته الجراحات فحمل إلى دار قومه
وهو بالموت فاجتمع إليه أهل الدار من رجال المسلمين ونسائهم
وجعلوا يقولون له أبشر يا حاطب بالجنة ، فنجم (ظهر) حينئذ
تفاق أيه وقال أجل جنة والله من حرم ، بأي شيء تبشرونه ،

فررتهم والله هذا الغلام من نفسه .

(٣١) بصر بن أبيرق سارق الدرع

(٣٢) قزيمات وكان حليفاً لبني ظفر من الاوس ، وقد كان من شأنه أنه قاتل قتالا شديداً يوم أحد ، وكان أول من رمى من المسلمين بسهم فأتقن الرمية ، ثم جال بالسيف فأدهش من رآه ، فقد روى أنه كان يرمى النبال كأنها الرحال ، وأنه كان يكتك كتيت الجمل ، وقتل ثمانية أو تسعة من المشركين ، ولما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك قال إنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك — فلما أثبتته الجراحات وحمل الى دار حلفائه من بني ظفر جعل رجال من المسلمين يقولون له أبشر يا قزيمان فقد ابتليت اليوم ، وقد أصابك ما ترى في الله ، فقال بماذا أبشر ؟ فقال الله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت فلما اشتدت به جراحاته وأذته أخذ سهماً من كنانته فقطع بها رواهش يده فقتل نفسه ، وفي رواية جعل ذباب سيفه في صدره

بين نذيه ثم تحامل عليه حتى قتل نفسه.

ولم يكن هذا الرجل من الأوس ، وإنما كان غريباً ،
فقد روى عاصم بن عمرو بن قتادة من بني ظفر من الأوس
قصة قزمان ، على أنه كان فيهم أتياً : أى غريباً لا يدرى
عن هو .

ولما انتحر قزمان جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم
وقال أشهد أنك رسول الله قال وما ذاك؟ قال الرجل الذي ذكرت
أنفاً أنه من أصحاب النار فعل كذا وكذا . فقال الله أكبر أشهد
أنى عبد الله ورسوله ، وأمر بلال فنادى فى الناس انه لا يدخل
الجنة إلا نفس مسلم ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل
الفاجر . وقد أشار الامام السبكي الى قزمان فى تائيدته
فقال : ...

وقلت لشخص يدعى الدين أنه ...
وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أحدكم

ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ،
وأن الرجل لعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل
الجنة — وفي هذا إشارة الى أن باطن الامر قد يكون بخلاف
ظاهره . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل
يقاتل شجاعاً ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . فقال ، من يقاتل
لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

«٣٣٣» الضحاك بن ثابت من بنى عبد الأشهل من الأوس
وكان محباً لليهود . ولم ترو عنه حوادث خاصة ، وإنما ورد أن
حسان بن ثابت قال عنه :

من مبلغ الضحاك أن عروقه
أعيت على الإسلام أن تتمجدا
أتحب يهدان الحجاز ودينهم
كبد الحمار ، ولا تحب محمداً

هنا لعمرى لا يوافق ديننا
ما استن آل في الغضاء وخودا

« ٣٤ » الجلاس بن سويد بن الصامت وهو من بني عمرو بن

عوف من الاوس وكان لزوجته ابن يتيم اسمه عمير بن سعد
يعيش مع جلاس في منزله ولا مال له ، وكان جلاس يكفله
ويحسن اليه . فجاء الجلاس ليلة فاستلقى على فراشه ثم قال لئن كان
ما يقوله محمد حقاً فلنجن شر من الخير فقال عمير يا جلاس إنك
لأحب الناس إلى وأحسنهم عندي يداً وأعزهم على أن يصيبه
شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحك ،
ولئن صدمت عليها ليهاكن على ديني ولأحداها أيسر على من
الأخرى ، فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له مقالة
جلاس فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جلاس خلف
بالله لقد كذب على عمير وما قلت ما قال فقال عمير لقد قلت
فتب إلى الله ولولا أن ينزل القرآن فيجعلني معك ما قلت .
وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف الجلاس عند
المنبر فخاف أنه ما قال واستخلف الراوى عنه خلف لقد قال
وقال اللهم أنزل على نبيك تكذيب الكاذب وتصديق الصادق ،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم آمين فنزل قوله تعالى :

(يخلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا
بعد إسلامهم) برامة ٧٤ وما بعدها فاعترف الجلاس وقاب
وقبل منه صلى الله عليه وسلم توبته وحسنت توبته ولم ينزع عن
خير كان يفعله مع عمير ، فكان ذلك مما عرف به حسن توبته ،
وقال صلى الله عليه وسلم لعمير لقد وقيت أذنك .

« ٣٥ » الحارث بن سويد بن الصامت أخ الجلاس - خرج

مع المسلمين يوم أحد ، واتضح فيما بعد أنه لم يخرج بقصد الحرب
في صفوف المسلمين ، ولكن ليتربص فرصة ليأخذ بثأر له .
وكان من أمر هذا الثأر أن سويداً أباه قتل زياداً أبا المجذر في
الجاهلية فظفر المجذر بسويد والد الحارث فقتله في أبيه ، وكان
ذلك قبل الإسلام . فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة
أسلم الحارث بن سويد وأسلم المجذر بن زياد وشهد بدرأ ،
فجعل الحارث يطلب مجزراً ليقتله بأبيه فلم يقدر عليه . فلما كان
يوم أحد وجال المسلمون جوارتهم أتاه الحارث من خلفه فضرب
عنقه ، قيل وقتل أيضاً قيس بن زيد . فلما رجع النبي صلى الله

يُكَلِّمُ النَّاسَ بِمَا رَزَقَهُ مِنْ مَغْلُوبَةٍ لَهُمْ لَسَانًا عَلِيًّا — ٢٢١ —

عليه وسلم إلى المدينة عائداً من غزوة حراء الأسد عقب غزوة
أحد جاءه جبريل عليه السلام أن الحارث بن سويد في قباء
فانهض إليه واقتص منه بمن قتله من المسلمين غدرأ يوم أحد .
فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء في وقت لم يكن
يأتيهم فيه وهو شدة الحر في يوم حار ، فخرج إليه الأنصار من
أهل قباء ومنهم الحارث بن سويد وعليه ثوب مورس وفي لفظ
آخر في ملحفة مورسه ، وفي لفظ آخر في ثوبين مضرجين فأمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم عويم بن ساعدة بضرب عنقه
وفي رواية أنه قال له قدم الحارث بن سويد إلى باب المسجد
واضرب عنقه ، وقيل أمر عثمان بن عفان بذلك فقدمه ليضرب
عنقه فقال الحارث لم يا رسول الله فقال بقتلك المجذر بن زياد
وقيس بن زيد ، فما راجعه الحارث بكلمة فضرب عنقه — وفي
رواية أن الحارث قال والله قتلتني وما كان قتلي إياه رجوعاً عن
الاسلام ولا ارتياباً فيه ، ولكن حمية الشيطان ، وإني أتوب إلى
الله ورسوله مما عملت وأخرج دبه وأصوم شهرين

مستابعين وأعتق رقبة ، فلم يقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم .

٣٦٠ الجرد بن قيس من بني سلمة من الخزرج وسبق الكلام

عنه في غزوة تبوك والحديبية ، وكان مشهوراً بالبخل قال النبي صلى الله عليه وسلم لبني سلمة بعد أن نزل القرآن في شأن الجرد ابن قيس « من سيديكم يا بني سلمة » قالوا « جرد بن قيس غير أنه بخيل جبان » فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أى داء أدوا من البخل بل سيديكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن معرور . فقال حسان بن ثابت في ذلك :

وسود بشر بن البراء لجوده

وحق لبشر بن البراء أن يسودا

إذا ما أتاه الوفد أذهب ماله

وقال خذوه إني عائد غداً

منافقو اليهود

لم يكن النفاق قاصراً على الكفار من الأوس والخزرج ،
فقد دخل الاسلام أيضاً تقييه من القتل ورغبة في الدسائس طائفة
من اليهود تعوذوا بالاسلام ودخلوا فيه . منهم من يأتي :

- ٣٧) سعد بن حنيف من بني قينقاع
٣٨) نعمان بن أوفى بن عمرو من بني قينقاع
٣٩) وأخوه عثمان بن أوفى
٤٠) زبد بن اللصديت القينقاعي . وسبقت له قصة صغيرة
إذ كان مع جيش المسلمين في غزوة تبوك وقال
ما قال عند ما ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه
وسلم — وهو أيضاً الذي قاتل عمر بن الخطاب
رضي الله عنه بسوق بني قينقاع
٤١) ساسلة بن برهام
٤٢) كنانة بن صوريا
٤٣) رافع بن حريملة من بني قينقاع عده ابن هشام في

المنافقين وأورد عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عنه حين مات « قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين » ثم روى عنه بعد ذلك ما يدل على أنه من الكفار . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يهود إلى الاسلام ، ورغبهم فيه ، وحذرهم خيبر الله وعقوبته ، فأبوا عليه ، وكفروا بما جاءهم به ، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عباد ، وعقبة بن وهب . يا معشر يهود اتقوا الله ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعة ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حريملة ووهب ابن يهوذا ، ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده . فأنزل الله تعالى في ذلك من قولها (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير) (التائدة: ١٩) ثم قص عليهم خبر موسى ومالتي منهم وانتفاضهم عليه ، وما ردوا من أمر الله حتى تاهوا في الأرض

أربعين سنة عقوبة لهم .

ولما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أخبار يهود فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رافع بن حريملة ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والإنجيل ، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود . ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله تعالى فيهم (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون من قبل قولهم ، قاله محكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) البقرة ١١٣ أي أن كلا يتلو في كتابه تصديق ما كفر به أي بكفر اليهود لعيسى ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى عليه السلام بالتصديق لعيسى عليه السلام ، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى عليه السلام من تصديق موسى

عليه السلام ، وما جاء به من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بما في يد صاحبه .

ومما ورد عن رافع بن حريملة أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد إن كنت رسولا من عند الله كما تقول ، فقل لله فليكن منا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم من قبلهم مثل قوطهم ، تشابهت فأولهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) البقرة ١٤٨

كذلك ورد عن رافع بن حريملة أنه ووهب بن زيد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد اثنتا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، أو فجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) البقرة ١٠٨ وأيضا وقالوا لن

تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون
لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها
تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي
بالله والملائكة قبيلات ، أو يكون لك بيت من زخرف أو
ترقى في السماء ، ولئن تؤمن لرقيمك حتى تنزل علينا كتابا
نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا »

الاسراء من ٩٠ الى ٩٣

وفي جميع ما ذكر يدل دلالة واضحة على أن رافع بن
حريمه كان كافرا كفرا صريحا . وربما لجأ في أواخر حياته تحت
خبط الحوادث الى النفاق ليزداد إمعانا في الكفر أو يمتثل للفتنة
أو يتقى القتل .

٤٤٤ رفاعه بن زيد بن التابوت روى ابن هشام أنه كان
من عظماء يهود بني قينقاع ، وأنه كان ممن أسلم ظاهرا . ولكن

ورد عنه ما يفيد اعتباره كافراً ، وذلك فيما رواه أن كردم بن
قيس كان حليف كعب بن الأشرف ، وأسامة بن حبيب ، ونافع
ابن أبي نافع ، وبحري بن عمرو ، وحى بن أخطب ، ورفاعة
ابن زيد بن التابوت ، يأتون رجالا من الانصار كانوا يخالطونهم
ينتصحون لهم ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
فيقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم ، فانا نخشى عليكم الفقر في
ذهابها ، ولا تسارعوا في النفقة فانكم لا تدرون علام الامر
يكون ، فانزل الله تعالى : « الذين يبخلون ويأمرون
الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، واعتدنا
للكافرين عذابا مهينا . » والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس
ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان
له قرينا فساء قرينا . وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم
الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ،
(النساء من ٢٧ الى ٢٩) وكان رفاعة بن زيد بن التابوت إذا كلم
رسول الله صلى الله عليه وسلم لوى لسانه وقال أرعنا سمعك يا محمد

حتى نفهمك ثم طعن في الاسلام وعابه ، فانزل الله فيه :
« ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة
ويريدون أن تضلوا السبيل ، والله أعلم بأعدائكم وكفى
بالله وليا وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا
يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وسمعنا
واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو
أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم
ولسكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا »

(النساء من ٤٤ إلى ٤٦)

وقد مات رفاعه بن زيد بن الثابت بالمدينة في أثناء عود
النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من غزوة بني المصطلق .
وعند ما وصلوا الى مكان يقال له بقاء هبت على الناس ريح
شديدة آذتهم وتخوفوها كادت تدفن الرأكب ، وخاف المسلمون
على أهلهم أن يكون ذلك لأمروحدث بالمدينة ، فان مدة المواقعة

التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين عيينة بن حصن كان ذلك حين انقضائها فخافوا على المدينة منه فقال صلى الله عليه وسلم ليس عليكم منه بأس - يعنى عيينة بن حصن - ما بالمدينة من نقب (أى باب) إلا وملك يحرسه ، وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها ، وإنما هبت هذه الريح لموت عظيم من الكفار ، وفي رواية مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة ، فكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إذ مات فى ذلك اليوم رفاعه بن زيد - وقد ذكر أهل المدينة أن تلك الريح وجدت بالمدينة وأنه لما دفن عدو الله سكنت .

وقد روى أيضاً أن عبادة بن الصامت قال لعبد الله بن أبى ابن سلول وكان مع جيش المسلمين فى الغزوة . يا أبا حباب مات خليلك قال أى خليل قال من موته فتح للإسلام وأهله قال من قال رفاعه بن زيد قال وا ويلاه من أخبرك يا أبا الوليد بموته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أنه مات هذه الساعة فحزن حزناً شديداً .

وهذا يدل على أن رفاعه بن زيد كان على صلة وثيقة مع
زعيم النفاق وأنه كان يدبر معه المكائد ويردّي تارة في الكفر الصريح
وأخرى في النفاق حتى قيل إنه وسويد بن الحارث أظهر الإسلام
ونافقا وأن رجالا من المسلمين كانوا يوادونهما فأنزل الله فيهما:
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ
هَزْواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرِ
أُولِيَاءِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ
اتَّخَذُوا هَزْواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا
أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ . قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ
مِنْ ذَلِكَ ، ثَوْبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ
مِنْهُمْ الْقُرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً
وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ وَأَذَا جِئْتُمْ بِهِمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا
بِالْكَفَرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ »
للأنه من ٥٧ الى ٦١

أما المنافقون من الأعراب فلم يرد من أسمائهم إلا القليل
مثاله :

(٤٥) الأخنس بن شريق واسمه أنى قيل إنه خنس يوم بدر
بثلثمائة رجل من حلفائه من بنى زهرة عن قتال رسول الله صلى
الله عليه وسلم وجاء بعد ذلك إليه فأظهر الإسلام وقال الله يعلم
أنى صادق ثم هرب بعد ذلك فمر بزرع لقوم من المسلمين وبحمر
فأحرق الزرع وعقر الحمر - وقيل إنه الذى نزلت فيه
(ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم) و (ويل لكل
همزة لمزة) وقيل إنه لم يثبت قط إسلامه .

(٤٦) أبو الجواظ وسبق ذكره فى أحوال المنافقين فى القضاء .

* * *

وإلى هنا وقف بنا المطاف حول مكان النفاق فى دورة
هذه الحقبة التاريخية اللامعة . فإن يكن لنا من الأمر فائدة
وموعظة فحسبنا أن نكون قد صاحبنا الحق مع الرسول الأعظم

وشهدنا من خلال الحادثات عنف الصراع مع باطل النفاق
كيف يلتفت ويلتوى ويظهر ويختفي ويدفع الى ظلمات الرجس
ومهاوى الفتن ثم هو يتضاءل ويفنى ولا يغير من الحق شيئا.
ولنا في رسول الله أسوة حسنة. ولعلنا إذا حزننا الأمر وأطافت
بنا طوائف الباطل وأفانين النفاق لا تأخذنا غاشية من بهرجة
وزخرفة ورجعنا الى الله الحق العلي مستعينين، واهتدينا بهدى رسوله
الكريم، فأكرمنا بالانقاذ من الفتن وانصلا لآل وجملنا من الذين
أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ملحق

الآيات القرآنية التي وردت في شأن المنافقين

رقم الآية	أول الآية	السورة
من ٨ الى ٢٠	ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين	البقرة
١٤٣ و ١٤٢	سيقول السفهاء	»
٢٠٥ و ٢٠٤ ٢٠٦	ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا	»
٧٢	آل عمران وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره	آل عمران
من ١١٨ الى ١٢٠	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة	»

السورة	أول الآية	رقم الآية
آل عمران	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين	١٤٢
"	وطائفة قد أهمتهم أنفسهم	من ١٥٤ الى ١٦٨
"	ما كان الله ليجزى المؤمنين على ما أنتم عليه	١٧٩
النساء	الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل	٣٧ و ٣٨
"	ألم ترم إلى الذين يزعمون	من ٦٠-١١٠
"	يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط	من ١٣٥ الى ١٤٦
المائدة	يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر	٤١
"	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء	من ٥١ الى ٥٦

السورة	أول الآية	رقم الآية
المائدة	وإذا جاءكم قالوا آمنا	٦١
الأنفال	إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم	٤٩
براءة	يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض	من ٣٨ إلى آخر السورة
الحج	ومن الناس من يعبد الله على حرف	١٣ و ١٢ و ١١
النور	إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم	من ١١ إلى ٢٦
•	ولا تكرر هوا فتياكم على البغاء	٣٣
•	ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا	من ٤٧ إلى ٥٣
•	إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه	من ٦٢ إلى ٦٤

السورة	أول الآية	رقم الآية
الأنكبوت	ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أؤذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله	١١ و ١٠
الأحزاب	يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين	من ١ إلى ٢٠
•	وما كان لمؤمن ولا مؤمنة	من ٣٦ إلى ٤٨
•	لئن لم ينته المنافقون	٦٠ و ٦١
•	إنا عرضنا الأمانة	٧٢ و ٧٣
القتال	ومنهم من يستمع إليك	من ١٦ إلى آخر السورة
الفتح	ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء	٦

السورة	أول الآية	رقم الآية
الفتح	سيقول لك المخلفون من الاعراب	من ١١ إلى ١٦
الحديد	يوم يقول المنافقون والمنافقات	من ١٣ إلى ١٥
المجادلة	ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى	٨
د	ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم	من ١٤ إلى ٢٢
الحشر	ألم تر إلى الذين نافقوا	من ١١ إلى ١٧
المنافقون	إذا جاءك المنافقون	من ١ إلى ٨
التحريم	يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين	٩

تصحيح الخطأ

رقم الصفحة	رقم الخط	الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	رقم الخط	الخطأ	الصواب
٢	٥	حكمة	كلمة	٣٩	١٧	ابن	بن
٥	١٤	عقيدة	عتيدة	٢٤١		بحسبون	يحسبون
٦	٥	لا يشك	لا شك	٤٨	١١	الجين	الجيش
٦	١٤	يأتى	يأتى	٤٨	١٥	ابن	بن
٨	١٥	تسيل	يسيل	٤٩	١٤	بن	ابن
٩	٨	الدى	الذى	٥٣	١١	يأى	يأتى
١١	٢	اضطرت	اضطرت	٥٦	١	وعضب	وعضب
١٢	٨	البسيط	البسيطة	٦٢	٢	أن أنه	أنه
١٨	١٦	الشرقى	الغربى	٧٥	٩	آل عمران	آل عمران ١٤٤
١٩	٤	يرجع	يرجع	٧٥	١٢	أكثر	أكثر
٢٣	٦	وودا لخطوة	وودا الخطوة	٧٥	١٦	وما	ما
٢٨	٣	بين عمرو	بين عمرو	٧٦	٢	لو كافى	لو كان
٢٨	٥	فاستكشفوا	فاستكشف	٧٦	٩	آل عمران	آل عمران ١٥٨
٣٠	١	القبليه	القبليّة	٧٧	٩	آل عمران	آل عمران ١٥٩
٣٥	٤	الحزرج	الحزرج	٩١	١٥	فبرقت	فبرقت

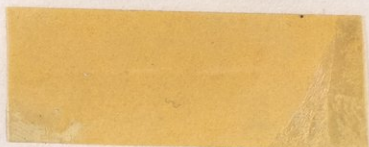
رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٩٣	٤	نقص	نقض	١٢٨	١٢	ونخرج	وتخرج
٩٤	٥	وإن	إن	١٢٩	٣	وامش	والمسكة
٩٤	٦	دارنا	ديارنا	١٣٢	٦	الشاقل	التشاقل
٩٤	١٠	بيوتنا	بيوتنا	١٣٢	١٠	غركم	غيركم
١٠٤	٣	وسارو	وساروا	١٣٥	٣	م	ثم
١٠٤	١٢	إرفق	أرفق	١٣٦	١	فأفعدوا	فأفعدوا
١٠٧	٦	وإدا	وإذا	١٤٠	٧	فسيكون	فيكون
١١٣	٣	رسولي	رسول	١٤٢	١٥	رسو الله	رسول الله
١١٤	٧	تثبت	أثبتت	١٤٤	٣	يغبوكم	يغبوكم
١١٤	٨	فقهت	نقمت	١٥١	٤	وتجعلون	وتجعلون
١١٦	٩	مبرثي	مبرثي	١٥٤	٩	يقولون	يقول
١١٧	١	من الجمان	مثل الجمان	١٥٦	١٢	واكتماهم	واكتماهم
١١٩	٢	يتغلب	ينقلب	١٥٧	٩	بالله	بالله
١٢٢	١٣	تقر منه	تقر منه	١٥٧	١١	تقروا	نقموا
١٢٧	١٤	المسامي	المساحي	١٥٩		إليه	إليه

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الخطأ	الصواب	الخطأ	الصواب	الخطأ	الصواب	الخطأ	الصواب
يقر بنك	لا يقر بنك	١٣	١٦٧	يقر بنك	لا يقر بنك	١٣	١٦٧
أرفى	أوفى	١٢	١٦٨	أرفى	أوفى	١٢	١٦٨
مسجوط	مسجد	٦	١٧٣	مسجوط	مسجد	٦	١٧٣
	يزاد في أول الصفحة كلمة الباب الثاني		١٨٧		يزاد في أول الصفحة كلمة الباب الثاني		١٨٧
ألقوا	ألقوا	١	١٩٤	ألقوا	ألقوا	١	١٩٤
نحسبهم	نحسبهم	٣	١٩٤	نحسبهم	نحسبهم	٣	١٩٤
الذئب	الذئب	٥	١٩٧	الذئب	الذئب	٥	١٩٧
واصح	واضح	٨	٢٠٠	واصح	واضح	٨	٢٠٠
القلوت	القلوب	١٤	٢٠٧	القلوت	القلوب	١٤	٢٠٧
ورديت	ورويت	١٨	٢٠٨	ورديت	ورويت	١٨	٢٠٨
احداث	احداث	٨	٢١١	احداث	احداث	٨	٢١١
أنعالى	تعالى	١٢	٢١٤	أنعالى	تعالى	١٢	٢١٤
ببت	ثبت	٦	٢١٦	ببت	ثبت	٦	٢١٦
نكتب	يكتب	١	٢١٨	نكتب	يكتب	١	٢١٨
الخيت	الخيت	٥	٢٢٣	الخيت	الخيت	٥	٢٢٣
ويفتح	ويفتح	٨	٢٢٣	ويفتح	ويفتح	٨	٢٢٣
رلا	رلا	٤	٢٣٠	رلا	رلا	٤	٢٣٠
مسك	مسك	١	٢٣٥	مسك	مسك	١	٢٣٥
إذا	إذا	٦	٢٣٥	إذا	إذا	٦	٢٣٥
يستند	يستند	١٥	٢٣٥	يستند	يستند	١٥	٢٣٥
القرد	القرد	٧	٢٤٠	القرد	القرد	٧	٢٤٠
زراوشت	زراوشت	٩	٢٤١	زراوشت	زراوشت	٩	٢٤١
لا يغار	لا يغار	٨	٢٤٦	لا يغار	لا يغار	٨	٢٤٦
سعيد	سعيد	٦	٢٥٥	سعيد	سعيد	٦	٢٥٥
وأدقه	وأدقه	١٤	٢٥٨	وأدقه	وأدقه	١٤	٢٥٨
يقول	يقول	١٣	٢٥٩	يقول	يقول	١٣	٢٥٩
ورسوله	ورسوله	٩	٢٧٦	ورسوله	ورسوله	٩	٢٧٦
يصلهم	يصلهم	٨	٢٨٥	يصلهم	يصلهم	٨	٢٨٥
ففضلت	ففضلت	٤	٢٨٦	ففضلت	ففضلت	٤	٢٨٦

الاصواب	الخطا	الكتاب	الرقم
أضفوا	أضموا	هاتش	٢٨٧
يضررونك	بضررونك		١٢٩١
زيد	زبد		١٣٢٩١
غيب	غيب		٨٢٩٢
باختلاق	باختلاف		١٠٢٩٤
على الكذب	على الله الكذب		١٣٠١
فيها	قيها		٥٣٠١
٣٠٥	٢٠٥ الصحيفة	رقم	٣٠٥
ولذلك لم يعدوا	لم يعدوا		١٤٣٠٥
يكتب	بكتب		٩٣٠٦
رحيما	رحيما		٤٣١١
لصاحي	لصاحي		٨٣١٦
يرجعوا	يرجعوا		٧٣٢٢
أبليت	ابتليت		١١٣٣٦
ينسا	ينسا		٨٢٣٦





AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

main



0 0 0 0 0 0 3 6 9 6 8

BP 188.14 H8 S27x

24 OCT 1988

